الأحجار تتكلم

الطبعة الثانية

علم الآثار يؤيد الكتاب المقدس

د. جون إلدر

دار النشر الأسقفية

الطبعة الثانية

الأحجار تتكلم

علم الآثار يؤيد الكتاب المقدس

تأليف

د. جون إلدر

ترجمة

د. عزت زكي

مراجعة

د. داود رياض

دار النشر الأسقفية

The first edition was published in 1975, by Episcopal Publishing House

الطبعة الثانية ـ منقّحة ومُزيّدة

الكتاب: الأحجار تتكلم

الناشر: دار النشر الأسقفية

المؤلف: د. جون إلدر

المترجم د. عزت زكي

مراجعة وتنقيح مادة علمية وتاريخية: د. داود رياض

مراجعة لغوية: منصور الجندي

التحرير: ملاك نصر

جمع تصويري وتصميم داخلي: هايدي فوزي

المطبعة: أونوبرنت / ت: ٥٨٧١٠٠٢

رقم الإيداع: ٢٠٠٠/١٤٧٩٩

الترقيم الدولي: I.S.B.N.: 977-5884-24-1

الغلاف وفصل الألوان: سباركل لفصل الألوان

(جميع حقوق الطبع محفوظة لدار النشر الأسقفية، فلا يجوز الاقتباس أو إعادة النشر والطبع للكتاب، بدون إذن كتابي من الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع).

صورة الغلاف: آثار مُجمّعة، لمجمع يهودي بمدينة كفرناحوم التي عاش بها المسيح، وهو نفس المجمع الذي علّم فيه المسيح وأخرج الروح النجس من أحد الرجال (مر ١: ٢١-٢٩). وهو مبني على طراز مبنى البرلمان الكورنثوسي.

المحتويات **صفحة**

مقدمة الطبعة الثانية ٥

مقدمة الطبعة الأولى ٩

تمهيد ١٢

الجزء الأول: سياحة في أسفار العهد القديم

الفصل الأول: أبطال الطليعة ١٧

الفصل الثاني: أضواء على تكوين المخلوقات ٢٧

الفصل الثالث: عهد الطوفان والآباء ٣٥

الفصل الرابع: أور والسومريون ٤٥

الفصل الخامس: يوسف والخروج من مصر ٥٧

الفصل السادس: موسى والقوانين المعاصرة ٦٧

الفصل السابع: افتتاح كنعان – الحيثيون – زمن القضاة ٨١

الفصل الثامن: المملكة المتحدة ٩١

الفصل التاسع: مملكة الشمال ١٠١

الفصل العاشر: الأيام الأخيرة لملكة يهوذا .. وأمجاد بابل ١١٣

الفصل الحادي عشر: ظهور فارس ١٢٥

الفصل الثاني عشر: قصة الكتابة والمخطوطات القديمة ١٣٥

الفصل الثالث عشر: في كهوف البحر الميت ١٤٧

الجزء الثاني: سياحة في أسفار العهد الجديد

الفصل الأول: في رمال مصر ١٥٧

الفصل الثاني: أضواء على بشارة يوحنا ١٦٥

الفصل الثالث: مع البشير لوقا ١٧٣

الفصل الرابع: أماكن أخرى في حياة المسيح ١٨٥

الفصل الخامس: الكنيسة الأولى ١٩٩

الفصل السادس: في خطوات بولس الرسول ٢١١

الفصل السابع: كنائس سفر الرؤيا ٢٣٥

خاتمة ٢٤٣

مقدمة المُراجع للطبعة الثانية

جذبني هذا الكتاب منذ سنين. وفي كل مرة تختار دار النشر الأسقفية كتاباً لإعادة الطبع أفضل من المرة السابقة! فعندما وقع الاختيار منذ أكثر من عشر سنوات على كتاب "إنجيل برنابا"، وجدتها فرصة سانحة للتنقيح ولتزويد الكتاب بما ينقصه، حتى يخرج في ثوبه الأنيق والأكثر اكتمالاً، خاصة في جزئه الأول عن صحة الكتاب. فقد كنت وقتها مشغولاً بعمل بحث عن "صحة الكتاب المقدس" وعن "إنجيل برنابا"، وكان الكتاب فرصة لإضافة ما نقص حول الموضوعين في كتاب واحد، وكأنني أضرب عصفورين بحجر واحد.

صدر "إنجيل برنابا" بما فيه من بحث علمي كافٍ إلى حدٍ كبير، خاصة في طبعتي عام ١٩٨٨ وعام ١٩٩٦[1]. ثم أخيراً جاء كتابنا هذا، ليؤكد مصداقية الكتاب المقدس من خلال علم الآثار والحفريات Archiology. فإن سكت أولاد إبراهيم، فإن الحجارة تتكلم من خلال الحفريات والآثار بما وُجِدَ فيها من معلومات وأدلة علمية تُثبت صدق الكتاب المقدس علمياً وتاريخياً.

فهذا الكتاب يهم أنواعاً مختلفة من المتعلمين والمثقفين، وقد حاولنا قدر الإمكان أن نجعل

---

[1] ثم صدر بعد ذلك كتاب "د. فريز صموئيل" بنفس الاسم، وهو يضيف بحثاً قوياً عن شخصية كاتب إنجيل برنابا، وعما يُسمى "بتحقيق النص"، انظر: المقدمة صـ ٩، حيث أن "إنجيل برنابا" يرجع للعصور الوسطى وليس لوقت المسيح.

لغته عصرية، مع تحقيق النص ومقارنته مع أبحاث وكتابات أخرى صدرت مؤخراً تساعد الباحث المدقق أن يصل للحقيقة بطريقة أسهل، فأصبح الكتاب مفيدا للباحث عن الحق ولطالب اللاهوت، بل ولكل من يُريد أدلة دامغة تريح قلبه وضميره، وتبدّل شكوكه باليقين في أن الله قادر على حفظ كلمته، وأنه ساهر عليها ليجريها، فلن يستطيع أحد أن يبَدلها أو يغيّرها، فهي رسالته لخلاص البشر.

ونحن نسأل عن التوراة والإنجيل الأصليين (وهما رسالة الله لهداية البشر) لو كانتا قد حُرِّفتا، فهل علم الله بالتحريف؟! من المؤكد إنه كان سيعرف، فهو العليم بكل شيء. وإن كان قد حدث تحريف، فهل يرضى بهذا التحريف؟! بالتأكيد سوف لا يرضى. ونسوق سؤلاً آخر: هل يعجز الله عن أن يحفظ رسالته من التحريف؟! حاشا وكلا، فإن الله قادر على كل شيء بكل تأكيد، وإن كان قد حدث هذا التحريف، فهو قادر على إبادة المحرّفين، وحفظ رسالته غير منقوصة.

وعندما فكرت في اختيار موضوع بحث لرسالة الدكتوراه، كان أمامي أربعة[1] موضوعات لاختيار أكثرها نفعاً للدفاع عن الإيمان، ووجدت أن الموضوع الأول وهو "إثبات صحة الكتاب المقدس" والرد على النقد الموجه له من المكن تغطيته من خلال الكتب العلمية التي تُثبت صحة الكتاب بأدلة علمية من خارج الكتاب نفسه، وكان كتاب "إنجيل برنابا" أول تلك الكتب ثم "الأحجار تتكلم". أما كتاب "برهان يتطلب قراراً" لمؤلفه "جوش مكدويل"(الذي ترجمه وحرره الدكتور القس/ منيس عبد النور)، فهو من أفضل الكتب في هذا المجال، ويغطي الجزء الأول منه: "ثقتي في الكتاب المقدس" موضوع صحة الكتاب المقدس، خاصة من ناحية صدق نبواته، مع تناول

---

[1] عادة ما تقع نقاط وأسئلة الدفاع عن الإيمان تحت أربعة مواضيع أساسية، وهي: صحة الكتاب المقدس والرد على النقد الموجه له، وشخصية المسيح وإمكانية تجسّد الله في المسيح، والوحدانية والثالوث. والموضوع الأخير هو الخطية ولزوم الكفارة من خلال الصليب.

الإثباتات العلمية الموثّقة بالمخطوطات.

وإن كان كتاب "إنجيل برنابا" يتناول صحة الكتاب المقدس بصفة عامة، ويقدم الأدلة الدامغة على زيف إنجيل برنابا. فإن كتابنا هذا يتناول الموضوع علمياً من الناحية الأثرية والتاريخية مع الإشارة للمخطوطات. وهكذا أكملت هذه الكتب بعضها البعض، لإثبات صحة الكتاب المقدس، ولتقديم الأدلة الدامغة التي تدل على مصداقيته كرسالة الله لهداية البشر.

أما الموضوع الثاني وهو "شخصية المسيح" فكان كتاب "تجسُّد الكلمة" رداً شافياً لمواجهة الطعن في الصورة الصحيحة لشخصية المسيح، وإنْ كان "القديس أثناسيوس الرسولي" قد كتبه في القرن الرابع الميلادي للدفاع عن الإيمان المسيحي ضد هجمات الوثنية، فحق له أن يُلقّب "بحامي الإيمان". ولم يكن المجال متسعاً في ذلك الكتاب إلا لجعل لغته معاصرة ومناسبة للرد على المشككين في صحة الإيمان حول شخصية المسيح (كلمة الله المتجسد)، بل وحول الموضوع الثالث وهو "وحدانية الله في الثالوث".

أما الموضوع الرابع عن "موت وقيامة المسيح"، فقد قدم كتاب " قيامة المسيح والأدلة على صدقها"، للأخ "عوض سمعان" الأدلة الكافية على القيامة، ونفس الشيء قدمه كتاب "منْ دحرج الحجر؟" (الذي ترجمه حبيب سعيد)، وهو خلاصة بحث علمي للمحامي "فرانك موريسون" الذي أبحرت سفينة حياته على عكس ما اشتهى في البداية، فبينما كان يحاول إثبات أن القيامة قصة وهمية؛ اكتشف بالأدلة التاريخية الدامغة أن الأدلة على قيامة المسيح أكثر من أي حدث تاريخي آخر، وهكذا بنى إيمانه على صخر الدهور، وقَبِلَ المسيح فادياً ومخلصاً، بعد أن كان هو نفسه ملحداً[1]!

وبقي الجزء المهم من الموضوع الأخير وهو " موت المسيح" أو حتمية كفارة المسيح، ولماذا الصليب"؟ فكان لا بد من شرح كفارة المسيح ووجوبها. فعبر العصور شرَّع اللهُ الذبائح المختلفة للتكفير

[1] هذا بالإضافة لكتابات "د. نبيه فريز" عن صلب المسيح وقيامته.

عن الخطية، ولإعادة السلام مع الله، حتى جاء فصحنا الأعظم، فكان الله في المسيح مصالحاً العالم لنفسه (٢كو ٥: ١٧-١٩). فالكفارة بذل وعطاء وتضحية. وهناك تضحية بالنفس من أجل الأسرة أو من أجل الوطن، فالإنسان قد يضحي بنفسه من أجل المبادئ، أو من أجل شخص يستحق التضحية.

لكن كفارة المسيح كانت في قمة الذبائح والتضحيات، فكانت الستر والغطاء لخطايا البشرية. والكفارة تحمل أيضاً في معناها المصالحة، فهي المصالحة مع الله حتى نكون في سلام حقيقي معه، فنستمتع بعلاقة روحية معه، ففي محبة الله بذل المسيح لأجلنا، دون أن نستحق ذلك (يو ٣: ١٦)، حتى يصبح لنا السلطان أن نصير أولاداً روحيين لله (يو ١: ١٢).

وليس المجال، هنا، عن موضوع كفارة المسيح وشرحها، ولكن لتوضيح أن كل العقائد المسيحية تعتمد على الكتاب المقدس لاثبات صحتها، وكتابنا هذا من أفضل الكتب في هذا الموضوع، كما شهد به كثيرون من الباحثين والقراء منذ صدور طبعته الأولى في السبعينيات من القرن الماضي، ثم نفاذها سريعاً، ومطالبتهم بإعادة طبعه مرة أخرى، فهو يقدم الأدلة العلمية الدامغة على أن كل الآثار التي اكتُشفت نطقت بصدق الكتاب المقدس، فحقاً الأحجار تكلمت، أو كما قال السيد المسيح: "إن سكت هؤلاء (البشر) فالحجارة تصرخ" - وهي فعلاً صرخت فرحاً وشهادة!

لقد جاء السيد المسيح إلى عالمنا، فكان هو النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان (يو ١: ٩)، وكل من استنار بمعرفته للحقيقة، وقبله في قلبه؛ صار له السلطان أن يصبح ابناً روحياً لله (يو ١: ١٢).

د. / داود رياض أرسانيوس

دكتوراه الفلسفة في اللاهوت (Ph. D. \ Fuller)

مقدمة الطبعة الأولى

هـذا الكـتاب هـو خلاصـة مـا وصـل إلـيه العـالم والباحـث "د. جون إلدر" (الذي عاش طويلاً بإيـران)، في دراسـاته، وأبحاثـه العمـيقة في عـلم الآثار، وصِلته بالكتاب المقدس، الأمر الذي استغرق أربعـين عامـاً كاملة من عمره، قضاها متنقلاً في ربوع الشرق الأدنى، متجولاً في معظم مناطق الآثار التي ورد ذكرها في صفحات هذا الكتاب .

ولقـد طلـب مـنه جماعـة مـن الأمريكـيين والأوربـيين المقـيمين في طهـران، أن يقدم لهم هذه الأبحـاث في سلسـلة مـن المحاضـرات، فأجـابهم إلى طلـبهم، فصـار يعقـد الاجـتماعات، ويلقـي المحاضرات التي كوَّنت مادة هذا الكتاب.

ودكـتور "إلـدر" عـاش في «إيـران» مـنذ أكـثر من ستين عاماً. وقد صدرت له حتى الآن تسعة كتـب عـن المسـيحية في مخـتلف المواضـيع : في صـلتها بالآثـار والحفريات، وفي تصديها لمعارضة الفلسـفة الإلحاديـة والعـلم الكـاذب، وفي اتجاههـا للمجـتمع وتفاعـلها معـه. وقـد صدر معظم هذه الكتـب باللغـة الفارسـية، والإنجلـيزية، وتُـرجم بعضـها إلى لغات أخرى كالعربية والبرتغالية. كما أمد كبريات الصحف الأمريكية بعديد من مقالاته. وكتاباته تتميز بالعمق، والمنطق العلمي السديد.

ولقـد تقـدم "عـلم الآثـار" (Archeology) تقدماً كبيراً في السنوات الأخيرة، وأصبح لدى العلماء الوسـائل العديـدة الـتي تعيـنهم عـلى بلـوغ أهدافهـم؛ الأمـر الـذي لم يكن متوفراً لديهم في القديم. فالطائـرات مكَّنـتهم مـن دراسـة الأخـاديد العمـيقة، الـتي لم يسـتطع أحد منذ زمن أن يصل إليها

ليكتشف ما بها من بقايا المدن والقلاع. كما أن تقدم فن التصوير عن بُعد، قد ساعدهم في تصوير مساحات شاسعة لدراستها على الطبيعة قبل أن تُنقل الآثار منها. كما أن استخدام الأشعة السينية (X-RAY) فكرة صائبة في تحليل المومياوات، للوصول إلى جنس المومياء وسبب موتها، أما تجربة[1] (C 14) أو (كربون ١٤) ، فهي تعطينا عمر المومياء، والتاريخ الذي عاش فيه صاحبها.

كما أن الخطوط الباهتة على الرقوق، وأوراق البردي، والمخطوطات التي مُحيت سطورها بفعل الزمن، تستطيع الأشعة تحت الحمراء (IR) الكشف عنها وإظهارها[2].

والكاتب يبدأ حديثه في هذا الكتاب بالقسم الأول، بعرض شامل لتاريخ "علم الآثار الكتابي" (Biblical Archeology)، وأبطال الطليعة الذين مهدوا له. ثم يدخل بعد ذلك في لُبِّ الموضوع، فيتحدث عن الآثار التي تؤيِّد صدق سفر التكوين، ويخصص فصولاً عن شعوب "الكلدانيين"، و"السومريين"، ثم يتحدث عن "يوسف" والخروج من أرض "مصر"، والدول "الكنعانية" التي عاصرت "موسى"، ويستمر بعد ذلك في قصته متحدثاً عن سقوط "مملكة يهوذا"، ونهاية أمجاد "بابل القديمة".

---

(١) "كربون ١٤" عنصر مشع غير ثابت، شأنه في ذلك شأن العناصر الأخرى المشعة "كالراديوم" و"اليورانيوم". هذا العنصر يفقد جزئياته بمرور الزمن، ويتحول ببطء إلى "كربون ١٢". وهو الكربون العادي. وعنصر (C14) موجود في الكائن الحي. ويبدأ في التحلل بموت الكائن. فإذا قمنا بواسطة بعض الأجهزة الحديثة، بقياس درجة الإشعاع في جسم المومياء، أو بمعنى آخر درجة التحلل. مع معرفتنا لكمية الإشعاع في الوحدة الزمنية، أمكننا بعملية حسابية بسيطة أن نصل إلى تاريخ موت المومياء بكل دقة، وبالتالي نعرف كم مضى عليها من السنين حتى ساعة اكتشافها.

(٢) ولقد أفادتنا هذه الأشعة تحت الحمراء (I R) في مضاعفة عدد مخطوطات الكتاب المقدس. فإذا كانت هناك مخطوطة قديمة جداً، وبهتت كتابتها القديمة، فإنهم كانوا يقومون بإزالة (تقشير) الكتابة القديمة، ثم يكتبون مرة أخرى من مخطوطة أخرى. وتستخدم هذه الأشعة حالياً لإظهار الكتابة القديمة التي أُزيلت، وهكذا يصبح لدينا مخطوطة جديدة لا تُرى بالعين المجردة ولكنها تتضح باستخدام هذه الأشعة.

ثم ينتقل بنا إلى القسم الثاني، إلى العهد الجديد. فيتحدث عن "فلسطين" كما عاصرها السيد المسيح، وعن مناطق رحلات بولس الرسول، وأخيراً يعرج على سفر الرؤيا، ليلقي أضواء على الظروف التي عاصرتها الكنائس السبع التي أُرسلت إليها رسائل يوحنا، وكيف أن كل كلمة وردت في هذه الرسائل تطابق تمام المطابقة الحالة التي كانت عليها تلك الكنائس، حيث المشاكل التي تعّرضت لها وتأثرت بها.

ويقدم الكاتب لنا، أيضاً، صورة صادقة عن "هيئة الأسينيين" وتعاليمها، في حديثه عن "مخطوطات وادي قمران – والبحر الميت"، وعن أسفار إشعياء، وتفسير حبقوق، ومزامير الشكر، وكتاب غير معروف – عنوانه "حروب أبناء النور مع أبناء الظلمة". وهو في حديثه عن "طائفة الأسينيين"، يقارن بين تعاليمهم، وبين تعاليم المسيح في الإنجيل، ويُظهر لنا بأكثر جلاء الفروق الواضحة بين الاثنين، داحضاً المزاعم التي راجت مؤخراً، حيث ادّعى بعض المتحمسين للطوائف اليهودية، أن المسيح كان أحد أعضاء "طائفة الأسينيين"، وأنه استقى تعاليم الإنجيل منها! لذا، فإن الكتاب الذي بين أيدينا يقدم الأدلة العلمية، بطريقة مدققة، من خلال ما اكتُشف من آثار وحفائر.

لقد قدمنا لقراء العربية، في الماضي، الكتاب الأول للمؤلف في اللغة العربية، بعنوان "الإيمان بالله في القرن العشرين"، وقد قوبل الكتاب بحفاوة بالغة. وها نحن نقدم له الكتاب الثاني، ضارعين إلى المولى أن يستخدمه دليلاً قوياً أمام الذين يطعنون في صدق الكتاب المقدس، ويصمونه بالتحريف والتغيير والتبديل، وكأن هناك من يحرّفون ويبدّلون كلمات الله، والله لا يعلم بذلك! أو قد علم ولم يقدر على حفظ رسالته التي قصد منها هداية البشر ! وحاشا لله أن يحدث هذا، فرسالة الله لخلاص الإنسان واضحة عبر الزمن، وقد حفظها لهداتينا.

"الناشر"

تمهيد

كثيراً ما نتحسر على الأيام السعيدة الماضية، ونظن أن الناس كانوا أكثر تديناً، وإيماناً مما هم عليه في أيامنا الحاضرة. ولكن المتتبع لأحداث التاريخ، يستطيع بسهولة، أن يرى أن القرن الثاني عشر هو بداية عصر الكفر والإلحاد، وخاصة في الحقبة الأخيرة منه. ولقد كان أحد أسباب تلك الحالة المؤسفة عدم الإيمان بسلامة الوحي الإلهي، بسبب التعاليم والفلسفات الإلحادية التي انتشرت من قادة الفكر في فرنسا وغيرها؛ تلك التعاليم التي كان لها أثرها الشامل في العالم أجمع، حتى أن المسيحية أُعتبرت ديانة بدائية قوامها الخيالات والتعاليم التي انحدرت إليها من الديانات الوثنية القديمة! وآمن الناس إيماناً أعمى بادعاءات تلك النبوة التي نادى بها المفكر الفرنسي "فولتير" بأنه لن يمضي مائة عام، حتى تضمحل المسيحية وتختفي من الوجود! [ومضى "فولتير" في طيِّ التاريخ، وبعد خمسين عاماً أصبح منزله مطبعة للكتاب المقدس!].

ولم يكن المؤرخون يعرفون شيئاً عن حضارات "بابل" و"نينوى" و"أشور"، فاعتبر ذكرها في الكتاب خيالات ابتدعتها مخيلة قبائل بدائية بربرية تقطن الصحراء، أرادت أن تبني أمجادها على القصص، والأوهام، والأباطيل!

ولم يستطع المسيحيون، أن يصدوا تلك الهجمات العنيفة. فقد كان بعضهم يجادل بأن كلمة الله صادقة وأمينة، وأن الوحي الإلهي لا غش فيه، ولكن ما قيمة دفاع كهذا أمام حجج المؤرخ الباحث الذي يتلمس الطريق أمامه، فلا يجد سنداً علمياً واحداً يؤيد الحقائق التاريخية التي يحويها الكتاب المقدس؟! وهكذا أُعتبر ما ورد به مجموعة من التقاليد البالية، والخرافات الخيالية.

على أنه إنصافاً للحقيقة نقول إن نظرة العلماء الباحثين للكتاب المقدس، لم تكن في جانب الرفض المطلق أو الازدراء. فقد كانوا يعتبرونه أسمى قاموس أدبي لحياة الإنسان، مُقرين بأن تعاليم المسيح، وبولس الرسول، لا تعلو عليها أية تعاليم للفلاسفة السابقين واللاحقين. بل إنهم أقروا بأن القانون الذهبي الذي ينادي بمعاملة الآخرين، مثلما نحب أن نُعامل به نحن، أعظم قانون، ينظم العلاقات بين الإنسان وأخيه. ورأوا في الصلاة تمريناً روحياً يرقى بملكات النفس. على أن زعزعة الإيمان بسلامة الوحي، قد دفعتهم إلى رفض عقيدة لاهوت المسيح في الديانة المسيحية. ولكن .. أي أساس يتبقى للحياة المضحية الخادمة، إذا كنا لا نؤمن بأن المسيح أحبنا، وبذل حياته من أجلنا؟! [كما ذكرنا فإن كتابنا "تجسُّد الكلمة" للقديس أثناسيوس الرسولي، يرد على ادعاءات الوثنين والملحدين، حول تجسُّد المسيح كلمة الله الوحيد].

وعن موضوع هذا الكتاب، لا نغالي إذا قلنا إن تقدم علم الآثار والحفريات، والكشف عن المدن الأثرية، هو الذي صوَّب الضربة القاضية للذين يدعون إلى بلبلة الأفكار، والتنكر للإيمان القويم. لقد ظهرت في الوجود، بين الحين والحين، مدن أثرية، كانت مختبئة تحت أكداس التراب، مدن وأماكن لم يرد لها أي ذكر في التاريخ القديم إلا صفحات الكتاب المقدس. لقد كان المؤرخون ينادون بأن ما ورد في الوحي من نسج خيال قبائل بدوية رحالة أرادت أن تنسب لنفسها شرفاً عظيماً، بتخيل معارك ومدن وانتصارات وهمية زائفة - فإذا بالحفريات تؤيد وجود مدن الكتاب المقدس، ومعاركها، وتاريخها - حرفاً بحرف كما أوردها الوحي المقدس.

على أنه ينبغي ألاَّ يتبادر لذهن القارئ، أن الاهتمام بالحفريات لم يكن إلا من أمد قريب. فمنذ العصور السحيقة، والإنسان يحاول أن يزيح التراب عن بقايا الماضي، ويدرك غوامض التاريخ. ولقد اكتُشفت في «العراق» ألواح يرجع تاريخها إلى عهد "آشور بانبال" المحارب المنتصر الذي جلس على عرش "الآشوريين" في القرن السابع قبل الميلاد (٦٦٨ -

٦٢٦ ق.م)، فيها يفخر بأنه أرسل كتبة إلى كافة أرجاء الإمبراطورية، لينقلوا له الوثائق التاريخية القديمة؛ ليضمها إلى مكتبته. كما أنه أضاف بأن له القدرة على حل رموز الكتابات القديمة. ولقد اكتشف عالم حفريات واسمه "رسام" هذه المكتبة الآشورية عام ١٨٥٢، وكان هذا أعظم اكتشاف علمي حققه القرن التاسع عشر. ولقد عرفنا أيضا من الحفريات في "بابل" أن "نابونيدس"[١] آخر ملوكها كان له ولع شديد بدراسة الآثار والتنقيب عنها، وأنه اكتشف بقايا "أور" القديمة مدينة "الكلدانيين"، ودرس الكتابات التي سجلها البناؤون القدامى على قطع الطوب الأثرية. ولقد نسجت على منواله ابنته أخت الملك "بيلشاصر" التي كانت تضم في قصرها متحفاً صغيراً للآثار.

على أنه، ومع الأسف الشديد، كانت هناك فئة أخرى من الناس. ومنذ فجر التاريخ، يهمها أيضاً التنقيب عن الآثار– ولكن ليس لغرض العلم والمعرفة. تلك هي فئة اللصوص! فلقد كان الملوك القدامى– وبخاصة في مصرنا العزيزة – لهم عادة أن يضعوا في مقابرهم كنوزهم وأشياءهم، وكثيراً ما كان اللصوص يسطون على تلك المقابر ويلقون بجثث الموتى بعيداً، وينهبون كل غال وثمين. ومنذ عهد الملك "رمسيس التاسع" تخبرنا الآثار إنه عيَّن بعثة حكومية للتحقيق في حوادث نهب المقابر الملكية.

وفي العصور الحديثة يعتبر البعض "نابليون بونابرت" هو الرائد الأول في ميدان البحث المنظم للحفريات القديمة. ففي حملته العسكرية على مصر عام ١٧٩٨، اصطحب معه مئة من العلماء والأساتذة والفنانين، الذين كتبوا الكثير عن عجائب مصر القديمة، ونقلوا العديد من المخطوطات الأثرية وصور الآثار. وحينما انتشرت هذه الأبحاث، أثارت بين العلماء موجة من الاهتمام بآثار

---

[١] والكشف عن هذا الملك كان حلاً لمشكلة ظاهرية في سفر دانيال (٥: ٨)، حيث جعل الملك دانيال يأخذ مركزاً ثالثاً، فكيف يكون في المركز التالي للملك دون أن يكون في المرتبة الثانية بعد الملك؟! فالآثار أثبتت وجود الملك الأب "نبونيدس" والذي له المركز الأول ثم الملك الابن، فدانيال ثالثاً، فاتضح صدق الكتاب المقدس وأن هذا مجرد تناقض ظاهري. [المراجع]

الشرق عامة، ومصر خاصة. على أن أعظم اكتشاف حققته بعثة "نابليون بونابرت" العلمية التاريخية، هو اكتشاف "حجر روستي" أو "حجر رشيد"، بلغاته الثلاث. والذي كان مفتاح اللغة "الهيروغليفية" القديمة.

وفي مستهل القرن التاسع عشر، أرسل المبعوث الرسمي البريطاني "لشركة الهند الشرقية" والمقيم في مدينة "بغداد" تقريراً للهيئات المختصة في حكومته، أشار فيه إلى تلال ضخمة هناك يُرَّجح أن تكون خرائب مدن قديمة لكثرة وجود قطع الفخار الأثري هناك. وهذا التقرير أدى إلى بدء الحفريات المنظمة في «العراق»، التي قام بها سير "أوستن لايار" و "بول بوطا"، مما سنعرض له فيما بعد.

ولقد كانت طريقة الحفر في البداية بدائية غير متخصصة، ولم يكن العلماء يوَّجهون اهتمامهم إلا للتحف والكنوز الثمينة التي يمكن أن تُزّين المتاحف التاريخية، ولم تكن قد عُرفت قيمة الفخار، والطوب الأثري، وهكذا ضاع الكثير من المعلومات الثمينة. كما كانت الفكرة السائدة حينذاك عن التلال الأثرية أنها تحوي أطلال مدن فوق مدن أخرى بترتيب ونظام، بحيث أن الطبقة العُليا هي ركام لمدينة أحدث من التي تليها ... وهكذا. ولكن هذه لم تكن الحقيقة؛ لأن المدن الحديثة كانت تبنى بيوتها في نظام دائري حول أطلال المدن القديمة، مما جعل مهمة الباحث عن التاريخ شاقة وعسيرة. وفي أماكن أخرى، كانت المدن الحديثة تُشيَّد بعيداً عن أطلال المدن السابقة[1].

---

(١) وهذا ما حدث في قصة اكتشاف «أسوار أريحا»، حيث استغرق البحث عنها أكثر من ست سنوات، حتى وصلوا إلى مكان «أريحا» القديمة التي سقطت أسوارها في مكانها حسب "سفر يشوع" (٦: ٢٠) [المُراجع]

الباب الأول

سياحة في العهد القديم

الفصل الأول

أبطال الطليعة

أبطال الطليعة

كانت «فلسطين»، وما تزال، قِبلة أنظار العالم كله، منذ فجر التاريخ. فإليها تتجه أنظار اليهود كأرض الوعد بالنسبة لهم. وإلى أرضها تتجه أنظار المسيحيين كالأرض التي وطأتها أقدام أطهر إنسان في الوجود – أقدام السيد المسيح. وإليها تتجه أنظار العرب كالوطن القومي الذي عرفته قبائل أجدادهم القدامى، من قبل أن يوجد العبرانيون. لذلك، لا غرابة أن يتجه إليها العلماء لدراسة معالمها الطبيعية، والتاريخية. والبعض من أولئك العلماء عُنِيَ بدراسة نباتاتها، وتاريخها الطبيعي، مثل الطبيب الألماني "روخولف". والبعض الآخر اتجه لدراسة مدنها الأثرية مثل "بيترو دى لافال". والبعض اهتم بمسح مدنها الأثرية، ووضع خرائط منظمة لها مثل الأُسقف "بكوك".

إلا أن العمل المنظم في استكشاف «فلسطين» لم يبدأ بصورة جدية قبل عام ١٨٣٨، مما أحدث أعظم انقلاب في الآراء التي كانت سائدة عن طبوغرافية البلد، وجغرافيتها، وحفرياتها. في ذلك الوقت قام العالم الأمريكي "روبنسون" برفقة المُرسَل "عالي سميث" برحلات منتظمة في جميع أرجاء فلسطين بطولها وعرضها؛ لوضع خرائط دقيقة منظمة لمئات من مدن الكتاب المقدس ومواقعه. ولقد كان عمله هذا ممهداً للعلماء الذين أتوا من بعده؛ ليبدءوا دراساتهم وحفرياتهم.

وفي ميدان الحفريات الكتابية كان أول من قام بذلك هو المستشرق الفرنسي "بول بوطا"، الذي كان يشغل وظيفة قنصل فرنسا في «الموصل» بالعراق. ومنذ وصوله إلى مقر عمله، أظهر نن

احتكوا به استعداده لشراء أية آثار ذات قيمة، فكان القرويون يفدون عليه من كافة أرجاء «العراق»، حاملين ما يستطيعون العثور عليه من الآثار. ومع أنه حاول في البداية أن يفك طلاسم الكتابات التي عليها، إلا أنه لم يستطع. إلى أن أتاه قروي يخبره بأن هناك جبلاً كبيراً من التراب بالقرب من إحدى القرى، يحفر القرويون فيه للحصول على المواد اللازمة لبناء أكواخهم. فأرسل القنصل شخصين للحفر هناك، وبعد أسبوعين وصله الخبر بأنهما أزاحا التراب عن جدران مرتفعة لقصر كبير مُزيَّن بالنقوش والصور الملّونة ورسوم لحيوانات غريبة الشكل. ولقد كان هذا الموقع يبعد اثنى عشر ميلاً إلى شمال «الموصل»، في مكان يُقال له «خورسباد»، وعُرف فيما بعد أنه موقع مدينة «دور شاروقين» القديمة. وكانت الجدران مغطاة بالحصى المنحوت الملون التي تمثل معارك، ومواكب نصر، ورحلات صيد، وغير ذلك من حياة القصور. وكانت هذه الجدران تمتد إلى مسافات بعيدة.

□ الملك سرجون الثاني، ملك آشور- تمثال حجري اكتشف بمدينة "خورسباد"

ولم يستطع أحد حتى ذلك الحين، أن يحل رموز الكتابة المسمارية المخروطية. ولكن حينما اكتُشفت رموزها بعد ذلك، عُرف أن تلك بقايا قصر الملك "سرجون الثاني" (٧٢٢ ٧٠٥ ق.م)، وأنه يغطي مساحة تقرب من خمسة وعشرين فداناً. ولم يرد عن ذلك الملك في

التاريخ، سوى ما ورد عنه في سفر إشعياء (٢٠ : ١). ولقد كان هذا أعظم قصر في التاريخ ضم بين جدرانه ملكاً عظيم الشأن. ولما وصلت أنباء هذا الاكتشاف إلى أوربا، كان لها نفس الوقع الذي أثاره اكتشاف "كولمبوس" للقارة الجديدة. فقد كان هذا إيذاناً باكتشاف مملكة مفقودة لم تكن معروفة من قبل. وعرف الناس أن هناك حضارة عريقة نشأت على ضفاف «دجلة والفرات»، وتبنت الحكومة الفرنسية مشروع التنقيب، وأغدقت عليه الكثير. وجمع "بول بوطا" أبحاثه في خمسة مجلدات ضخمة تضم أكثر من أربعمئة صورة تعرض على القراء كل ما يختص بالحياة في القديم من مأكل وملبس وسلاح، وغير ذلك من مملكة أشور ...

والاسم الثاني الذي يتألق في طليعة الباحثين المستكشفين في ميدان الحفريات الكتابية (Biblical Archeology) هو "سير/ أوستن لايار"، رجل إنجليزي يعود أصله إلى سلالة "الهوجنوت" الفرنسيين. هذا العالم قام على نفقته الخاصة، دون أن ينال معونة مادية من حكومته، بالحفر في جبل «نمرود»، وهو موقع يقع على بُعد عشرين ميلاً جنوب شرق «الموصِل»، ونصف ميل شرق «الدجلة». ولقد كان هذا المكان موضع مدينة «كالح» الأثرية. وصادف "سير/ أوستن" نجاحاً كبيراً، فلم تمضِ أربع وعشرون ساعة على بداية عمله، حتى أزاح العمال التراب عن بقايا قصرين من أروع القصور الآشورية. وحينما قام بالحفر؛ اكتشف غرفاً مغطاة بألواح من الحصى، كل واحدة ترتفع سبعة أقدام، ومغطاة بنقوش وصور غاية في الجمال والإبداع. ويرد ذكر نمرود في سفر التكوين (١٠: ٨-١٠): **"وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض. الذي كان جبار صيد أمام الرب ... وكان ابتداء مملكة بابل"** – وهذا هو المحارب الكبير الذي أقام هذه المدينة.

ولقد آثار نجاح "لايار" مطامع الوالي التركي حينذاك، الذي حاول عرقلة أعماله ما لم تكن له حصة في الأرباح والذخائر التي ظن أن العالِم الأثري قد استولى عليها. وهكذا أرسل رجاله ليلاً، ووضع فوق أحد الأماكن حطام مقبرة إسلامية، وادّعى أن "لايار" قد حطمَّها في أثناء الحفر، فأوقف عمله بأمر السلطات. إلا أنه، بفضل عناية الله، عُزل ذلك الوالي من منصبه،

بسبب الرشاوى وسوء استخدام السلطة، فعاد العمل إلى ما كان عليه. وفي يوم ما أقبل عمال الحضر إلى "لايار" يرقصون ويهللون ويهتفون، لأنهم اكتشفوا تمثال "نمرود" نفسه. ولكن هذا التمثال كان تمثالاً مجنحاً بجسد عجل، ورأس إنسان، منحوتاً من المرمر. ولقد عُرف فيما بعد بأنه واحد من تماثيل آلهة الآشوريين الأربعة. ثم اكتُشفت بعد ذلك مجموعة أخرى من هذه التماثيل الجبارة، وكان بعضها يحمل رأس نسر بدلاً من رأس إنسان، وأُرسل معظمها إلى متاحف «إنجلترا»[1].

وبموالاة الحفر، اتضح المعنى الذي قصده النبي "حزقيال" في سفره (٣١: ٣-١٢)، حيث يقول: "**هوذا أعلى الأرز في لبنان جميل الأغصان ... فرعه بين الغيوم ... فلذلك ارتفعت قامته على جميع أشجار الحقل**". وعرف العلماء أيضاً إتمام نبوة "صفنيا" (٢: ١٣-١٥)، وكيف تمت بحذافيرها: "**ويمد يده على الشمال ويبيد آشور. ويجعل نينوى خراباً يابسة كالقفر. فتربض في وسطها القطعان ... القوق أيضاً والقنفذ يأويان إلى تيجان عُمُدِها**". هذه المدينة، كما أسلفنا، هي مدينة «كالح»، التي ورد ذكرها في التكوين (١٠: ١١). أما القصر، فقد بناه الملك "آشور ناصر بال الثاني" الذي كان حكمه بين عامي (٨٨٥ – ٨٥٩ ق. م.).

وفي عام ١٨٤٩م، بدأ "لايار" الحفر في موضع آخر، على ضفاف «دجلة» ق.م مقابل مدينة «الموصل»، حيث كانت هناك «نينوى» القديمة. وأثمر العمل المتواصل، خلال أربعة أسابيع، عن الكشف عن بقايا قصر "الملك سنحاريب" ملك الآشوريين، الذي ورد ذكر حصاره «لأورشليم» واغتياله في سفر الملوك الثاني، بالأصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر. وعلى جدران هذا القصر، كانت هناك نقوش مخروطية، بلون لامع، على قطع من الطوب الأزرق الجميل، بالإضافة إلى وصور لحيوانات، كان من أروعها صورة أسد انغرزت فيه السهام وهو في النزع الأخير. ولقد كانت مدينة «نينوى» عاصمة للآشوريين مدة تسعين عاماً فقط، ولكنها استطاعت أن تصبح مدينة كبيرة

---

[1] مثل المتحف البريطاني (B.M.).

في هـذه الفـترة القصيرة. وكان عرض أسوارها الداخلية اثنين وثلاثين قدماً، وارتفاعها ستة وسبعين قدمـاً، وتـرتفع فوقها خمس عشرة قلعة جبارة، تنفتح في أسفل كل واحدة منها بوابة ضخمة تؤدي إلى المديـنة. كمـا أنـه يحيـط بهذا السور الجبار سلسلة من الآبار المحفورة في الصخر، يبلغ الواحد مـنها سـبعة وسـبعين قدمـاً. ويكفـي أن نـدرك مـدى ضـخامة هـذا السـور، عندما نعرف أن أربع مركبات حربية كانت تستطيع أن تسير عليه جنباً إلى جنب!

عـلى أن أروع كشـف اكتُشـف في «قصر سنحاريب»، هو مكتبة حفيده "آشور بانبال" الملحقة بالقصـر. وكـانت تـلك المكتبة تضم ألواحاً مكتوبة في كافة العلوم والفنون، في الفلك والسحر والفلسفة والرياضـيات والشـعر والموسـيقى الديـنية. وهـذه الاكتشـافات قـد أثبتت إلى أي حد وصلت أمجاد «آشـور» القديمـة. ولكـن في بداية الأمر لم يكن أحد يعرف معاني النقوش المخروطية على الجدران، وظـن الـبعض الآخـر أنهـا مجـرد نقـوش فـنية. ولكن العلماء رجَّحوا أنها لكتابة قديمة. وإلى العالِم "سير/ هنري رولنسون" يرجع الفضل في فك رموزها وغوامضها.

ولقـد كـان "رولنسـون" ضـابطاً تحـت الـتمرين، تعـرَّف، وهـو في طريقه إلى الهند، بحاكم، «بومـبي» الـذي كـان مولعـاً بالدراسـات الشـرقية، وقـد لفـت نظـره إلى الآثـار الفارسـية، وقيمتها الـتاريخية. وفي عـام ١٨٣٣م عُيِّـن "رولنسـون"، بعـد تخـرجه مـن الكلية الحربية، قائداً بالجيش الـبريطاني، وقنصـلاً وممـثلاً لشـركة الهند الشرقية في «كرمنشاه». وهكذا أُتيحت له الفرصة ليغذي حُبه للإطِّلاع، ودراسة الآثار.

ولقـد وجّـه "رولنسـون" اهـتمامه إلى محاولـة فـك رمـوز الكـتابة المخـروطية. واتّخذ مجالاً له دراسـة الـنقوش الكائـنة في «جـانج نامـة»، التي تبعد ستة أميال عن «حمدان». وقد أدرك أنه لابد أن تـتكرر كـلمة "مـلك" بـين السـطور، وأن الملوك الثلاثة المذكورين هناك، كما تشير الآثار، ليسوا سـوى "داريـوس"، "وزركـس"، "ووشتاسبا". وبهذه الطريقة، استطاع أن يفك رموز بعض المفردات الـلغوية. ثـم اتجـه بعـد ذلك إلى نقـوش أكـثر اتساعاً اكتُشفت على سطح أحد الصخور، على بُعد سـتة وعشـرين ميـلاً مـن «كرمنشـاه». ولقـد كانت هذه الصور والكتابة مثار تكهنات كثيرة وعجيبة

منذ القرن العاشر الميلادي. وظن البعض أنها تقدم صورة "للمسيح" وتلاميذه و"يهوذا" تحت الأقدام ولكن الأبحاث دلت، بعد ذلك، على أنها رسم يصور الملك "داريوس"، مُواجِهاً أعداءه المقيدين بحبل واحد، وأحد هؤلاء الأعداء تحت قدميه. وفي أعلى الرسم بدت صورة "اهرمزاد" إله الخير عند "الفُرس".

ولقد كان نقل هذه الكتابة عملاً شاقاً مرهقاً للغاية، خاصة وأن الصخرة كانت تنحدر عمودياً إلى وادٍ سحيق، وكان على "رولنسون" أن يتّعلق بالحبال من أعلى فوق تلك الهوة الخطيرة؛ حتى يصل إليها. وقد استطاع بذلك أن ينقل ١٢٠٠ من هذه السطور. وعرف مضمون أربعمئة منها. وقد كُتبت بأمر الملك "داريوس" الفارسي (٥١٥ ق.م). وفيها يصف كيف استولى على العرش، وهزم الخونة والأعداء، وكيف امتدت حدود مملكته إلى مسافات بعيدة، ثم استنزل غضب السماء ولعنة الله على من يحاول أن يمسها بأذى. وقد كانت تلك الكتابة مغطاة بنوع من الشمع، استطاع أن يحفظها هذه القرون الطويلة.

وبمعونة اثنين آخرين، استطاع "رولنسون" أن يفك رموز السطور الباقية. وقد كانت باللغتين "العيلامية"، و"البابلية". أما "اللغة البابلية"، فقد كانت معّقدة كل التعقيد، فالرمز الواحد قد يشير إلى عدد من المفردات أو الكلمات، والكلمة الواحدة قد يكون لها عدد كبير من الرموز. ولم يحل هذه المشكلة إلا اكتشاف عديد من اللوحات في «كيونجيك»، بواسطتها استطاع العلماء أن يصنفوا قاموساً كاملاً للغة البابلية القديمة.

ولقد كانت هذه المحاولات المعّقدة العسيرة مثار شك للبعض، وسخرية للآخرين. ولكن هيئة إدارة المتحف البريطاني (.B.M). قطعت الشك باليقين، حينما نقلت أربع نسخ عن لوحة واحدة من لوحات الكتابة المخروطية، وأرسلت نسخة منها إلى أربعة من العلماء المتفرقين، كلٍ على انفراد، وطلبت منهم فك رموزها. وقد استطاع الجميع ترجمة تلك السطور، ووُجِدت الترجمة مطابقة كل المطابقة بين كل نسخة وأخرى.

وهكذا ثبتت صحة الكتاب المقدس في ذكره "للملك داريوس الفارسي" في سفر "عزرا" (٥: ٥؛ ٦: ١-١٢)، وفي سفر "حجي" (١: ١)، وسفر "زكريا" (١: ١)، وكيف أنه كان ملكاً على مملكة عظيمة.

ومرت ترجمة اللوحات الآشورية في فترة من الركود بعد ذلك، ولم تتميز هذه الفترة إلا باكتشاف آلاف من الألواح التي وجدت طريقها إلى متاحف أُوروبا.

وبعد بضع سنين، عَيَّن المتحف البريطاني عالماً شاباً يُدعى "جورج سميث"، وهو من علماء الأبحاث الآشورية؛ لكي يرتب مجموعات الألواح الأثرية، ويوالي ترجمتها، وتبويبها. وفي أثناء عمله، اكتشف "سميث" لوحاً غريب المحتويات، يحوي ستة أعمدة من الكتابة المخروطية، كُسر منها ثلاثة، وتبقَّى ثلاثة كاملة. ووجد أن هذه تتضمن قصة سفينة استقرت على جبل يُقال له «جبل نسر»، وتليها سطور عن حمامة طارت فوق مياه، ولم تجد مستقراً لها، فرجعت إلى السفينة .. وهنا عرف "سميث" أنه اكتشف قصة الطوفان[1] في تقاليد الكلدانيين، فأُغمي عليه من شدة الانفعال! ولما وصل الخبر إلى مسامع مدير إحدى الجرائد اللندنية، تبرع بأن تقوم بعثة بقيادة "سميث"، لموالاة التنقيب في العراق عن بقية الألواح التي تروي قصة الخلق. وفي خرائب «نينوى» اكتشف "سميث" ٣٨٤ لوحاً آخر، من مكتبة الملك "آشور بانبال"، أكملت ٣٠ ألف لوحاً، كلها وثائق تاريخية عن "بابل" القديمة.

ولقد كُلل أيضاً مجهود "سميث" بالنجاح في اكتشافه لألواح أخرى إضافية تروي قصة الطوفان، واكُتشف أيضاً ألواحاً تروى قصة الخلق، وقد أثمر هذا المجهود المضني المتواصل عن

---

[1] للمزيد عن قصص الطوفان في بلاد وحضارات مختلفة، اقرأ: " الكتاب المقدس والعلم" للأنبا بولا. وهو يقدم نظريات الطوفان المختلفة، مع تفاصيل علمية شيقة عن الفُلك ومقاييسه وتهويته، وحجم ونوع الحيوانات التي كانت بالفلك. مع تفاصيل أخرى (ص - ١٢٧) في ذلك الكتاب. أما قصة الخليقة، فيتناولها بالتفصيل نفس المرجع (ص ٩-٧٤) ، وهو موضوع الفصل الثاني في كتابنا هذا[المراجع].

مجلدات ضخمة تعطي الدارس فكرة كاملة عن حياة الآشوريين وعلومهم، وفنونهم، وأعمالهم، حتى أننا نستطيع أن نعرف عنهم الآن مثلما نعرف عن حياة الفراعنة في مصر القديمة[٢].

[٢] هذا بحسب تقدير "جورج سميث"، والمؤلف [المراجع].

الباب الأول

الفصل الثاني

أضواء على تكوين المخلوقات

أضواء على تكوين المخلوقات

قـد يكـون مـن الأفضـل، قبل كل شيء، أن نقارن قصص البابليين والآشوريين عن الخليقة، بما ورد في الأصحاحات الأولى من سفر التكوين . تقول الوثائق البابلية في ألواحها:

"في الأعالي، حيث لم تُسَمَّ السماء،

واليابسة الثابتة من أسفل لم تكن قد سُمِّيتْ،

ولم يكن هناك إلا الأزلي "أبسو" والدها،

و"مومونتيامات" التي حملت كل شيء،

ومياههما تختلط في جسد واحد،

وإذا بالآلهة تتكون فيهما،

"لاهمو" و"لهامو" نشأ، وبهذين الاسمَيْن دُعيا..

"آنشر" و "كيشار" كُوِّنا، وفاقا الآخرين.. .

و"عانو" بكر "آنشر" كان مساوياً له.."

وفي الـلوح الـثاني والـرابع، نجـد وصـفا لـلمعركة بين "مردوخ" بطل الآلهة، وبين "تيامات" إلهـة القمـر والظـلمة. وينتصـر "مردوخ" إشارة إلى انتصار النور على الظلمة، ويأخذ جسد "تيامات" ويشقها كما تشق المحارة، إلى نصفين، النصف الواحد يثبتّه كالسماء. يقول هذا الوصف:

" ويغلق الباب ويضع الحراس،

ويأمرهم بألا يَدَعوا المياه تنسكب،

وينشئ محطات للآلهة الكبار.

ويثبت المجموعة الشمسية كالسُدُم ..

ويحدد مواعيد السنة بتقسيم الفصول..

ويضع ثلاث مجموعات لكل اثني عشر شهراً.

القمر يجعله يشع ويسلمه لحكم الليل .."

وفي مقارنتنا لقصة التوراة، وقصة الخلق، كما وردت في الوثائق "البابلية". نستطيع أن نكتشف فروقاً ومشابهات. فكلتاهما متفقتان على وقت كان كل شيء فيه خرباً وخالياً. ففي قصة التوراة، نرى كيف حلَّ النور محل الظلام، والعمار محل الخراب والدمار. وفي قصة بابل، نجد الإله "مردوخ" ملك النور يقتل الإلهة "تيامات" ملكة الظلام والغمر.

في التوراة:

- يخلق الله الشمس والقمر والنجوم في السماء.
- يخلق الله الحيوانات والزواحف.
- يخلق الله الإنسان من تراب.

في قصة "البابليين":

- يصنع الله السُدم والكواكب، لتكون محطات للآلهة الكبار.
- يقوم مجمع الآلهة بالخلق.
- يخلقه "مردوخ" من اللحم والعظام.

ولكننا من الناحية اللاهوتية، نكتشف فروقاً واضحة بين القصتين. فلقد كنا نتوقع من "الحضارة البابلية" المزدهرة؛ بفنونها وعظمتها وفلسفتها، أن تقدم للناس ديانة غير هذه، ولكن العكس هو الصحيح. فبينما تُقدم "اليهودية" إلهاً واحداً خالقاً للكل، فإن الديانة "البابلية" تقدم مجموعة من الآلهة، دينها الغش والخديعة، يحارب أحدهم الآخر! من قصة الخلق، في سفر

"التكوين"، نرى أن المخلوقات كُونت لسعادة الإنسان وراحته. وفي التقاليد "البابلية"، نجد العالم قد تكَّون نتيجة للصراع بين الآلهة، وخلق من جثة إحداها!

في "سفر التكوين"، روح الله يرف في هدوء وسلام على وجه الغمر والظلمة، جالباً السكون للأمواج الجبارة. بينما تتحدث التقاليد "البابلية" عن معركة رهيبة بين آلهة النور، وآلهة الظلام. وفي الوقت الذي فيه نجد في الديانة "البابلية" قصة طويلة مشحونة بالخرافات والتقاليد الباطلة، نجد التوراة تقدم لنا قصة بسيطة واضحة، لها معانيها الروحية السامية. إن التاريخ لا يقدم لنا أي أثر سياسي لليهود في مجريات السياسة العالمية في ذلك الحين، ولكننا نرى في ديانة التوراة حقاً فريداً، إلهياً، مجيداً، يسمو كل السمو على التقاليد الوثنية السائدة، ولا يتأثر بها أقل تأثر.

وتستمر التوراة في قصتها، بعد ذلك، لتقدم لنا صوراً للبشرية وهي ترتد عن الإيمان بإله حي واحد، إلى عبادة آلهة متعددة. وما كانت محاولة أنبياء «مملكة إسرائيل» و«مملكة يهوذا»، إلا الرجوع بالشعب إلى الإيمان الأول، وعبادة يهوه الإله الواحد.

هذا الاستنتاج المنطقي، يدحض النظرية التي سادت مؤخراً بين بعض العلماء، وخلاصتها أن الإنسان قد بدأ بالاعتقاد بتعدد الآلهة، والإيمان بعدد لا يُحصى من الأبالسة والشياطين والأرواح، ثم تدرَّج شيئاً فشيئاً في معتقده، مثلما تطور في كيانه (حسبما تنادي نظرية "داروين")، إلى عقيدة الوحدانية – كما نادى بها أنبياء "اليهود" في العهد القديم.

فهل تقدم لنا الحفريات، تأييداً لاستنتاجنا هذا؟؟

قبل كل شيء، نودُّ أن نقول إن علماء الآثار قد أثبتوا أن حركة تطور الحضارة في تواريخ الممالك والشعوب ليست حركة آلية منتظمة، فهناك فترات كثيرة من الانتكاس والرجوع إلى الوراء. وكم من حضارات مزدهرة تخرجها معاول الحفر إلى نور الشمس، كان لها ازدهارها في يوم من الأيام، والآن اندثرت، واضمحلت، ونسى الناس عنها كل شيء. بل يبدو أنه، من مجريات حوادث التاريخ، كناموس ثابت من نواميس تطور الحضارة، أن الازدهار المادي الزمني، يصحبه

انحلال خُلقي وديني. وتاريخ «إيران»، و«اليونان»، و«روما»، يُرينا كيف أن تلك الشعوب كانت في وقت من الأوقات، وفي بداية نشأتها، على قمة الحياة الخلقية الرفيعة، فلما استتبت أسباب السلطان، وامتدت سيطرتها، وعظم جاهها، انحدرت إلى الحضيض في أخلاقها، ولما تدهورت أخلاقها؛ اضمحل سلطانها، وتفككت إمبراطوريتها. والذي يتطلع الآن إلى بقايا المدن الأثرية العظيمة التي كان لها شأنها في حقبة من حِقب التاريخ، ويُرى خيام البدو الآن، وقد انتشرت بين أطلالها، والأغنام ترعى فوق آثارها، يري كيف أن الحضارات متقلبة لا تبقى على عهد. لذلك، فمن الخطأ أن نقول إنه ما دامت الوحدانية درجة أسمى في منهاج الفكر البشري تسمو على الاعتقاد بعديد من الآلهة، فلابد وأن تكون البشرية قد وصلت إليها بعد أن مرت في الدرجات الأولى من مدارج الفكر العقائدي.

يقول "د./ ستيفن هربرت" أحد علماء الحفريات، وأستاذ العلوم الآشورية "بجامعة أوكسفورد":

"إنني أؤكد بثقة إن عقيدة الوحدانية، في الديانات السامية، والسومرية، قد سبقت الإيمان بعديد من الآلهة، والاعتقاد بالأرواح الخيرة والشريرة. فكل الديانات السامية قد بدأت بالإيمان بإله واحد للقبيلة، قام بخلق أفرادها، ويسهر على حفظهم ورعايتهم. وتاريخ الديانات في المجتمع الإنساني، ليس سوى تاريخ سقوط الإنسان وارتداده".

ويؤيد هذا الرأي، أيضاً، "سير/ بيتر رينو" مترجم الكتاب الشهير "الموتى" لقدماء المصريين، فيقول:

" منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، ارتفعت في ربوع وادي النيل، أصوات التسابيح للإله الواحد، وخلود النفس. إن الاعتقاد بوحدانية الإله العظيم، وصفاته القدسية كالخالق الأوحد، ومصدر الناموس الأدبي، تبدو كجوهرة لامعة متألقة، وسط أكداس المعتقدات الفرعونية الكثيرة التي تراكمت خلال العصور الطويلة. لذلك، فإننا لا يمكن أن نقول إن الفكر الديني في مصر القديمة قد تطور من الدرجات السفلى وتسامى إلى أعلى، حتى وصل إلى عقيدة الوحدانية

والخلود".

ويسير في ركاب هذا الرأي أيضاً العالم النمساوي "شميت" في كتابه "تطور الديانات"، فيقول:

"إن الذي يدرس الآثار القديمة في مختلف أنحاء العالم، يستطيع أن يدرك أنه بين القبائل البدائية كانت تسود المعتقدات بإله واحد، وبأن حياة خالدة قادمة لا محالة ..."

أما إلى أي مدى وصل الاعتقاد بوجود هذا الإله الواحد الحيّ؟ وهل هو المسيطر وحده، أم يشاركه في تصريف مجريات هذا الوجود، مجموعات من الآلهة، والأرواح الأقل شأناً؟! فهذا يتوقف على أسباب كثيرة، ويختلف بين شعب وشعب، وقبيلة وقبيلة، لكن المهم أن العقيدة بدأت بوجود خالق أعظم يسمو فوق الكل.

على أننا لا ينبغي أن نتوقع من علم الآثار أكثر من هذا، فننتظر منه أن يحسم لنا هذه المشكلة، ويؤكد لأجيالنا الحاضرة والآتية، إنْ كان أجدادنا موحِّدين، أو معتقدين بأكثر من إله واحد. فقبل أن يعرف الناس الكتابة منذ آلاف السنين، كانت هناك معتقدات بين الشعوب البدائية. وثم تطورت تلك المعتقدات، واتخذت صوراً متعددة، حتى الوقت الذي سُجِّلت فيه كتابة على الصخور، أو الأحجار أو أوراق البردي. بل إن بعض الثقات يؤكدون، إنه حتى في العصور الكتابية، كانت الوحدانية قوة دافعة لتطور اجتماعي وناموس أدبي، أكثر منها عقيدة لاهوتية ثابتة مسجلة، لها أصولها وقواعدها وبنودها، والتي تنفي أي معتقد يخالفها. فلنأخذ، مثلاً لذلك، العقيدة اليهودية. فلقد كان اليهود يؤمنون "بيهوه" العظيم إلهاً للآلهة ورباً للأرباب، ولكن الاعتقاد بوجود آلهة أخرى كان سائداً بين الشعب اليهودي نفسه، في حقبة من حقب تاريخه. إلا أن الشعب كان يعتقد بأن تلك الآلهة تخضع وتمتثل لسلطان الإله الأعظم "يهوه". ولقد اقتضى الأمر تنظيم الحياة الأدبية، والنواميس الدينية بأن لا يعبد الشعب سوى الإله الأوحد. وبقى على فلاسفة "الإغريق"، بعد ذلك، أن يتقدموا في تاريخ لاحق، فلسفة لاهوتية ثابتة

عن التوحيد.

لقد كان توحيد "العبرانيين" عملياً، أكثر منه لاهوتياً أو نظرياً.

على أن أبحاث الآثار، قد عاونت على الأقل، في دحض الرأي السائد في بعض الدوائر العلمية، من أن التوحيد، في الديانة العبرانية، هو وليد العقائد التي نادى بها أنبياء القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد. فهناك من الأسباب العلمية الكثيرة التي تدعونا إلى الثقة بأن "موسى" قد نادى بعقيدة التوحيد، قبل أن يدخل "اليهود" أرض الموعد. وأن تلك العقيدة قد اقتضت عهود القضاة، حتى تترسخ في أذهان الشعب، ثم تبلورت بأكثر قوة، وظهرت بوضوح في عهد الملك "داود" ثم الملك "سليمان"، وعقب إقامة الهيكل حيث القيام بالممارسات الدينية فيه.

الباب الأول

الفصل الثالث

عهد الطوفان والآباء

هناك سؤال يطرح نفسه دائماً: أين كانت يا تُرى جنة عدن؟[1]

وهل تؤيِّد الحفريات ما ورد في الأصحاح الثاني من سفر "التكوين"، الذي جاء فيه القول: "**وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة. ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيشون ... والثاني جيحون والثالث حدَّاقل والنهر الرابع الفرات**" (تك ٢: ١٠-١٤)

أما النهران، فلا موضع للشك في وجودهما، «فالفرات» معروف، و«حداقل» هو «نهر دجلة».

ولكن ما هما نهري «فيشون»، و«جيحون»؟

تختلف الآراء في هذا الصدد، فالبعض يقول إن المقصود هنا هو «نهر النيل» [وهو احتمال مستبعد]، وآخرون يقولون إن المقصود «نهر أراس» أو «نهر الهندوس». ولكن هذه التخمينات لا تتفق مع المنطق العلمي السليم. وهناك رأى آخر يقول إن «نهر جيحون» هو «نهر كرخا» في جنوب غرب «إيران». ولقد كان «نهر كرخا» يصب في الخليج الفارسي في قديم الزمان، مع «نهر دجلة والفرات». ولكن عالم الآثار الألماني "دلتش" اكتشف في «بابل» قائمة بأسماء الأنهار الرئيسية التي كانت معروفة حينذاك، ومن بينها «فيشانو»، وهو اسم قريب من «فيشون»، واكتشف أيضاً اسم «جيحانو»، وهو اسم آخر «لجيحون». والأرجح من موقع هذين النهرين انهما كانا حدود الجنة القديمة، كما أن الوثائق الأثرية تشير إلى أن سهول العراق الكائنة إلى جنوب

[1] راجع أيضاً المرجع السابق: "الكتاب المقدس والعلم" ص٧٥ - ٧٦. [المُراجع]

غرب بابل القديمة، كانت تُدعى «عدن»، وهو رأى يتفق مع ما ورد في سفر التكوين، وما زال العلماء يؤمنون بصحته[1].

أما عن "شجرة الحياة" التي من يأكل من ثمارها يحيا إلى الأبد، فقد ورد ذكرها في كثير من الآثار البابلية القديمة على أساسات الجدران وعلى الأختام. ولقد اكتُشف أيضاً، منقوشاً على أحد الأختام، ما ورد عن التجربة، والسقوط (في قصة آدم وحواء).

على أن أعظم الأحداث الكتابية التي ذُكرت بأكثر تفصيل ووضوح "قصة الطوفان"، وعصر "نوح". فلقد ورد ذكرها، بكل دقائق تفصيلاتها، مع تحوير طفيف في الأحداث، في كثير من الوثائق، كان أوضحها ما ورد في قصيدة بابلية تُعرف بقصيدة أو "ملحمة جلجاميش"، وهو اسم بطل خيالي من أبطال القدامى. والقصيدة مكّونة من أكثر من مئتي بيت (شطر). وفيها يزور "جلجاميش" شخصية انضمت لمصاف الآلهة، تُدعى "أوتْ نابشتيم". وإذْ يسأله كيف تحوّل من مرتبة البشر إلى مرتبة الآلهة، يجيبه بقصة الطوفان، فيقول إن أربعة من الآلهة قد قرروا إهلاك البشرية. ولكن "أيا" رب الأرض الذي يعبده "نابشتيم"، يصل إلى مسامعه هذا الأمر الرهيب، فيحذر "أوتْ نابشتيم"، ويأمره بأن يبني فُلكاً لخلاص نفسه وعائلته. ويبني "أوتْ نابشتيم" الفُلك، ويطليه بالقار؛ حتى لا يتسرب إليه الماء، ويختزن فيه الطعام والشراب، ويحمل إليه عيّنات من كل الكائنات الحية، ويأتي بامرأته وأولاده إليه، ويُعيِّن أيضاً ملاّحاً لقيادة الفُلك، ويحدد الإله "شمش" الميعاد الرهيب، الذي تتفجر فيه طاقات السماء، وينابيع الغمر ....

---

[1] راجع أيضاً المرجع السابق حيث فيه تفاصيل وإثباتات أكثر عن أسماء الأنهار، وعن استبعاد احتمال أن يكون نهر النيل ضمن هذه الأسماء. [المُراجع].

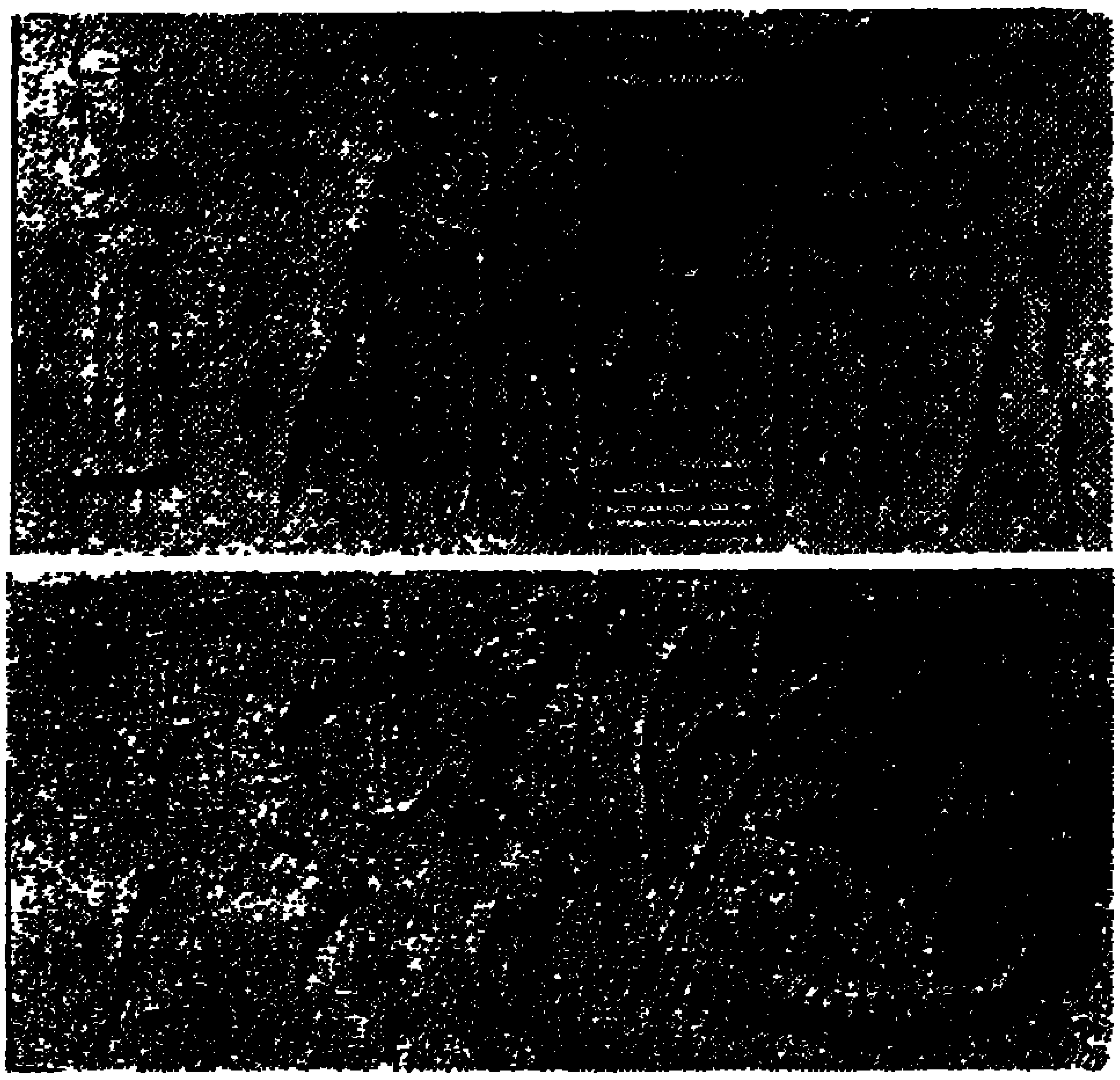

❑ صور أختام على ألواح، لعلها تمثل قصة نوح.

استمع إلى تكملة القصة في أسلوبها الشعري الرائع على لسان ذلك البطل، وهو يقول:

" وحينما ارتسمت خيوط الفجر في الأفق،

انتشرت في السماء سحابة سوداء،

وفي داخلها يزمجر الإله "أداد"،

ويأتي من بعده الإله "تنورتا"،

ويرفع "أنوناكي" المشاعل،

ويجعل الأرض تتوهج من نورها..

والرعب فوق "أداد" قد وصل إلى السماء،

محولاً كل ما هو أبيض إلى لون قاتم..

وارتعدت الآلهة من الطوفان الرهيب،

وتراجعوا صاعدين إلى سماء "عانو"،

كالكلاب المذعورة انزووا، وهم يعوون،

ملتصقين بالجدار الخارجي ..

استمرت ريح السيول تزمجر،

وعاصفة الجنوب تعصف بالأرض..

حتى إذ جاء اليوم السابع،

انقطعت الريح عن المعركة،

التي جاهدت فيها كجيش جبار..

وهدأ البحر، وسكتت العاصفة، وانقطعت السيول..

فتطلعت إلى الجو، فإذا بالسكون يشمله،

وكل بني البشر قد عادوا إلى التراب،

والدنيا متساوية جرداء كأسطح المنازل..

ففتحت إحدى طاقات السفينة، فإذا بالنور يغمر وجهي،

فأحنيت رأسي، وجلست وبكيت،

وتطلعت إلى البحر العظيم علّني أجد شاطئاً هناك ..

والدموع تغسل وجنتيّ ..

ورست السفينة على جبل نسر ..

وحينما جاء اليوم السابع،

أطلقت حمامة،

فطارت وطارت، ولكنها عادت أخيراً،

إذ لم يكن لها مكان ..

ثم أطلقت سنُونة،

ولكنها بعد أن طارت، عادت ثانية ..

ثم أحضرت غراباً، وأطلقته ..

وطار الغراب، وحينما رأى المياه قد تناقصت أكل ودار على نفسه، ولم يعد إليَّ،

فأطلقت (كل الطيور) إلى الجهات الأربع ...

وقدمت محرقة ..

وسكبت سكيباً على الجبل ..

وأقمت سبعة مذابح ..

وكوّمت عليها القصب، والريحان، وخشب الأرز،

وتنسّم الآلهة الرائحة الطيبة ..

وتهافتوا كالذباب حول مقدم التقدمة ..»

وهنا ... نستطيع أن نلاحظ بعض المشابهات بين قصة الطوفان في سفر "التكوين"، وبين قصته في حفائر «بابل». ففي الاثنتين نجد الطوفان بترتيب إلهي، وبطل القصة ينال التحذير مما هو عتيد أن يكون، فيبني فُلكاً لخلاص نفسه، وهذا الفلك يطليه بالقار حتى لا ينفذ إليه الماء. ويحضر معه حيوانات ويدخلها إلى الفلك، والعاصفة تهدأ بعد أيام، ويرسو الفلك على قمة جبل. فيرسل طيوراً لاستكشاف حالة الجو، وينقطع آخر طير منها عن العودة. وبعد أن ينتهي الطوفان، يقدم بطل القصة تقدمة تقبلها الآلهة، وتؤكد له الأمان في المستقبل.

ومـع ذلـك، فالخلافـات بـين القصـتين كـبيرة جداً، ويظهر لنا الفرق الشاسع بين ديانتين، وتعليمين.

في "سفر التكوين":

- يحـدث الطوفـان، كعقاب من الله لمحق الأشرار ..
- يُخـلَّص نوح ومن معه، لأنه إنسان بار ..

في "القصة البابلية"

- يحـدث الطوفـان لهـوًى في نفس الآلهة القساة.
- يـنال الـبطل الـنجاة، لأن له نصـيراً من بين الآلهة الكثيرة.

إن قصـة سـفر "الـتكوين"، تقدم لنا ديانة توحيدية، ولكن البابليين يقدمون لنا أحط درجات الديانـات الـتي تـنادي بتعدد الآلهة؛ حيث فيها يختلف الآلهة، ويُلقون باللوم أحدهم على الآخر – إذا سـارت الأمـور على غير هواهم! يعتز بهم أمام مياه الطوفان كالكلاب الخائفة! ويتهافتون في شـره كالذبـاب عـلى الـتقدمة! ويـلعب واحد منهم لعبة من وراء ظهور الآخرين، فيحذر إنساناً مما هـو عـتيد أن يـتم – لـيس رغـبة منه في خلاص الإنسان، بقدر رغبته في مضايقة الآلهة! ثم يرتفع مقام ذلك الإنسان فيصبح إلهاً، ويتخذ مكانه!

وهكـذا نـرى الفـارق العظيـم بـين فكرة الوحي السامية في قصة سفر "التكوين" بالتوراة، وبين الفكـرة الخـرافية المليـئة بالخيـالات، والأوهـام، والمتناقضـات في القصـة البابلية، مع أنها خلاصة أرقى ما وصل إليه الفكر البشري في دولة ساميّة متحضرة آنذاك.

واكتشـاف قصـة الطوفـان في نُسـخ مـتعددة، والـتي اكتُشـفت في أماكن متفرقة في بلاد ما بين الـنهرين، يُريـنا أن «العـراق» كـان مسـرحاً لهذا السيل المدمر الشامل، بل لقد اكتُشفت لوحات في «لارسـا» تقـدم لـنا أسماء ثمانية من الملوك أمتدَّ عهد حكمهم طويلاً، ثم تأتي بعد ذلك هذه العبارة: "ثـم أتـى الطوفـان". وبعـد ذلـك، تُذكر أسماء ملوك آخرين (أتوا بعد الطوفان). ولقد اكتُشف أيضاً وصف حاكم، وَرَدَ عنه أنه كان يحب الاستماع إلى قصص "ملوك ما قبل الطوفان".

ومنذ سنوات ظن العالم الأثري، "سير/ ليونار وُولي" أنه اكتشف دلائل تشير إلى الطوفان، في حفرياته في «أور الكلدانيين». فبعد أن قام بالحفر في طبقات من الأرض ممتلئة بحطام مدينة أثرية قديمة، وصل إلى طبقة "من الطمي النظيف المتساوي الذي يدل وجوده على أنه قد ترَّسب بواسطة المياه". وبعد أن استمر في الحفر في هذه الطبقة لعمق ثمانية أقدام، وصل إلى طبقات من الأحجار وقطع من الخزف تشير إلى حضارة أكثر قِدماً من الحضارة الأولى. وهكذا استنتج أن طبقة الطمي هذه إنما تُشير إلى عهد الطوفان الذي وضع حداً لهذه الحضارة القديمة. ومع ذلك، فلم يُكتشف في الحفريات الأخرى وجود هذه الطبقة من الطمي أو استمرارها في نفس الوضع، وبنفس النسبة، فما هو الحل لهذه المشكلة؟

هناك حلول كثيرة: إن كون هذه الطبقة قد ترَّسبت بفعل الطوفان أو أي سيل مائي، فهذا لا شك فيه، لكننا نعلم أن الأمواج والتيارات لا تترك الطين يترسب في أماكن مختلفة بنسبة واحدة، كما أن طبيعة التربة تمنع ذلك، فالأرض الرملية تتسرب بين مسامها ذرات الطين أكثر من الأرض الصخرية الحجرية، والوهاد العميقة والوديان تحتجز قدراً أكبر مما تحتجزه الأراضي المرتفعة. ومع أن البعض قالوا بأنه من الجائز أن الطبقة الطينية التي اكتشفها "سير/ ليونار وولي"، قد تكّونت من تكدس التراب في وادٍ مهجور، أو من فِعل سيل صغير غير الطوفان، إلا أن الأرجح أن المستكشف الإنجليزي الكبير قد كشف لنا طبقة تُشير إلى عهد الطوفان في أيام "نوح".

ولكن بقى أمامنا ردُّ على رأي يُنادي به علماء الجيولوجيا والآثار، قائلين إن الطوفان يشير إلى السيول المدمرة التي رافقت ذوبان الثلوج، في نهاية العصر الجليدي الأول. ولكن تجربة (كربون ١٤) قد دحضت هذا الادعاء، وأثبتت أن نهاية العصر الجليدي ترجع إلى أزمنة أكثر قِدماً من زمان طوفان "نوح". وكان ذلك نتيجة فحص بقايا الغابات المتحجرة المتخلفة من العصر الجليدي، في مدينة «يارمو» شمال «العراق»، والتي أُقيمت قبل عام ٧٠٠٠ (ق.م)، وهي التي، بحساب الجيولوجيين، قد عاصرت عهد ذوبان الثلوج في العصر الجليدي (ما بين ٨٠٠٠. و ٧٠٠٠ ق.م).

الباب الأول

الفصل الرابع

أور والسومريون

أور والسومريون

قبل أن يبدأ الباحثون التنقيب في أراضي «العراق»، لم يكن علماء الكتاب يعرفون عن «أور الكلدانيين» مدينة "إبراهيم"، وعن مدى الحضارة التي وصلت إليها. فالمنطقة، كما تبدو الآن، جرداء صحراوية. ولكن بفضل مجهودات "سير/ ليونارد وولي" وزملائه من علماء الآثار، استطعنا أن نعرف أن هذه الأرض الجرداء كانت في يوم من الأيام جنة مزدهرة، وعاصمة لأمة عظيمة. فلقد كان «الخليج الفارسي» يمتد شمالاً إلى موقع مدينة «بغداد». وكان نهر «قارون» يأتي من الغرب ويصب في الخليج. ومقابله تماماً كان يأتي نهر من «بلاد العرب» – ما تزال آثار حوضه الجاف باقية حتى اليوم – ويصب أيضاً هناك. وهذان النهران كانا يحملان الرواسب والطمي الغني (ويملآن بهما فم الخليج)؛ حتى تكونت هذه الدلتا العظيمة الخصبة على مر السنين. كما كان هناك منخفض، في الشمال، تترسب فيه الرواسب المتخلفة من مياه نهري «دجلة» و«الفرات».

هذه العوامل قد ساعدت على تكوين هذه الأرض الخصبة التي كانت، بمعونة الجو الدافئ، تغل ثلاثة أو أربعة محاصيل في العام الواحد. إلى ذلك الوادي الخصيب وَفَدَ جنس غريب يعرف "بالسومريين" واستوطنوا هناك، ولا يعرف المؤرخون، على وجه التحديد، من أين أتى هذا الجنس، ولكن أفراده كانت ملامحهم تشبه إلى حد كبير، ملامح سكان بلاد «أفغانستان»، و«بلوخستان»، و«وادي الهندوس» .. حتى أختامهم المثلثة الشكل. فقد كانت نفس الأختام التي اكتُشفت في حفائر ذلك الوادي، وأما حضارتهم وهندسة بناياتهم وفنونهم، فقد كانت تشبه

حضـارة وفـنون سـكان شمـال غرب «الهند». وعلى ذلك، نستطيع أن نقول إنه ربما أتى بعض من هـؤلاء، من جنوب «إيران»، والبعض الآخر من شمال «الهند»، عن طريق البحر، واستقر بهم المقام هـناك، ولقـد عُـرفت هـذه الأرض فـيما بعـد بـأرض «سـومر». أما الجزء الشمالي منها، فقد عُرف بأرض «عقّاد».

❑ غطاء رأس أميرة، وقد ظهرت على رأسها أربعة تيجان من الذهب وجواهر أخرى، أخذت الصورة من تمثال سومري محفوظ بمتحف اللوفر في باريس.

و"الحضـارة السـومرية" كـانت مـن أعـرق الحضـارات القديمـة. وقـد وصلت أعلى ذروتها في الفـترة مـا بين (٢٧٠٠ – ٢٤٠٠ ق.م). وكانت من أخص علامات هندسة المباني عندهم: الأعمدة، والمداخـل المستديرة، والقـباب – تـلك الأنظمـة الهندسـية التي عُرفت في أوربا فيما بعد، ووجدت طـريقها إلى هـناك بعـد مـرور آلاف السنين. ولقد كانوا يستخدمون، في الفنون والصناعات، الذهب

والفضة – ليس في أدوات الزينة فحسب، بل في كل شيء؛ حتى الأسلحة والأواني المنزلية، كانت تُرصَّع بالأحجار الكريمة. وكان النحاس والزجاج والأحجار النفيسة كلها معروفة لديهم، ومنها كانت تصنع الكؤوس والقارورات وما شابه ذلك.

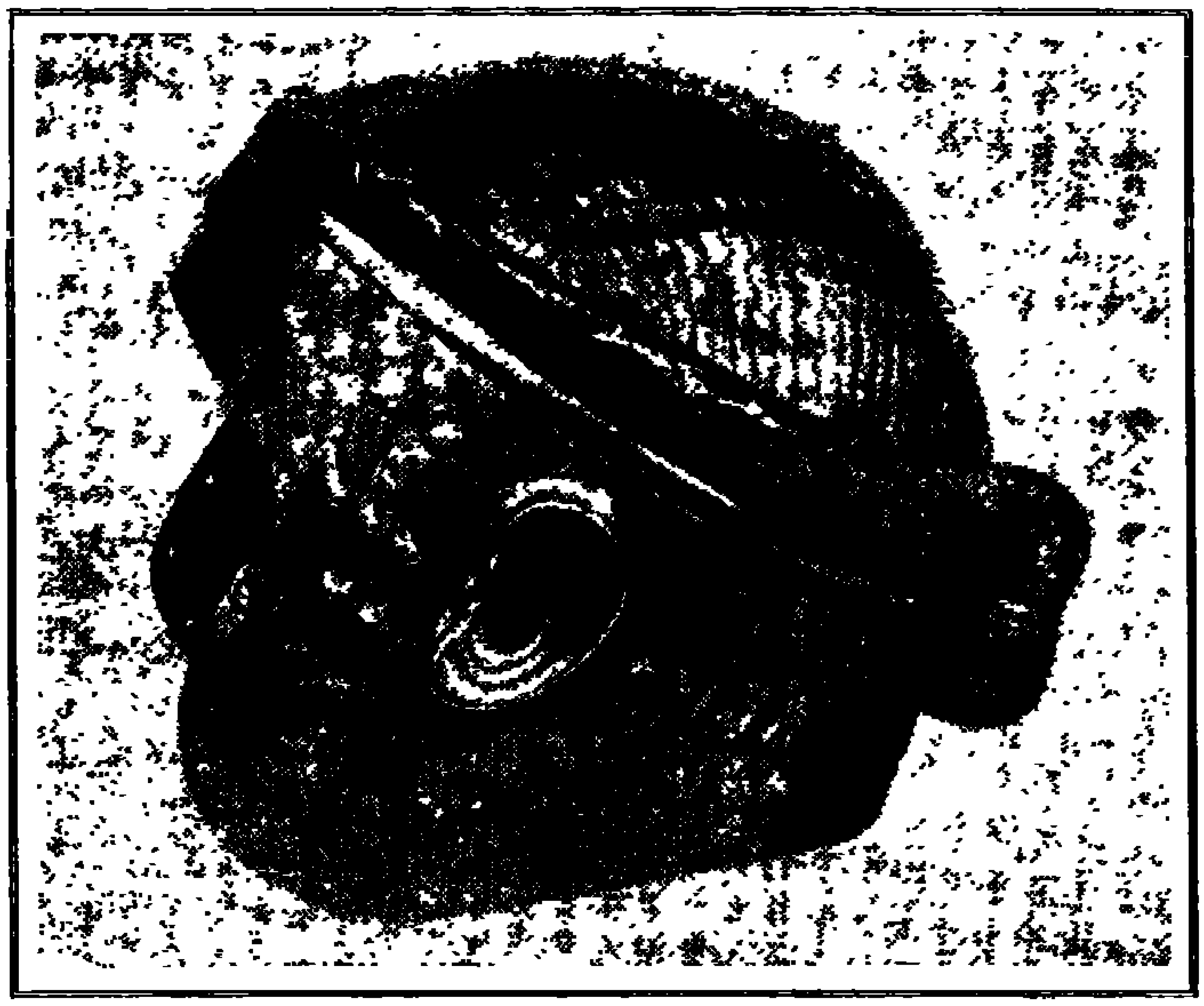

❑ خوذات ذهبية عُثر عليها في المدافن الملكية بأور

ولقد اكتُشف مؤخراً في خرائب «أور» مقبرة أمير يعرف باسم "مسكلدج"، واكتُشف فيها الكثير من التحف الفنية النادرة، إحداها غطاء للرأس من الذهب المطروق، تحيط به دائرة منقوشة على هيئة ضفيرة، ويمتد هذا الغطاء ليغطي الصدغين والوجه والأذنين، حيث جعلت لها أماكن مصوغة على شبهها. واكتُشف أيضاً مصباح من الذهب الخالص نُقش عليه اسم الأمير. وخنجر بمقبض ذهبي، ومئات من الحبَّات من الذهب وحجر اللازورد والماس – فإذا تذكرنا أن «العراق» بلد زراعي، وأن تلك المواد كانت تأتي من الخارج؛ أدركنا إلى أي مدى كان تقدم العلوم والصناعات هناك. فالقار كان يُستورد من الشمال، والنحاس من «عمّان»، والفضة من «كيليكية»، والذهب من «عيلام» و«أنطاكية»، والمرمر من «إيران»، وحجر الديوريت من «خليج فارس».

ومع أن "السومريين" كانوا متقدمين في الفنون والصناعات، إلا أن التقارير التي كشفت عنها

الآثار تُرينا أنه كانت تسودهم تقاليد قاسية رهيبة. فالجنازات التي تقام عند دفن الملوك والأمراء كانت ترافقها ذبائح بشرية على نطاق واسع! والمقابر التي اكتُشفت، وُجدت غاصّة بجثث الرجال والنساء الذين قُتلوا في نفس الوقت الذي قُضي فيه صاحب المقبرة! بل في إحدى المقابر اكتُشفت فرقة كاملة من الجنود في مدخل المقبرة بثيابهم العسكرية الكاملة، ورماحهم في أيديهم! وفي نهاية الغرفة، التي اكتُشفت بها مومياء الملك، كانت هناك تسع جثث لنساء القصر، وعلى رأس كل واحدة غطاء الرأس الذهبي! كما كانت على المدخل عربتان ثقيلتان، كل واحدة تقوم على عجلات أربع، ويجر كل منها ثلاثة عجول. واكتُشفت عظام السائس ومرافقيه، قريبة من المكان! وفي مقبرة الملكة "شوباد"، اكتُشف صفان من نساء القصر ينتهيان بعازفة على القانون تحتضن آلتها، ويتلو ذلك اثنتان من المومياء لعبديْن ساجديْن! ويستطيع القارئ أن يتصور الرعب الذي كان يطغى على رجال الملك ونسائه، حينما كان أحد الملوك أو الأمراء، يصاب بالمرض، ويدنو ميعاد وفاته!

وكان "السومريون" قساة أيضاً في الحروب إلى أقصى الحدود، فالأسرى كانوا يُقتلون في الحال، ويُستثنى منهم الأقوياء والشرفاء ويصبحون عبيداً طيلة العمر! والمدن كانت تنهب وتسوّى بالأرض، ويبعثر منْ تبقى من سكانها بعيداً عنها! ولعل هذه القسوة كانت سبباً في زوال مُلكهم العظيم.

أما عن ديانتهم، فقد كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة. وكان كل بيت له صنمه المعبود. وقد ذكر العهد القديم أن "راحيل" في هروبها من بيت أبيها، سرقت آلهة أبيها معها (تك ٣١: ٢٧-٣٢).

وقد كان هناك كهنة كثيرون يقومون بإرشاد الشعب إلى مراسيم العبادة المفروضة، وكانوا على حدٍ كبيرٍ من الجشع والطمع. ولقد عُثر في الآثار على صورة مرسوم ملكي لأحد الملوك يمنع الكهنة من دخول حديقة امرأة فقيرة، وأخذ الخشب والثمار منها. كما أن الهياكل كانت مراكز للثقافة السومرية، ويُلحق بها عادة مدارس للكتبة، ولتعليم "الخط السومري المسماري" وأسراره. وكم كانت "الكتابة السومرية" معقّدة قاسية برموزها الكثيرة. وقد اكتُشفت لوحات كثيرة من الطين

المجفف، على جانب منها كتابة المعلمّ، وعلى الجانب المقابل تقليد التلميذ للكتابة. وفي بعض منها رسم المعلم قائمة تشير إلى علامات صوتية، ومقاطع ورموز بجوارها مدلولاتها. واكتُشفت أيضاً لوحات مكتوبة، تشير إلى دروس أعلى للمتقدمين في قواعد اللغة والأسماء والأفعال، ومعها لوحات حسابية تُقدم للطالب طريقة استخراج الجذر التربيعي أو التكعيبي، وكيف يحسب الطالب مساحة قطعة أرض غير متساوية الأضلاع. ولعلنا لا نستبعد من مخيلتنا فكرة "إبراهيم" أبي الأباء في صباه، وهو ضمن تلاميذ تلك المدارس البدائية، محاولاً أن يحل مشكلة «مسألة حسابية» أو يستخرج جذر عدد حسابي كبير. ورؤساء القبائل الثرية اليوم، في «إيران» و«العراق»، يرسلون أبناءهم لتلقي العلم في جامعات أوربا وأمريكا، فهل نستبعد أن نتخيل "تارح" الثري والد "إبراهيم"، مُرسِلاً ابنه إلى مدينة «أور» لتلقي العلم على أيدي كبار كهنتها؟!

وفي «أور» اكتُشفت أيضاً لوحات تحوي قوائم لموازين ومكاييل، وقواميس طبية بها إرشادات لبعض العمليات الجراحية الصغيرة، وفوائد للأعشاب والنباتات، ووصفات طبية.

وكانت "كعبة السومريين" في «أور»، بناية ضخمة تُعرف "بالزاجورات"، وهي على هيئة هرم له أربعة أضلاع يرتفع إلى ارتفاع كبير .. ولقد ظن العلماء، في وقتٍ من الأوقات، أن هذا البناء، وما يشابهه في أماكن أخرى، قد أُقيم على صورة مشابهة للمقامات الجبلية التي كان "السومريون" يقدّسونها في بلادهم التي أتوا منها. ولكن قد ثبت أيضاً أن لها فوائد أخرى، فقد كانت تُستخدم مآوي من الفيضانات والسيول، وما أكثرها في أراضي «ما بين النهرين»، حيث قد اتضح – أخيراً – أن الأرض هناك تنخفض عن مستوى سطح البحر انخفاضاً كبيراً.

أما بناية "الزاجورات"، فقد كان مسطح قاعدتها ٢٠٠ × ١٥٠ قدماً، وارتفاعها ٧٥ قدماً، ومادة البناء من الطوب الأحمر المحترق من الخارج، والطوب النيئ من الداخل . أما الماشي العُليا فهي غير منتظمة، والأرجح أنها كانت مُغطاة بالأشجار. وكانت هناك مائة درجة من درجات سلم توصل إلى أعلى، أما هيئة الكهنوت فقد كانت تضم الكهنة، وخدام الحريم، ووزير الحرب، ووزير الزراعة، ووزير المواصلات، ووزير المالية. وكانت الهبات التي تقدم للآلهة تخزن في مخازن

ضخمة. ولقد اكتُشفت هناك صور إيصالات لهبات من الماشية، وجرار من الشعير والجبن والزبد والصوف. وكانت مساحة المعبد تضم مناسج لنسج الصوف، وكان وزن الصوف وطول القماش المنسوج منه يُسجلان بكل دقة، وتحسب الخسائر والأرباح في جداول منظمة.

وفي عهد "إبراهيم"، كانت مدينة «أور» تمتد في بناياتها إلى أربعة أميال، وفي العرض ميل ونصف الميل. وكانت الطرقات ضيقة غير مُعَبدة، ولا سبيل للوصول إلى الداخل إلا على ظهور الدواب. وكانت الأحمال تحمل بواسطة الحمّالين إلى البيوت، ومعظم المنازل كانت مكّونة من طابقين، وكل طابق يحتوي على اثنتي عشرة أو أربع عشرة غرفة.

وهذه الاكتشافات الحديثة، تغيِّر فكرتنا التي توارثناها عن "إبراهيم" وعصره. لقد كنا نتخيله رئيس قبيلة بدوية تسكن الخيام، ويقف علماً مفرداً في فجر التاريخ. ولكن الكشوفات الحديثة تجعلنا نرى أنه كان معاصراً لحضارة عظيمة وصلت إلى الذروة قبل أن يظهر هو للوجود بما يقرب من ٨٠٠عام! لقد كانت هناك مدناً متحضرة، ومظاهر حضارة عظيمة في كل مكان من أرض «العراق».

ومدينة «أور» هي أحد الأمثلة التي تُشير إلى "الحضارة السومرية" في عهد "إبراهيم". ولكننا لا نستطيع أن نقطع على وجه التحديد، بأنها المدينة التي أتى منها، لأن الترجمة السبعينية (LXX) لا يظهر في نصها كلمة «أور». ولقد أثبتت الاكتشافات صحة ما ورد بالتوراة من أن حياة "إبراهيم" قُضيت في «حاران» (تك ١١ : ٢٨–٣١)، وأنه من سكان «حاران».

ويتساءل البعض قائلين: لماذا لم يردْ اسم "إبراهيم" ضمن الآثار التي اكتُشفت حتى الآن؟

نجيب بالقول إن الآثار التي وصلت إلينا، سُجلت بأمر من أحد ملوك ذلك العهد، كما أن الحفريات ما تزال مستمرة هناك. ومن يدري إن كانت لا تقدم لنا في المستقبل القريب أو البعيد، تأييداً كاملاً مُفصّلاً لكل ما ورد عن "إبراهيم" في التوراة؟[1]

[1] راجع كتاب: "النبي إبراهيم" للدكتور سيد القمني، دار سيناء للنشر [المراجع].

ومع كل هذا، فقد اكتُشف لوح في خرائب «بابل»، يحمل اسم "إبرام"، أو "إبراما"، ويشير إلى أنه دفع المفروض عليه من الضرائب المستحقة. هذا يرينا، على الأقل، أن ذلك الاسم كان معروفاً في عهد "إبراهيم".

زيادة على ذلك، نقرأ في السفر المقدس أن "إبراهيم" سكن في «حاران» مدة طويلة حتى مات والده "تارح". ولقد كشفت الحفريات الأثرية في مكان يُعرف باسم "ماري" عن قصر أثري من أروع القصور القديمة، بناه الملك "زمري ليم"، ويحتل خمسة عشر فداناً، وبه ٣٠٠ حجرة. وقد اكتشف في مخزن المحفوظات (الأرشيف)، أكثر من ٢٠,٠٠٠ لوح، تلقي محتوياتها أضواءً على أسماء مدن عديدة ورد ذكرها في سفر "التكوين" (الأصحاح ١١)، وثبت أنها في مملكة "زمري" القديمة. فهناك مدينة باسم أخ "لإبرام" يُدعى «حاران». وقد ظهر أن مدينة «حاران» كانت مزدهرة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وهناك مدينة أخرى باسم آخر يدُعى «ناحور»، ومدينة «ناحور» ورد ذكرها في أماكن متعددة من آثار «ماري»، و«آشور». ونحن نعرف أن والد "إبرام" هو "تارح"، وقد اكتشف اسم مدينة تُعرف «بتل التوراخي» أو «تل التوراحي». أما جد إبرام فاسمه "سيروج". وهناك مدينة غرب «حاران» بنفس الاسم. كما أن المشابهة بين أسماء القبائل، أو رؤساء العشائر، وبين أسماء الأشخاص تدعو حقاً للدهشة زيادة على ذلك، اكتُشفت ألواح أخرى، جنوب شرق «نينوى»، في مدينة تدعى «نُزي»، تكشف لنا أسرار العادات القبلية التي ورد بعضها في سفر التكوين. وقبل اكتشافها، كان القارئ يقف في حيرة أمام قول "إبرام" وهو يخاطب إلهه مشتكياً بأنه بلا ابن ولا وريث، وأن وارث بيته "أليعازر الدمشقي". وكنا نتساءل لماذا يرث غريب سيده بعد موته؟!

وفي آثار «نُزي»، نجد الجواب: فقد جرت العادة في ذلك الحين، أن يقوم الأبوان العاقران، بتبني من يسهر على رعايتهما طيلة الحياة، ويرث أملاكهما بعد الممات. ولقد كان "أليعازر" على هذا الأساس، هو الوريث الشرعي "لإبرام". ومع ذلك، فلقد كانت القوانين تقضي بأنه إذا وُلد للأبوين ابن بعد ذلك، فإن هذا الاتفاق يَبطل مفعوله، وتعود الأملاك لوريثها الحقيقي.

وثمة عادة أخرى، ذُكرت عن "سارة" زوجة "إبرام"، وورد ذكرها أيضاً عن "رحيل" زوجة "يعقوب"، وهي أن الزوجة كان لها الحق، في أن تقدم أَمتها لزوجها، لتنجب لها أطفالاً، وقد ذُكر هذا أيضاً في الآثار. وكذلك، هناك عادة ثالثة، وهي أن كلمات رب البيت، وهو على أعتاب الموت، تسري كوثيقة قانونية. وفي سفر التكوين (الأصحاح ٤٩) نقرأ كيف أصبح "يهوذا" رأساً للعائلة؛ بناءً على توصية "يعقوب" في أيامه الأخيرة.

وتكشف لنا تلك الألواح أيضاً، أن آلهة الأسرة، التي ذُكرت في سفر "التكوين" باسم "الترافيم"، كانت غاية في الأهمية لمن يمتلكها. فقد كان من المعتقد أنها تجلب له الثراء والنجاح والحق في الميراث. ومن ذلك، نستطيع أن ندرك سر ثورة "لابان"، حينما اكتشف أن "يعقوب" قد هرب، وأن آلهته قد اختفت في الوقت عينه، وندرك أيضاً لماذا تضايق "يعقوب" جداً من هذا الأمر، حتى أنه قال محدِّثاً "لابان": **"الذي تجد آلهتك معه لا يعيش"** (تك ٣١: ٣٢).

وإذ نتتبع "إبرام" في رحلته الطويلة نمر «بدوثان»، و«بيت إيل»، و«شكيم». كلها مدن ورد ذكرها كلها في الآثار. كما أن الكتاب المقدس يذكر أيضاً أن الأراضي الواقعة جنوب «البحر الميت» كانت أمكنة مزدهرة مأهولة بالسكان، بينما هي الآن مجرد خرائب لا يسكنها أحد. وهنا .. يتقدم معول الباحث، ليُنقب عن التاريخ في باطن الأرض، ويثبت صحة أقوال التوراة، حتى إن "د. ألبريت" من "جامعة هوبكنز" يقول بالحرف الواحد:

"إن نتائج هذه الاكتشافات قد أثبتت بكل دقة صحة الكتاب المقدس". (في تقريره بأن «وادي الأردن» كان مزدهراً، ومزدحماً بالسكان، في عهد إبراهيم).

وقد وصلت حضارة «وادي الأردن» إلى ذروتها في العصر المعروف بين حقب التاريخ بالعصر البرونزي (٢٥٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م)، ثم تدهورت، واندثرت بعد ذلك.

بل إن قصة التوراة قد أسهمت في ازدهار الصناعة، وأسدتْ خدمة لا تقدر لصناعة الكيماويات في عصرنا الحاضر. فاعتماداً على ما ورد في سفر "التكوين"

(١٩ : ٢٨، ٢٤)، استنتج أحد العلماء الجيولوجيين، أن الزيت والغاز لابد وأن يكونا في منطقة «البحر الميت»، وقد ثبتت صحة هذا الاستنتاج، وقامت على أساسه عدة صناعات. كما أن ذكر التوراة لوجود "الأشجار الأبرية الصنوبرية" في المنطقة؛ قد حفّز البعض إلى تجربة تنمية الغابات هناك. ونجحت الفكرة

أما عن «سدوم وعمورة» فلم تُكتشف بعد بقاياهما. إلا أنه يُرَجح أن مياه «البحر الميت» قد طغت عليهما"[1]. على أن التحليل الكيميائي لتربة المنطقة قد أثبت وجود آثار من عنصر الكبريت، واللافا البركانية.

❑ جزء منهدم من التربة قد هبط في البحر الميت. (صورة حديثة التقطت في يناير ٢٠٠٠)

والخلاصة إن الوصف الذي يقدمه علماء الجيولوجيا لطبقات الأرض في هذه المنطقة، منذ

[1] ومع أن «البحر الميت» هو الأدنى مستوى بالنسبة لبحار العالم، فهو أقل مستوى مدا يطلق عليه "مستوى سطح البحر" . إلا أنه عندما تحدث انهيارات نتيجة الزلازل؛ تنهار بعض أجزاء التربة وقد حدث هذا قبل العام الماضي، مع نهاية الألفية الثانية .. والصورة هنا توضح الجزء المنهدم من التربة. والذي نزل تحت مستوى البحر واختفى [المراجع].

أربعة آلاف سنة، ينطبق انطباقاً تاماً على ما ورد في سفر التكوين.

الباب الأول

الفصل الخامس

يوسف والخروج من مصر

يوسف والخروج من مصر

إن قصة "يوسف"، كما جاءت في التوراة، هي من أهم القصص التي وردت في الكتاب المقدس. بل إن نُقاد القصة يرون فيها مثالاً للقصة القصيرة Short story. فلدينا في بدايتها شاب طيب، يتقدم حاملاً الخير والبركات لأخوته، فيقابَل بمكيدة قاسية مدَّبرة! وهنا تأتي "العقدة" حسب التعبير الدرامي لأدباء القصة. ثم نلتقي "بعقدة" أخرى، حينما يُقاد "يوسف" إلى «مصر»، عبداً ذليلاً، فلا يلبث أن يجلس على كرسي الحكم، ويصبح في مركز رئيس خزانة الدولة.

ولقد اكتُشف الكثير، حتى الآن، من آثار «مصر الفرعونية»، ولكن لم يكتشف بينها دليل واحد يشير إلى يوسف، حتى زمن قريب، حينما اكتُشفت مقبرة حاكم إحدى المقاطعات في «مصر»، ويُدعى "ألقاب". وكان معاصراً "ليوسف"، ووُجدت على قبره كتابة تشير إلى مجاعة رهيبة حدثت في حكمه، وكيف أن الحاكم قد قام بتوزيع الغلال التي اختزنها في أوقات الخير والسِعة. ويبدو أن هذه الحوادث قد وقعت أثناء حكم ملوك "الهكسوس". كما أن تفاصيل القصة تتفق إلى حدٍ كبيرٍ مع ما ورد عن عهد "يوسف" في سفر "التكوين". ومما هو جدير بالذكر أن الأرض، قبل حكم "الهكسوس"، كانت مِلكاً للشعب، عدا الأرض الموقوفة على المعابد، ثم بعد ذلك، انتقلت ملكيتها للحكومة. وهذا يتفق وما ورد في "سفر التكوين" (٤٧ : ١٨-٢٢)، فحينما نفدت النقود من أيدي الناس، اضطروا إلى بيع أراضيهم لفرعون مقابل الطعام.

ويبدو أن كاتب قصة "يوسف"، كما وردت في سفر "التكوين"، وهو على الأرجح النبي

"موسى"، كان مُلِماً بعادات المصريين ولغتهم وتقاليدهم. فكلمة "رئيس السقاة" و"ورئيس الخبّازين" قد ذُكرت في المخطوطات الأثرية المصرية. ولقب "مراقب البيت"، أو المسيطر على شئون البيت، هي ترجمة للقب المصري آنذاك "رئيس مخازن".

والأحلام كانت ذات أهمية قصوى عند "المصريين". والكتاب المقدس يذكر أن ارتفاع "يوسف" إلى مركزه العظيم كان بسبب تفسير حلم نبويّ. كما أن عيد ميلاد "فرعون"، كان فرصة مباهج وولائم وأفراح تعم البلاد، وكان "فرعون" يُظهر شعوره بالسرور بإطلاق سراح بعض السجناء. أما عن السحرة والعرافين، فقد كانوا ضمن رجال البلاط الفرعوني، والعمر الطويل كان يعتبر مئة وعشراً من السنين. وقد ذُكرت عادة تحنيط الرجال العظماء ضمن حوادث القصة.

وفي الأعداد الأخيرة من سفر "التكوين" نقرأ عن "يوسف" أنه استحلف أخوته أن ينقلوا عظامه إلى الأرض التي وعدهم الرب بها. وفي سفر يشوع (٢٤: ٣٢) نقرأ أن عظام يوسف نُقلت إلى «فلسطين»، ودُفن في «شكيم». وهناك في «شكيم» قبر يقدّسه الجميع، ويُعرف بـ "قبر يوسف"، وقد فُتح هذا القبر منذ أعوام، واكتُشفت به جثة مُحنّطة على عادة قدماء المصريين في التحنيط، وبين النفائس المحيطة بالجثة، سيف من النوع الذي كان يستخدمه كبار رجال الدولة في «مصر الفرعونية».

أما تاريخ الخروج من أرض «مصر»، والمعجزات التي أجراها الله فيها، وعنايته بشعب "العبرانيين" طيلة أربعين عاماً في البرية، ودخولهم إلى «أرض كنعان»، والحروب مع القبائل التي تقطن تلك الأراضي – فهذه كلها تؤيدها الآثار، ولو أن التواريخ لا تزال غامضة غير يقينية.

في المزمور ١٠٥ (أعداد ٢٦–٤٣) يسبح المرنم إلهه لأجل الخلاص العظيم. وفي نبوات "هوشع" (١١: ١–١٢؛ ١٢: ٩–١٣؛ ١٣: ٤) يُشير النبي مراراً إلى تدّخل الله لخلاص شعبه. ومن هنا، بدأ "العبرانيون" يُدركون شيئاً عن علاقتهم بالله، وهنا اتخذوا "ناموس موسى" ناموساً لهم. وهناك من الدلائل الكثير الذي يؤكد على أنه حدث غزو كبير لممالك «كنعان» في الألف الثانية قبل الميلاد.

على أن الصعوبة، هنا، هي في وجود بعض الدلائل التي تشير إلى أن تاريخ الغزو يقع حوالي عام (١٤٠٠ ق.م)، بينما البعض الآخر يجعله عام (١٢٥٠ ق.م). وتتفق التوراة في تاريخها مع التاريخ الأول. ففي سفر الملوك الأول (٦: ١) نجد أن تاريخ بناء الهيكل بدأ عام (٤٨٠ق. م.) بعد الخروج من أرض "مصر". وقد تولى "سليمان" المُلك في بداية عام (٩٦٥ ق.م)، وبدأ بناء الهيكل بعد مرور أربعة أعوام على مُلكه، أي حوالي بداية عام (٩٦١ ق.م)، وأكمله في سبع سنين، وهذا يجعل تاريخ خروج "بني إسرائيل" من «مصر» حوالي نهاية عام (١٤٤١ ق.م)، كما يجعل احتمال أن يكون "تحتمس الثالث" الذي توفى عام (١٤٤١ ق.م) هو "فرعون" سفر "الخروج"[(1)].

ومن الآثار المصرية القديمة، نعرف أن "تحتمس الثالث" كان مغرماً بالبنايات الفاخرة. وقد اكتُشفت لوحة ضمن الآثار التي خلّفها، تصور الأسرى الساميّين، وهم يقومون ببناء هيكل له. وعلى ذلك، فالملك الذي تولى المُلك في "مصر"، ولم يكن يعرف "يوسف" هو "تحتمس الثالث" الذي حكم البلاد من عام (١٤٩٥ – ١٤٤١ ق.م). وإن كان "بنو إسرائيل" قد قضوا أربعين عاماً في برية التيه، حتى وصلوا إلى «كنعان»، فإن غزو «أراضي كنعان» يكون قد حدث حوالي عام (١٤٠٠ ق.م). ومما يؤيد هذا الرأي، ما ورد ببعض اللوحات الأثرية المخطوطة بالخط المسماري المخروطي، التي عثرت عليها فلاحة مصرية في خرائب «تل العمارنة» حوالي عام (١٨٨٨م)، وكان عدد هذه اللوحات أربعمائة لوحة أرسلها حكام «فلسطين» إلى فرعون «مصر»، مستنجدين به، لحمايتهم من غزو شعب خطير ذُكر باسم "العبيرو". وإحدى هذه اللوحات، على سبيل المثال، أُرسلت إلى "فرعون مصر" من "ملك أورشليم"، ويُدعى "عبدي هيبهْ"، وهي تُظهر مدى جزع ذلك الملك وخوفه، وقد ورد فيها:

"إن "العبيرو" ينهبون كل أراضي الملك. ولو كان عندنا رماة سهام في هذه السنة، لبقيت أراضي سيدي الملك سليمة مصونة. لكن إذ لم يكن لدينا رماة سهام فعلى أراضي سيدي الملك

---

(1) على أساس أن بناء الهيكل بدأ في عام (٤٨٠ م.) بعد الخروج، وهي نفسها السنة (٩٦١ ق.م.) ومجموعُهما ١٤٤١، أي أن الخروج تم سنة (١٤٤١ ق.م.)، وهي سنة وفاة "تحتمس الثالث"، فيكون هو "فرعون" الخروج. [المُراجع].

السلام".

وفي مكان آخر تقول الرسالة:

" إن ذراع سيدي الملك الجبارة. تتحكم في أراضي «نهاريم» وأراضي «كوش». ولكن "العبيرو" يستولون على مدن سيدي الملك. لم يبقَ بعد حاكم واحد لسيدي الملك ... الكل قد قتلوا. هوذا سكان لخيش قد أصبحوا عبيداً للذين يُدْعَوْن "العبيرو"!"

ولقد أثار اسم "العبيرو" الكثير من الجدل والمناقشات. فقال بعض المؤرخين إنه اسم رمزي يشير إلى قبائل ثائرة مهمتها النهب والسلب والإغارة على المدن الآمنة. كما نشير، نحن في الشرق، إلى أي قبائل رحَّالة ثائرة بلقب "الغجر". ومع ذلك، فحينما نقارن بين اسم "عبرانيّ" واسم "عبيرو"، نجد تشابهاً كبيراً.

ومهما يكن من أمر، فمن الثابت، كما تشير هذه الآثار وغيرها، أن عناصر صغيرة معادية حاولت أن تحتل مدن «فلسطين» في نفس الآونة التي يتحدث عنها الكاتب، والتي تحركت فبها قبائل "العبرانيين" صوب أراضي «كنعان» – وهددت الحكم المصري هناك. وفي رسائل أخرى من ملك «كنعان»، يرجو الملكُ فرعونَ مصر، أن يرسل له كتائب حربية لمجابهة "العبيرو" الغزاة البرابرة القادمين من الصحراء.

أضف إلى هذه، أنه قد اكتُشفت في الحفريات دلائل تشير إلى خرائب بعض المدن الأثرية المحروقة بالنار، نتيجة لغزو عناصر مغيرة. واكتُشف أن تاريخ إحراق وتخريب هذه المدن يعود تقريباً إلى عام (١٤٠٠ق.م.)، وهذا القول نثبته بشهادة أحد كبار الثقات في الحفريات من "جامعة لِفربول"، وهو "د. جون جارستان"[(١)]، ففي أثناء الحفر في منطقة «أريحا»، اكتُشفت طبقات مدينة ذات أسوار، أُحرقت في نفس التاريخ، وجُمِع منها هذا العالِم مع البعثة الأثرية التي قامت معه،

(١) هذا هو العالِم الذي أفنى سنوات من عمره في الحفر، حتى وجد «أسوار أريحا» التي سقطت في مكانها، وقد سجل لنا أطلس أكسفورد (Oxford Atlas) صورة لهذه الأسوار. [المُراجع].

مئة ألف قطعة من الخزف المحطم.

وإلى الشمال، بالقرب من هذه المنطقة، اكتُشفت مدافن أثرية تحتوي على أوان خزفية تضارع نفس القطع التي اكتشفت من حيث النوع والنقش والصناعة. كما اكتُشفت بها أيضاً ما يقرب من ثمانين جعراناً أثرياً من النوع الذي يوجد في مقابر قدماء الفراعنة في «مصر». وكلها تعود إلى الدولة الثامنة عشرة – الدولة التي تضم الملكات والملوك: "حتشبسوت". و"تحتمس الثالث"، و"أمنحوتب الثالث"، وجميعهم جلسوا على كرسي العرش في الفترة ما بين عام (١٤١٣ ق.م)، إلى عام (١٣٧٧ ق.م.)، وهكذا استنتج الباحثون أن مدينة «عاي» قد خُرِّبت في منتصف العصر البرونزي حوالي (١٤٠٠ ق.م.).

على أن البعض يعارضون تاريخ خروج "شعب إسرائيل" من «مصر»، ويرجعون به إلى عام (١٢٠٠ ق.م.) وهم يستندون في ذلك إلى بعض الاكتشافات الحديثة، ومنها اكتشاف خرائب مدينة «فبيثوم» (أو بيثوم) في أرض «جاسان». وأننا نقرأ في سفر "الخروج" (١: ١١) أن "الإسرائيليين" قد سُخِّروا في بناء مدينتي «رعمسيس»، و«فيثوم» [أو بيثوم][1]. وهما مدينتان استخدمتا كمخازن للغلال، وغير ذلك. وقد اكتشف العالم "إدوارد نافيل" خرائب «بيثوم»، ووجدها مدينة مخزن بالفعل، بغرف ذات جدران قوية سميكة. سمكها ثمانية أقدام، مقامة من الطوب المجفف بحرارة الشمس. البعض منه مخلوط بالتبن، والبعض بدون ذلك. مصداقاً لقول التوراة إن المسخَّرين كانوا يعطون العبرانيين التبن في البداية، ثم مُنعوا عنهم ذلك فيما بعد **"فأمر فرعون في ذلك اليوم مسخري الشعب ومدبريه قائلاً لا تعودوا تعطون الشعب تبناً لصنع اللبن كأمس وأول من أمس. ليذهبوا هم ويجمعوا تبناً لأنفسهم"** (خر٥: ٦، ٧).

(١) في اللغة العبرية قد تنطق "الفاء". "باء". فاسم البلد «فيثوم» أو «بيثوم». [المراجع]

❑ صناعة الطوب في مصر

وكانت مساحة المدينة مغطاة كلها على وجه التقريب بهذه الغرف. ومن النقوش على الجدران، عُرف أن هذه المدينة بُنيت في عصر "رمسيس" الذي جلس على العرش بعد تولي "تحتمس الثالث" الملك بمئتي عام. ومن الآثار المتعددة، رأى العلماء أن معظم بنايات "تحتمس الثالث" كانت في صعيد مصر. وهكذا استنتجوا أن فرعون سفر الخروج لابد وأن يكون "رمسيس" وليس "تحتمس". على أنه من المحتمل أن يكون بناء هذه المدينة قد بدأ في عصر "تحتمس"، وتوقّف بعد خروج "الإسرائيليين" من «مصر»، ثم أُكمل[1] بعد مرور مئتي عام في عهد الملك "رمسيس"، الذي حكم ما بين عامي (١٢٩٠ – ١٢٢٤ ق.م.).

على أنه بالرغم من هذا، فهناك أمر آخر يدفع العلماء إلى التمسك بتاريخ لاحق للخروج غير التاريخ الذي ينادي به بعض دارسي التوراة، وهو أن الأبحاث والحفريات أثبتت أن ممالك «آدوم» و«موآب»، و«عمون» لم تتكون حتى القرن الثالث عشر قبل الميلاد، مع أن سفر "يشوع" يذكر هذه الممالك بالاسم، ويذكر أيضاً أنها كانت نامية مزدهرة في أثناء فتوحات "يشوع" وحملاته الحربية.

---

[1] ويكون هذا حلاً للاختلاف بين الاحتمالين. وعلى كل حال، قصة الخروج قصة تاريخية واقعية كما يحكيها سفر "الخروج" ، وأي احتمال لا يؤثر على حقيقة الخروج المعجزي لشعب الله قديماً. [المراجع].

ولكن يبدو أن امتلاك «أراضي كنعان» لم يتم في فترة وجيزة، وسفر "يشوع" يؤيد ذلك. وعلى ذلك، إذا أخذنا بالرأي القائل إن "رمسيس الثاني" هو فرعون الخروج، فإن "بني إسرائيل" يكونون قد استمروا في عملهم التسخيري زهاء عشر سنوات من حكمه. وخرجوا من مصر عام (١٢٩٠ ق.م.) ووصلوا إلى «كنعان»، وبدأوا محاولات الاستيلاء على ممالكهم عام (١٢٥٠ق.م.). فإذا أضفنا المدة التي قضوها في أرض «مصر» إلى هذا التاريخ، يكون دخولهم لأول مرة إلى هذه البلاد في عام ١٧٢٠ ق.م – وهو تاريخ يتفق إلى حدٍ كبيرٍ مع بداية غزو "الهكسوس" «لمصر» وامتلاكهم لها [١].

والشاهد الوحيد الذي ذُكر فيه صراحة اسم "إسرائيل" في «مصر»، تركه "منفتاح" ابن "رمسيس الثاني" مُسَّجلاً على مسلة من الجرانيت في معبده الخاص "بطيبة". وقد سُجلت على هذه المسلة أخبار انتصاراته، ومنها:

"الأمراء يرتمون على الأرض ويقولون السلام، ولا أحد يرفع رأسه وسط الأقواس التسعة. «ليبيا» قد خُرِّبت. و«ختي» خضعت. و«أرض الكنعانيين» أفسدها كل شر. و«عسقلون» صارت في الأسر. و«جزر» انتصرنا عليها. و«يانوام» أصبحت كأنها لم تكن، و«شعب إسرائيل» خُرِّبٍ، ولا وريث له. و«فلسطين» (أرملة بلا بعل) أُخضعت «لمصر»، وكل الدول هُزمت، وكلها أُخضعت".

من هذا، نرى أنه في عام (١٢١٩ ق.م.)، كان "لشعب إسرائيل" كيانه كشعب وسط الشعوب، وهذا يدفعنا إلى النظر في تاريخ لاحق لخروج "بني إسرائيل" من «مصر»، وغزو «أراضي كنعان»[٢].

---

[١] وقد كان "الهكسوس" قبائل آسيوية قادمة من الشمال، وقد انتصروا في البداية. ولكن "المصريين" طردوهم فيما بعد. [المراجع].

[٢] وسنعرض لهذا الموضوع في مكان لاحق، بالإضافة لعرضنا السابق.

الباب الأول

الفصل السادس

موسى والقوانين المعاصرة

موسى والقوانين المعاصرة

من العسير على الباحث، اليوم، أن يتتبع بدقة علمية كاملة للطريق الذي أتخذه شعب "إسرائيل" في خروجهم من أرض «مصر»(١). مع أن المراحل الأولى للرحلة نستطيع بسهولة أن نعرفها. فالوديان والينابيع التي عرفها الشعب ما زالت كما هي. بل أن بعض العلماء يقولون إن اسم «البحر الأحمر» "Red Sea" مأخوذ من كلمة "Reed" ومعناها "بحر الغاب"، لأن في بعض مناطقه تكون المياه ضحلة، والقاع ينمو به الغاب، حتى أن أي ريح شديدة كفيلة بأن تجعل المياه تنحسر إلى جانب، ويظهر قاع البحر بسهولة، فيستطيع الإنسان أن يعبره(٢). ولكن هناك اعتراضات وجيهة ضد هذا التفسير؛ لأنه لا يتفق مع شهادة الوحي، وكذا تفاصيل القصة كما وردت في التوراة. فإن كانت الريح هي التي سببت ظهور اليابسة في قلب البحر؛ فلماذا غرق

---

(١) من أفضل الكتب في هذا الموضوع كتاب "جيمي هوفماير"، واسمه "إسرائيل في مصر"، والذي يقدم الأدلة التي توضح طريق الخروج من «مصر»، وهو نفسه قد سافر إلى «سيناء» وقضى أوقاتاً طويلة في البحث والتنقيب قديماً وحديثاً. حتى إبريل ٢٠٠٠ ، واكتشف أن هناك تغييرات جغرافية قد حدثت عبر القرون. [المُراجع].

(٢) وهذا تفسير ينتمي إلى بعض المدارس اللاهوتية العصرية Libralism لمعجزة شق البحر الأحمر، وعبور بني إسرائيل فيه. [المُراجع].

فـرعون وجـنوده بعد ذلك؟! وما معنى تأكيد الوحي بأن المياه كانت مثل سور من هنا ومن هناك؟![1]

عـلى أن تفسـيراً آخـر لإحدى المعجزات التي ذُكرت في سفر "الخروج" بالعهد القديم، يقدمه الكولونيـل "جـارفس" الحاكم البريطاني السابق «لسيناء»، (أيام الاحتلال الإنجليزي لمصر)، فيقول إن إحـدى فـرق الهجّانـة التابعة له، كانت تُعسكر في الصحراء في إحدى المناطق الصخرية، حينما عـثر أحد أفرادها على سلسال من الماء، يقطر من أحد الصخور، فبدأوا يحفرون حول المكان، ولكن ضـربة طائشـة من أحد الجنود، جعلت الصخرة تندفع إلى أعلى بقوة ينبوع صاف متفجر – بنفس الطريقة التي وصفت بها معجزة تفجر الماء من الصخرة في سفر الخروج (١٧ : ٦).

ولكـن بقـي لـنا أن نسـأل الكـاتب: هـل ضـربة فأس ثقيلة، توازي لمسة عصا كان "موسـى" يـرعى بهـا الغنم؟! على كل حال. هذا يُثبت أن هناك ينابيع في الصحراء مستترة تحت قشرة من الحجر الجيري.

ثـم نـأتي الآن إلى الـنقطة الجوهـرية في هـذا الفصـل، وهـي "نـاموس موسى"، وصِلته بالقوانين المعاصـرة، وكيف ومتى وصل إلينا. والكتاب المقدس يذكر الطريقة التي أعلن بها الله ناموسه في البرية "لموسى". ولكن بعض العلماء نادوا بأن هذه النواميس تعود إلى فترة لاحقة في الزمن، عدا الوصايا العشر عـلى وجـه الـتقريب، لأن "الإسـرائيليين" لم يكن معروفٌ عنهم أنهم يقرأون أو يكتبون، كما أن مثل هذه الوصايا تشير إلى حضارة وتقدم علمي لا عهد به لقبائل بدائية هاربة في الصحراء، عملها هو رعاية الغنم! ولكن علم التنقيب عن الآثار قد قدّم لنا الكثير من المعونة في هذا الأمر.

ولعـل أهـم كشـف يُـلقي ضوءاً عـلى "نـاموس موسـى" أُكتشـف في «إيران» في مكان خرائب «شوشـن»، عـلى يـد العـالم الأثـري الفرنسـي "جـاك دي مورجان". ففي عام ١٨٨٤م. أسفر بحثه

[1] لـلمزيد: اقـرأ عن فكر المدارس اللاهوتية العصرية Liberalism في موسوعة: " المذاهب المنحرفة"، للشيخ رأفت زكي- دار نشر لوجوس ١٩٩٩ [المُراجع].

وتنقيبه عن اكتشاف بقايا قصر شوشن من أيام مملكة فارس. ودار الظن حول هذا القصر على أنه هو الذي ذُكر في قصة "أستير" بسفر أستير. وهنا، واكتُشفت كمية ضخمة من الكنوز الاثرية والمخطوطات احتلت غرفتين من متحف اللوفر بباريس. ومن عام (١٩٠٠- ١٩٠٢م.) قام "د ي مورجان" بحملة تنقيبية أخرى، أسفرت عن اكتشاف بقايا حجر، خُط عليه قانون قديم هو قانون "حامورابي" ملك «بابل».

❑ "حمورابي" نقلا عن صورة منقوشة على لوحة من حجر، ويبدو في اليمين نموذج من كتابة ذلك العصر.

ولقد كان الاعتقاد السائد أن "حامورابي" قد ملك حوالي عام (٢٠٠٠ ق.م.)، ولكن الاكتشافات الحديثة في منطقة "ماري" على ضفة نهر «الفرات»، قد تقدمت بمُلكه من عام ١٧٢٨ إلى ١٦٧٦ ق.م. وهناك لوحات كثيرة تشير إلي أن "حامورابي" قد قام بتوحيد «بابل»، وبإرساء قواعد إمبراطورية عظيمة امتدت إلى شواطئ «البحر الأبيض المتوسط»، كما تتحدث عن مقدرته الكاملة في إدارة شئون المُلك. ولقد قام ببناء «بابل» من جديد، بطرقات مُنسقة مستقيمة، وفي لوحة أخرى يتحدث عن السنة الثانية لملكه وكيف أرسى قواعد ثابتة للعدالة، بجمع القوانين التي كانت سائدة من عهد السومريين

إلى تـاريخ مُـلكه، وتنظـيمها وتبويبها. ولقد جُمعت هذه القوانين، وسُطِّرت على عمود جميل من مادة "الديوريت" ارتفاعه سبعة أقدام. وسطح قاعدته ستة أقدام.

❑ لوح حجري يمثل الملك "حمورابي" واقفاً أمام الإله "شمش".

ويحـتوي "قـانون حمورابـي" عـلى ٢٧٧ مـن البنود، سُطرت في ٣٦٠٠ من السطور. والصورة المنشـورة هـنا تمـثل "حامورابي" واقفاً أمام الإله "شمش" إله العدالة والقانون، والإله يقدم إليه تلك القوانـين مـع السـلطان الإلهـي للحكم، في صورة عصا أو صولجان وخاتم ثمين. وهي رموز للعدالة والمُلك، والأشعة النورانية تشع من كتفي الإله.

أمـا مقدمـة القـانون، فهي تقول بأن الآلهة قد أسندت إلى "حامورابي" مهمة إقامة دعائم البرِّ في الأرض، ونصـرُ الفقـير والمظلوم، ثم يتبع ذلك ملخص للعادات السائدة في ذلك العصر، والقوانين السـارية والدواعـي التي دعت إلى سنها، والتمسك بها. أما الجزء الأول من مجموعة هذه القوانين، فموضـوعه الممتـلكات الخاصـة والمهـنية والـتجارية. والجزء الثاني يختص بالأسرة، والصلات بين

الأفراد، وتشريعات العمل والعمال. والمشابهة بين "قانون حامورابي"، و"ناموس موسى"، ظاهرة لدى مقارنة بعض البنود.

في "سفر الخروج"

- في الآية (٢١: ٢): "إذا اشتريت عبداً عبرانياً، فستَّ سنين يخدم وفي السابعة يخرج حُراً مجاناً".
- في الآية (٢١: ١٥): "من ضرب أباه أو أمه يُقتل قتلاً".
- في الآية (٢١: ١٦): "من سرق إنساناً وباعه أو وُجِدَ في يده يُقتل قتلاً".
- في الآية (٢١: ٢٣-٢٤): "إن حصلت أذية تعطي نفساً بنفس، وعيناً بعين، وسناً بسن، ويداً بيد، ورجلاً برجل".
- في الآية (٢١: ٢٦): "إذا ضرب إنسان عين عبده، أو عين أَمته، فأتلفها يُطلقه حراً عِوضاً عن عينه".
- في الآية (٢١: ٢٨): "إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة فمات، يُرجم الثور ولا يؤكل لحمه، وأما صاحب الثور فيكون

في "قانون حامورابي"

- (البند ١١٧): "إنْ اضطر واحد إلى بيع زوجته أو ابنه أو ابنته أو نفسه، وفاء لدين أو لأي أمر آخر، فإنه يخدم في بيت سيده أو دائنه ثلاث سنوات، وفي الرابعة ينال حريته".
- وفي (بند ١٩): " إن ضرب ابن أباه، تقطع يده".
- وفي (بند ١٤): "إن سرق سيد، الابن الصغير لسيد آخر، فإنه موتاً يموت".
- وفي (بند ١٩٦ و١٩٧): "إنْ قلع سيد عين سيد آخر من الأشراف تُقلع عينه. وإن كسر عظماً من عظامه يُكسر عظمه".
- وفي (بند ١٩٩) "إن قلع سيد عين واحد من العامة أو كسر عظمة ، يعطيه "مناً" من الفضة".
- وفي (بند ٢٥٠) "إن نطح ثور، وهو في الطريق، سيداً إلى الموت، فلا عقوبة على صاحبه".

يؤكل لحمه، وأما صاحب الثور فيكون بريئاً".

- في الآية (٢١: ٢٩): "ولكن إنْ كان ثوراً نطَّاحاً من قبل. وقد أُشهد على صاحبه ولم يضبطه، فقتل رجلاً أو امرأة، فالثور يُرجم، وصاحبه أيضاً يُقتل".

- وفي (بند ٢٥١) "إنْ كان ثور السيد نطّاحاً وقد أشهد عليه مجلس أشراف المدينة أنه نطّاح، ولكنه لم يربط قرونه، أو يحجزه، فتسبب في نطح أحد الأشراف إلى موت، فعليه أن يدفع نصف "مناً" من الفضة".

- في الآية (٢٢: ٣،٢،١،٤): "إذا سرق إنسان ثوراً أو شاة فذبحه أو باعه يُعوِّض عن الثور بخمسة ثيران، وعن الشاة بأربعة من الغنم .... إن لم يكن له يُبع بسرقته .... إن وجدت السرقة في يده حيةً ثوراً كانت أم حماراً أم شاة يُعوِّض باثنين".

- في (بند ٨) "إن سرق سيد ثوراً أو شاة، أو حماراً، أو خنزيراً، أو عنزاً، فإن هذه إن كانت ملك المعبد يدفع تعويضاً عنها ثلاثين مرة. وإن كانت لمواطن يدفع له عشر مرات قدرها، وإن لم يكن للّص ما يعوض به، موتاً يموت".

- في الآية (٢٢: ٢) "إنْ وجُد السارق وهو ينْقب فضُرب ومات فليس له دم".

- وفي (بند ٢١) "إن أحدث سارق نقباً في بيت، موتاً يموت أمام النقب. ويُدفن في جوار البيت".

على أنه بالمقارنة مع القوانين السائدة اليوم، نجد بنوداً في "قانون حامورابي" قاسية للغاية. فهناك اثنان وثلاثون جريمة حددت لها أقصى عقوبة: فعقوبة الإحراق واجبة لكاهنة المعبد إن فتحت محلاً لبيع النبيذ، وكذلك لمن يُضبط وهو يشعل النار في ممتلكات غيره. وعقوبة الموت غرقاً واجبة لمن يغش في الخمور، أو يرتكب الزنا، أو إذا هجرت الزوجة بيتها أثناء غياب

زوجهـا. ومن تتسبب في موت زوجها تُحرق حيَّة[1]. وتشويه الجسد أيضاً كان عقوبة سارية لبعض الجـرائم الخفيفـة: فالعبد الـذي يـؤذي ابن سيده تُقطع أذنه، ومن قلع عيناً تفقأ عينه، والطبيب الذي يخطئ في عملية طبية ويتسبب في موت المريض تُقطع يده، ولسان النمَّام يُقطع.

وعـدا هـذا، فهـناك فـروق كـثيرة بـين "قـانون حـامورابي"، و"نـاموس موسـى". "فقـانون حـامورابي" قـانون مدنـي، ولا يمس الأمور الدينية إلا من بعيد، ولكن "ناموس موسى" قواعد تقود الإنسـان إلى وصـايا إلهيـة. ومـثل هـذه القوانـين المدنيـة كـانت موجودة في دول الشرق الأدنى قبل مجيء "موسى" بقرون طويلة[2].

وهـناك أيضـاً اكتشـاف آخـر عـلى جـانب عظيم من الأهمية، اكتُشـف في «سورية» في منطقة «رأس الشـمرة»[3] عـام ١٩٢٨، حيـنما كـانت فلاحـة تحـرث حقـلها على بعد عشرة أميال شمال «اللاذقيـة»، فاصـطدمت أسـلحة المحـراث ببـناية أثـرية، فأُرسـلت الـتقارير العاجلة إلى الهيئات العـلمية في «بـيروت»، وبـدأت أعمـال الحفـر والتـنقيب في العـام التالي، وأسفرت عن كشف بقايا مديـنة «أوجـاريت» القديمـة التي تأسـست عام ٢٠٠٠ق .م. وكانت مركزاً مزدهراً للتجارة والثقافة، في القـرن الخـامس عشـر قـبل المـيلاد، وأقـرب المـوانئ لجزيـرة «قبرص»، وملتقى الطرق التجارية للشرق الأدنى.

عـلى أن أهـم اكتشاف عثر عليه العلماء بين خرائبها، هو مكتبة في بناء يُعتقد أنه كان مدرسة للكهـنة والكتـبة. عُثر فيها على مئات من الألواح المكتوبة بالخط المخروطي، بتسع لغات مختلفة. وتذكـر هـذه الألـواح الكـثير مـن المعـلومات عـن "الحوويـين"، و"الحيـثيين"، و"العبرانيين"، وقد

---

(١) وهي عادة أو قانون كان يطبق في «الهند» قبل دخول المسيحية إليها. [المُراجع].

(٢) لذلك لا داعي للتخمين عن تاريخ لا حق "لناموس موسى". [المُراجع]ز

(٣) وفي نفـس المـنطقة اكتُشـفت جـثة شـخص اسمـه "يوحـنان" تم صـلبه تقريـبا في نفس وقـت صـلب المسيح. [المُراجع].

خُرِّبت هذه المدينة حوالي عام (١٤٠٠ ق.م.). في نفس الوقت الذي تشير فيه الرسائل المكتشفة في «تل العمارنة» عن هجمات "العبيرو". والألواح يتراوح طولها من بوصة ونصف، إلى عشر بوصات، ومن ضمنها قواميس لغوية بلغتين، وتتضمن دروساً في الحساب والمعاملات التجارية،[1] والخطابات، وفقه اللغة، والترانيم الدينية... إلخ.

ومن بين الألقاب التي خُلِعت على إله من الآلهة التي ورد ذكرها، إله أعظم، باسم "إيل". وقد تكرر ذكر لقب "إيل" إشارة إلى "الله" مراراً في سفر التكوين بالعهد القديم، وكذلك في أسماء بعض الأماكن والأشخاص، فهناك «بيت إيل» أي بيت الله. وهناك أيضاً "فنوئيل" أي: (وجه الله). وبين اللوحات المكتشفة لوحة تمثل الإله "إيل"، وأمامه ملك "أوجاريت" يقدم ذبيحة وقد حاول بعض العلماء، أن يُثبت بذلك أن لقب الجلالة "إيل" الذي يتردد في التوراة، منقول عن تقاليد هذه القبائل الوثنية. ولكن ينبغي ألا ننسى أن اسم "إيل" تردد على لسان يعقوب قبل تاريخ خراب "أوجاريت" بأربعمئة عامٍ، حينما كان هارباً في البرية، وصارعه الملاك حتى مطلع الفجر، فسمى المكان «بيت إيل» (تك ٣٥: ٧).

يرى بعض العلماء أن قصة "يعقوب"، وصراعه مع إلهه، قد ذاعت بين تلك القبائل، فنُسجت التقاليد ونُظمت الشعائر لعبادة الإله "إيل"، ورُفع إلى مقام أعظم فوق كل الآلهة. "**وبنى هناك مذبحاً ودعا المكان إيل بيت إيل. لأن هناك ظهر له الله حين هرب من وجه أخيه**".

ومع أن بعض المواصفات للذبائح قد وردت ضمن هذه التقاليد الدينية، مثل ذبيحة الخطية، وذبح عجول وحمل بلا عيب، وذبيحة الترديد، وتقدمه أبكار المحاصيل والثمار، ومثلها قد ورد في سفر اللاويين؛ إلا أنه قد ورد أيضاً ضمنها تقليد ديني لاستدرار مياه الأمطار بقَلْيِ جدي في لبن أمه، وهو الأمر المنهي عنه في التوراة (خر ٢٣: ١٩).

وهناك أيضاً إشارة في لوحة أخرى إلى أن "بعل" هو ابن "إيل". ومع أن بعض العلماء قد

(١) وكانت هذه المواضيع بثلاث لغات.

حاول أن يُخطيء تاريخ ما ورد في سفر الملوك الأول (١٨ : ١٩)، عن عبادة البعل "عشيرة"، ويعود به إلى فترة لاحقة في التاريخ، إلا أن هذا الاكتشاف يُرينا أن عبادة البعل كانت سائدة قبل كتابة سفر الملوك بمئات السنين.

وقد وردت أيضاً عبارة عن شخص يُدعى "دان إيل"، وهو "بطل شهم يقيم العدالة للأرامل واليتامى". ولعل هذا الاسم هو الذي ورد اسمه ضمن أسماء الأبرار الثلاثة في سفر "حزقيال" (١٤ : ١٤-٢٠) ، وهو غير كاتب سفر "دانيال" الذي كان معاصراً للنبي "حزقيال"، كما يؤكد ذلك بعض المفسرين للكتاب المقدس.

إن اكتشاف مخطوطات "أوجاريت"، مثل اكتشاف "قانون حامورابي"، يُلقي أضواءً كثيرةً على تواريخ النواميس التي وردت في "أسفار موسى الخمسة"، فلقد كان يُظَن أن النواميس والتقاليد الدينية والنُظم الواردة في "أسفار موسى"، قد تطوّرت خلال حِقب طويلة بعد "موسى"، ثم جُمعت بعد ذلك، وأن "موسى" ليس كاتب تلك الأسفار. ولكن من اكتشاف «رأس الشمرة» نرى أن بعض تلك التقاليد كانت معروفة وسائدة قبل مجيء "موسى". وربما استعان بها "موسى" بعد أن خلّصها من شوائب العبادة الوثنية في تنظيم عبادة الإله الواحد. وهناك خلافات كثيرة بين تلك التقاليد وبين ما ورد في التوراة، لتُرينا أنها ليست هي المصدر الذي استقى منه "موسى" كل الفرائض والوصايا والشعائر الدينية، وأن المصدر لابد أن يكون الوحي الإلهي لا سواه.

وكما أن هذه الاكتشافات قد ألقت ضوءاً كبيراً على ما ورد من الشعائر والشرائع في "أسفار موسى"، فإنها أيضاً قد كشفت لنا معنىً جديداً من معاني العهد في القديم، وعن صلات العهد. فلقد أسفر اكتشاف بنود معاهدات عالمية عُقدت بين دول «آسيا» في الألف الثاني قبل الميلاد، عن توضيح معنى العهد الإلهي بين "يهوه" وبين "شعب إسرائيل"، وعن ماهيته، ومداه، ومتضمناته. وهو العهد الذي قطعه الرب مع شعبه في عصر "موسى"، وقد جعل أحد كبار الثقات في الغرب مثل هذه العهود، أو المعاهدات موضوعاً لدراسته. فقال إن المعاهدة على نوعين: معاهدة بين طرفين متكافئين في القوة، ومعاهدة حماية بين طرف قوي وطرف ضعيف. هذا النوع الثاني يمثل

العهـد بـين الله وبـين شعبه، إنه ليس معاهدة، بقدر ما هو عهد ووعد بالحماية والرعاية، عهد له كـل الأصـول القانونيـة المُـلزمة للوفاء وتتميز به – كما يؤكد هذا العالِم، استناداً إلى دراسة مستفيضة لمعاهدات الحماية التي وردت في القديم. وهذا واضح في ست خطوات:

الخطـوة الأولى، يـبدأ بالقول: "هكذا يقول الملك العظيم". قارن هذا بما ورد في سفر الخروج (٢٠: ٢،١) حينما يتحدث "يهوه" القدير عن ذاته قائلاً: **"أنا الرب إلهك"**.

الخطـوة الثانية، تُذكـر فيهـا لمحـة تاريخيـة عـن رعاية الملك السابقة لذلك الشعب، وعن إحسـاناته السـابقة لهـم. قـارن هذا بما ورد بعد ذلك في سفر الخروج (٢٠: ٢) **"الذي أخرجك من أرض مصـر مـن بيـت العـبودية"**. وكذلـك مـا ورد في سـفر "يشـوع: (٢٤: ٢–١٣) الـذي يقـدم تفصيلاً تاريخياً لأعمال يهوه منذ دعوته "لإبراهيم" إلى إخضاع قبائل "كنعان".

الخطـوة الثالـثة، يطالب فيها الملك، في موضوع حمايته، أن يمتنع عن عقد أي حلف أو أي معـاهدة أخـرى مـع أيـة دول غريـبة. وهكذا يتطلب الرب من "إسرائيل" ألا تكون لهم صلة بآلهة أخـرى أمامـه، سـفر "الخـروج" (٢٠: ٣،٣٤: ١٤)، سـفر "يشـوع" (٢٤: ١٤)؛ حتى يتم بنود عهده لهم.

الخطـوة الـرابعة، تقتضـي أن يوضـع مخطـوط ذلـك العهد في مكان أمين في خزانة المقدس، ويُتـلى في مسـامع الشـعب على فترات. وهكذا وضع "موسى" مضمون الناموس، في لوحي الحجر، في حفـظ الكهـنة الذيـن كانوا يحرسون تابوت الرب. وكان أمر الرب: أن يُقرأ مضمون الناموس كل سبع سنوات في مسامع الشعب.

وفي سفر "الخروج" (٢٥: ١٦،٣١) نقرأ أن اللوحيْن قد وُضِعا في تابوت العهد.

الخطـوة الخامسـة، دعـوة الآلهـة الآخـرين، ليكونوا شهوداً على العهد، وعلى من تسلموه، ومـع أن هـذه الخطـوة لاوجـود لهـا في العهد الأبدي بين الإله الواحد وبين شعبه، إلا أننا نرى في

سفر "يشوع" (٢٤ : ٢٧،٢٢) نظيراً لهذا، حينما يُدعى جميع الشعب ليكون شاهداً على نفسه (إسرائيل)، وفي فترة لاحقة في عصور الأنبياء، نجدهم يدعون السماء والأرض لتكون شاهدة على خيانة وتمرد "إسرائيل" كما في سفر "إشعياء" (١ : ٢)، وسفر "ميخا" (٦ : ٢).

الخطوة السادسة، وهي الخطوة الأخيرة، تختتم العهد بقائمة من اللعنات التي تحل على من يتحدى بنود هذا العهد، وسلسلة من البركات تأتي لمن يحفظ العهد. انظر سفر "الخروج" (٢٣ : ٢٠-٣٣)، وسفر "لاويين" (٢٦ : ١-٤٦؛ ٢٧ : ٢٨) حيث تُذكر اللعنات والبركات بكل تفصيل.

وهكذا ... كشفت لنا الآثار عن معنى العهد الإلهي بين "يهوه" وشعبه، وعن خطواته، ومتضمناته، وكما قال العالم "د./ ألبرايت": "إن تاريخ شعب "إسرائيل" هو تاريخ عهد مجيد بين إله وبين شعب، فالعهد يدخل إلى كل تفاصيل ومتضمنات حياة ذلك الشعب أدبياً، ودينياً وسياسياً.

الباب الأول

الفصل السابع

افتتاح كنعان - الحثيون - زمن القضاة

افتتاح كنعان - الحثيون - زمن القضاة

إن بقايا مدينة «أريحا» التي سقطت أسوارها تُعد من أقوى الأدلة الأثرية على صحة الكتاب المقدس. فمكانها معروف، حيث يبدو مثل كتلة ضخمة من الأتربة والطوب والأحجار، ارتفاعها سبعون قدماً، وتحتل أكثر من ستين ألفاً من الأمتار المربعة. وبسبب موقع ينبوع متدفق بالقرب منها، وبسبب موقعها كمدخل «لفلسطين»؛ فلقد كانت عُرضة للغزو منذ العهود السحيقة في القِدم. ولقد تنبه العلماء إلى قيمتها الأثرية في الآونة الأخيرة فقط، وابتدأت أعمال الحفر تدور هناك خلال الأعوام الماضية. ولقد دلت هذه الأعمال على أن «أريحا» هي من أقدم مدن العالم، وأن أسسها الأولى يرجع وضعها إلى عام (٦٨٠٠ ق.م.).

ولقد اكتشف "د./ جون جارستانج" جعارين أثرية في مقابر المدينة، وسبَّب هذا جدلاً وحيرة بين العلماء، فكيف يمكن أن تُكتشف جعارين يرجع تاريخها إلى (١٥٠٠ ق.م.)، في قبور يمتد زمنها إلى (٢٣٠٠ ق.م.)؟! ولكن إذا تركنا هذه المشكلة ليبحث العلماء سرها. فإن كل مواصفات المدينة تتفق تماماً مع ما ورد في سفر "يشوع" (٢: ١٥). فقد كان يحيط بالمدينة جداران يتصلان من أعلى بوصلات عرضية مُقام عليها منازل سكنية، والجدران الآن ساقطة على الأرض في مكانها، وليست غائصة إلى أسفل. وهناك مدخل واحد للمدينة (يش ٢: ٥-٧). والمدينة كلها محروقة بالنار، كما يتضح ذلك من طبقة الرماد وبقايا الأخشاب المحترقة (يش ٦: ٢٤). ولكن الدلائل كلها تشير إلى أن المدينة لم تُنهب قبل إحراقها، فالقمح والعدس والبصل والبلح - كلها وُجدت في صوامع من

الطين، حتى العجين اكتشف في أوانيه، لأن "يشوع" قد حرَّم أخذ أي شيء من المدينة (يش ٦: ١٧–١٨).

وأخيراً. تشير الدلائل إلى أن المدينة المحترقة تُركت كما هي دون أن يُبنى فوقها أي بناء لعدة قرون. وهذا يتفق أيضا مع لعنة "يشوع" التي أثبتها على من يحاول إعادة بناء المدينة: "ببكره يؤسسها، وبصغيره ينصب أبوابها" (يش ٦: ٢٦، ١مل ١٦: ٣٤). ولقد ثبت أيضا أن خراب المدينة قد تم في حوالي نهاية القرن الخامس عشر ق.م. وهذا يتفق تماما وتقرير الوحي المقدس بالعهد القديم.

ويصف سفر يشوع أيضاً الحروب التي قام بها "الإسرائيليون" مع ممالك «كنعان» الخمس، في وادي «عجلون» (الأردن)، وكيف ساروا بجوار قلعة «جزر»، ولم يهاجموها، واتجهوا إلى «لبنة» على رأس «وادي إيلة» (يظن البعض أن قلعة «جزر» قد استولى عليها "سليمان الملك". وأثبتت أعمال التنقيب في «لبنة» أن القلعة كانت مأهولة منذ عام ١٣٠٠ ق.م. ثم استولى "يشوع" بعد ذلك على «قلعة لاخيش» الحصينة. والتنقيب هناك قد كشف عن سلسلة من المدن، الواحدة بُنيت فوق بقايا الأخرى. وهناك أيضاً اكتُشفت بقايا معبد وعظام ثيران وكباش، وحيوانات أخرى تبدو أنها قُدمت ذبائح للآلهة. ومعظم هذه العظام للكتف الأيمن للحيوان، كما ورد في مواصفات تقدمات السلامة في سفر "اللاويين" (٧: ٣٢، ٣٣): "والساق اليمنى تعطونها رفيعة للكاهن من ذبائح سلامتكم. الذي يقرب دم ذبيحة السلامة، والشحم من بني هارون، تكون له الساق اليمنى نصيباً". وفي «لاخيش» أيضاً اكتُشف جعران أثري عليه نقش اسم فرعون "أمنحتب الثالث"، مخلداً قصة قيامه بصيد وقتل أكثر من مئة أسد، في السنوات العشر الأولى لحكمه.

أما الأثر الذي يشير إلى تخريب القلعة، فهو سطور منقوشة على الجص باللغة الفرعونية، أرسلها أحد جباة الضرائب المصريين، كإيصال لاستلام شحنة من القمح مرسلة في سفينة، في السنة الرابعة لمُلك فرعون مصر، والدلائل تشير إلى أن ذلك، الفرعون هو "مرنفتاح". والسنة

الرابعة لملكه توافق عام (١٢٢٠ ق.م.)، وما دام هذا الأثر قد اكتُشف بين الرماد المحترق، فهو يؤكد بكل دقة تاريخ إحراق المدينة. زد على ذلك، ما اكتُشف في «تل العمارنة» من رسائل مرسلة من ملك أورشليم "عبدي هيبهْ" إلى فرعون مصر ، وذكر فيها أن «لاخيش» قد خرَّبتها قبائل "العبيرو".

وهنا نقف أمام مشكلة محيِّرة، فبين التاريخين لتخريب «لاخيش» ما يقرب من منتي عام. فالكتاب المقدس يتحدث عن إحراق «لاخيش» على يد "يشوع"، بأنه حوالي عام (١٤٠٠ ق.م.)، وهنا تشير دلائل على أن حريق هذه القلعة قد تم أيضاً عام (١٢٢٠ ق.م.). فأي التاريخيْن نصدق؟!

في الواقع، لا غنى لنا عن تصديق التاريخين. فقد تكون «لاخيش» قد أحرقت على يد فرعون "مرنفتاح" عام (١٢٢٥ ق. م.) بعد أن أحرقت عام (١٤٠٠ ق.م.) على يد يشوع، ويؤيد هذا الرأي الأثر الذي اكتُشف في «تل العمارنة»، والذي يفخر فيه فرعون بأن «إسرائيل» قد صارت خرباً و«فلسطين» كأرملة.

وأول ذكر نجده في الآثار لمدينة «عجلون» في "خطابات تل العمارنة"، حيث أرسل "عبدي هيبهْ"، يقول بأن قبائل "العبيرو" تزحف على «عجلون»، وأن قافلة من قوافله قد نُهبت.

وبعد أن انتهى "يشوع" من «لاخيش»، تقدم ليستولي على مدينتي «هيبر»، و«ديبر» التي عُرفت فيما بعد باسم «كَريات سفيرْ» أو (مدينة الكتبة)، وقد كانت مركزاً عظيماً للثقافة الكنعانية. وقد كشفت أعمال التنقيب هناك عن مدينة إسرائيلية، بين خرائبها جُعران أثري جميل، نُقش عليه اسم "أمنحتب الثالث"، أي أن المدينة كانت موجودة بين عامي (١٤٠٥–١٣٧٠ق.م). وقد اكتُشف أيضاً، تأييداً للنظرية السابقة[1]، أن تلك المدينة الإسرائيلية قد أُقيمت فوق خرائب مدينة محترقة بالنار من العصر البرونزي، أي حوالي (١٢٠٠ ق.م.).

(١) التي عرضنا لها في الحديث عن "لاخيش". [المُراجع].

وفي نهاية سفر "يشوع"، نجد وصفاً لمعركة بينه وبين حلف مكّون من ملوك شمال فلسطين، انتصر فيها "يشوع" بجوار مياه بحيرة «ميروم»، ثم تابع حملته وافتتح «حاصور» التي كانت رأس تلك الممالك كلها، وسبى شعبها بحد السيف، وأحرقها بالنار. وفي مكان «حاصور»، بدأ العلماء عمليات البحث والتنقيب حيث تبدو المدينة كتلة مرتفعة من التراب.

وفي الحقيقة، يرى السائح هناك مرتفعيْن يقعان على بُعد عشرة أميال شمال «بحر الجليل»؛ المرتفع الكبير يمثل خرائب المدينة، والمرتفع الصغير للقلعة المجاورة لها، وتحيط بها جدران ضخمة سمكها تسعون ياردة. ويقدّر البعض أن هذه القلعة كان في وسعها، في وقت الحاجة، أن تضم ثلاثين ألف مقاتل. ونجد لمدينة «حاصور» إشارات كثيرة في التاريخ القديم. فقد ذُكرت في أحد الآثار المصرية التي يرجع تاريخها إلى عام (١٩٠٠ ق.م.). كعدو جبار للإمبراطورية. واكتُشفت أيضاً في منطقة «ماري» رسالتان يرجع تاريخهما إلى عام (١٥٠٠ ق.م.)، وذكرت فيهما أيضاً اسم «حاصور». وكذلك ذُكرت المدينة ضمن قائمة المدن التي استولى عليها "تحتمس الثالث"، و"أمنحتب الثاني"، و"سيتي الأول". ومن ضمن الرسائل التي اكتُشفت في «تل العمارنة» ذكرت أربع منها اسم «حاصور». وفي سفر ملوك الأول (٩: ١٥) يذكر الوحي عن سليمان أنه أعاد بناءها. وفي سفر ملوك الثاني (١٥: ٢٩) يذكر أن "تغلث فلاسر" قد استولى عليها، ويؤكد ذلك ما اكتْشف في خرائبها، من دلائل تشير إلى أن النيران قد أتت عليها في النصف الأخير من القرن الثامن ق.م. كما اكتُشفت أيضاً زهريات من البازلت، والخزف الجميل المنقوش، لم يستطع أصحابها الهروب بها، دليلاً على فرار الشعب منها تحت تأثير خطر رهيب محدق.

الحثّيون

إن واحداً من أعظم تأكيدات صحة الكتاب المقدس هو ما كشفه التنقيب والحفر عن حقيقة

وجـود "الحـثيين"[1]. وهـنا، شـعب يظهـر اسمـه بـين الحـين والحين في العهد القديم، ولقد كان العـلماء إلى عهـد قـريب يشـكّون كـثيراً في وجـوده. ولكـننا في سـفر التكوين (٢٣: ١٠) نعرف عن "إبـرام" أنـه اشـترى قطعة من الأرض، كمقبرة له من "عفرون الحثيّ"، وفي نفس السفر (٢٦: ٣٥) يـتخذ "عيسـو" زوجـة لـه مـن "بـنات حثٍّ"، مما يسبِّب حزناً عظيما لأمه. وفي سفر "الخروج"، يُذكـر اسـم "الحـثيين" وسط قائمة الدول التي حاربها "العبرانيون". وفي سفر "يشوع" (١١: ١-٩) أنضـم "الحـثيون" إلى حـلف دولـي لـلوقوف في وجه زحف "الإسرائيليين"، وتنتهي قصة صراعهم بجـوار ميـاه «مـيروم». وفي سـفر القضـاة، نجـد مصـاهرة وتـزاوجاً يحدثـان بـين "العـبرانيين" و"الحـثيين". وفي سـفر "صـموئيل الأول"، (الأصـحاح ٢٦) ينضـم بعـض "الحـثيين" إلى جيـش "داود".

وفي عهـد "سـليمان"، يـتخذ مـنهم عـبيداً في مملكته، ويتصل بهم "اليهود". ولكن حتى زمن قريب، كان "الحثييون" أُمة منسيَّةَ غامضة لا يُعرف عنها شيء!

وأول صـورة اكتُشـفت عـن "الحـثيين"، وطـرق معيشـتهم، هـو مـا وُجِد ضمن لوحات الآثار المصـرية والآشـورية. ولقـد صـورهم الفـنانون القدامـى في ملامـح "الأرمـن"، حـتى أن بعض العلماء يقولـون بـأنهم الأجـداد القدامـى للجـنس الأرمني في العصر الحاضر. وتذكر إحدى اللوحات أخبار معـركة حاميـة بـين قـوات "رمسـيس الـثاني" وبـين "الحـثيين"، بالقـرب مـن «قادش» على نهر «الأورنـت» عـام (١٢٨٧ ق.م.)، وفي اليوم الأول للقتال انتصر "الحيثيون" على "رمسيس" وأسروه، ولكـن وصـول إمـدادات مـن مصـر رجَّحـت كفة قوات "فرعون"، وانتهت بدحرهم نهائياً! وكانت خسارتهم باهظة، حتى أنهم تآمروا على قوادهم وذبحوهم وهربوا إلى أراضيهم!

ومـن أبطـال الطـليعة في الكشـف عـن آثـار "الحثيين"، "د./ سايس"، العالِم الأثري، و"د./ وليـم ريـت" أحـد المرسـلين في "دمشـق". وقـد كان ميدان بحثهما غرب «آسـيا الصغرى» أو «تركيا

[1] وبمصر أيضاً. كان "الحثييون"، حيث صراعهم مع قدماء المصريين. [المراجع]

الحديثة». وقد ضَّمن "د./ سايس" اكتشافاته في كتابه الشهير "الحثييون قصة إمبراطورية منسيَّة". وفي عام ١٩٠٦ قام عالم آخر، وهو الدكتور"هيو ونكلر" بالبحث والتنقيب في منطقة «باغوص كيوي»، التي تقع على بُعد تسعين ميلاً شرقي «أنقرة»، فاكتشف عاصمة "الحثيين"، وبين خرائبها اكتُشفت كنوز من اللوحات المخطوطة باللغتين البابلية والحثية، وقد استغرق حل رمز اللغة الحثية وقتاً طويلاً، ولكن العلماء توَّصلوا إلى ذلك أخيراً.

وفي عام ١٩١١، بدأ العالم الأثري "سير/ ليونار ووُلي" مع "لورنس" الذي اشتهر فيما بعد "بلورنس العرب"، وكتب كتابه الشهير "أعمدة الحكمة السبعة"، بالحفر والتنقيب في منطقة "كركميش"، حيث اكتُشفت آثار كثيرة تتحدث عن إمبراطورية عظيمة تشمل مساحة «آسيا الصغرى» إلى حدود «الفرات». ولقد كانت هناك فترتان في حياة "الحثيين". امتدت فيهما حدود مملكتهم واتسعت الأولى في عهد «مملكة بابل»، إبان عظمتها وازدهارها حوالي عام (١٧٠٠ ق.م.)، والثانية من عام (١٤٠٠ – ١٢٠٠ ق.م.)، حيث ذُكرت في رسائل «تل العمارنة».

وأقدم معاهدة وقعت بين «مصر» و«الحثيين»، أُبرمت بين "رمسيس الثاني" فرعون «مصر»، و"هاتشيليش الثاني" ملك «الحثيين»، معاهدة سلام بين الدولتين، زادتها قوة زواج فرعون «مصر» من ابنة ملك «الحثيين»، وفي عهد "داود" النبي نقرأ عن معاهدة بين "داود" و"توى" ملك حَمَاةَ (٢صم ٨: ٩).

زمن القضاة

من الواضح أن فترة القضاة بالعهد القديم تكون فيها الأمة ضعيفة مفككة، لا تقدم الكثير من البقايا الأثرية للباحثين عن التاريخ. وهكذا كان "شعب إسرائيل"، في زمن القضاة، في كل مكان يتجه إليه معول الحفر، يشير إلى قوة وجبروت "الفلسطينيين"، وضعف "إسرائيل". وهذه هي الفترة التي انتهى فيها العصر البرونزي.

وبدأ العصر الحديدي، وفي «فلسطين» من (٤٠٠٠ – ١٢٠٠ ق.م.)، كان المعدن السائد في الأسلحة والمعدات هو النحاس، ولكن معدن القصدير أُضيف إليه قرب نهاية ذلك العصر ليكوّن البرونز. وقبل عام (١٢٠٠ ق.م.) كان الحديد معدناً نادراً تماماً كالذهب والفضة. وأقدم حدادين في الوجود كانوا "الحثيين"، وقد احتفظوا بسر اكتشافهم للحديد، وكانوا يصنعون منه أسلحتهم؛ مما أعطى جيوشهم تفوقاً على الغير. ومن التنقيب نعرف أنه، لمدة طويلة، كان لدى "الحثيين" مركبات حديد، وأسلحة من الصلب، لم تُتح "للإسرائيليين" نظيرها. وفي سفر "يشوع" (١٧: ١٦) يُبدي "الإسرائيليون" قلقهم الزائد من مركبات الحديد التي لأعدائهم. وفي سفر القضاة (٤: ٣) إشارة إلى ٩٠٠ مركبة حديد في جيش "سيسرا"، قائد جيش "يابين" ملك «كنعان». وبمقارنة بقايا "الفلسطنيين" ببقايا وخرائب المدن "اليهودية"، نجد الآلات والأدوات الحديدية في الأولى، بينما الثانية لا شيء بها من ذلك. وتدل بقايا المنازل أيضاً على فن رفيع في البناء في المنازل الفلسطينية، بينما المنازل "اليهودية" بدائية صغيرة منخفضة السقوف. وفي سفر "صموئيل الأول" (١٣: ١٩– ٢٢) من خلال النص: "**لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً**"، نعرف أنه لم يكن هناك حدادون بين "الإسرائيليين" .. وفي سفر "العدد"، نعرف أن "شاول"، و"يوناثان" كان لهما سيف ورمح، وكان هذا امتيازاً عظيماً. وهنا، نجد علم التنقيب يؤيد الوحي تمام التأييد.

وجدير بالذكر أيضاً، أن فن صناعة الأحواض المُحْكمة التي لا تتسرب منها المياه قد تعلمها "اليهود" شيئاً فشيئاً. وهذا أتاح لهم بناء المنازل في أماكن بعيدة عن الأنهار، اعتماداً على الأمطار الساقطة واختزانها فيها. وقد كانت طريقتهم في ذلك، وضع طبقة من الجبس داخلها. وفي هذه الأثناء، في أوائل القرن الثاني عشر ق.م، غزت المناطق الساحلية قبائل، كانت معظم حياة أصحابها في "البحر الأبيض المتوسط" على ظهور السفن، يتاجرون مع الجزائر التي به – هؤلاء هم "الفلسطينيون" ألد أعداء "اليهود". وقد زحف أولئك على المدن الساحلية أيضاً، واحتل الكثير منها، وما أن بدأ القرن الثاني عشر ق.م، حتى كانوا قد احتلوا الساحل بأكمله، واستولوا على «شيلوه» وعلى تابوت العهد. وقد جلب "الفلسطينيون" معهم أواني خزفية للشرب، لها فتحة في

نهاية جزء "مدبب" لسكب السوائل، لعلها من طراز إغريقي، وهي خاصة لترشيح البيرة من الرواسب. وقد اكتُشفت كميات كبيرة من هذه الأباريق؛ مما يشير إلى أنهم كانوا مُولعين بشرب الخمر.

وفي سفر "القضاة"، (قض١٦: ٢٣ ٣١) نقرأ أن "شمشون" كان نذيراً من بطن أمه لا يشرب الخمر، ولا يقص شعره، ولا يلمس جثة ميت. وفي إحدى الحفلات التي أقامها "الفلسطينيون" في «غزة»، حينما طابت قلوبهم بالخمر، أحضروا شمشون الأسير لتسليتهم، وقد كانوا جميعاً سكارى مما أعطى "شمشون" الفرصة للفتك بهم في دقيقة واحدة تحت أحجار المعبد. **"فكان الموتى الذين أماتهم في موته أكثر من الذين أماتهم في حياته"**(١٦ : ٣١) وهكذا، مرة أخرى، نجد أن علم التنقيب يؤيِّد الوحي تمام التأييد.

الباب الأول

الفصل الثامن

المملكة الموحدة

المملكة الموحّدة

يتحدث الوحي الإلهي، في سفر "صموئيل الأول" (الأصحاح ١٤)، عن "شاول" كأول ملك على «إسرائيل». وقد نال أول انتصار له على «الفلسطينيين» في «مخماس». وكان مركز قيادة الجيش في «جبعة». ولقد كشف التنقيب هناك عن بقايا قلعة حصينة في عهد "شاول". ومع أن بقاياها لا تعطينا فكرة واضحة عن مدى مساحتها، إلا أنه يمكن القول بأن مسطحها مساحته كانت ١٦٩ قدماً طولاً، و١١٤ قدماً عرضاً، وبناؤها بدائي بسيط، ولكنه قوي. وفيها اكتُشف الكثير من رؤوس السهام المصنوعة من البرونز، وحجارة المقاليع، مما يدل على حياة بدائية، وطرق أولية في الحروب. ولقد انتهى "شاول" وعهده على جبل «جلبوع»، حينما هزمه "الفلسطينيون"، وقُتلوا أولاده الثلاثة، وانتحر هو بسقوطه على حد سيفه. ثم قطع الأعداء رأسه، وعلقوه في هيكل الإله "داجون " (في بيت شان»)، وعُلقت أسلحته في هيكل "عشتاروث"، في نفس المدينة، بينما سُمر جسده على جداره، كما في "أخبار الأيام الأول" (١٠: ١٠).

وقد أسفرت أعمال التنقيب في "بيت شان" عن سلسلة متراكمة من خرائب المدن القديمة، لا نظير لها في تاريخ الآثار، إذْ بلغت ثماني عشرة طبقة يرجع أسفلها إلى عام (٤٠٠٠ ق.م.)، بينما يصل أعلاها إلى العصور الوسطى. وكان ارتفاع الخرائب تسعاً وسبعين قدماً، عندما بدأت أعمال الحفر. وفي الطبقة أو المدينة التي تشير الدلائل إلى أنها من عهد "داود"، اكتُشفت خرائب هيكلين يُرّجح أنهما للإله "داجون" و"عشتاروث"، وقد ورد ذكرهما في التوراة.

ولكـن بيـوت البـلدة وُجـدت محروقة بالنار. وربما قام "داود" بذلك انتقاماً من "الفلسطينيين" عـلى التمـثيل الوحشـي بجـثمان المـلك "شـاول". ولمـا مـات "شاول" وبنوه الثلاثة (١أخ ١٠: ٦)، اعتلى "داود" عرش المُلك.

وحـتى بدايـة مُـلك "داود"، كـانت مدينـة «أورشـليم» في أيـدي قـبائل «اليبوسيّين»، وكانت مديـنة هامة لقرون عديدة. أما الملك "عبدي هيبةْ" الذي ورد ذكره في فصل سابق، كواحد من ملوك «أورشـليم»، فقـد كـان مـن "بـني حـثْ"، وكـانت «أورشليم» في عهده عاصمة ملكه، وكان اسمها «اورسـاليم». ولُقِـب "عـبدي هيـبةْ" أو "عـبد هيـبةْ"، وهـو اسـم مـا يزال البعض في بلادنا العربية يـتخذونه حـتى يومـنا الحاضـر، ويعادل اسم "عبد الله". فقد كان "هيبةْ" أحد آلهة "الحثيين" — ومـا أروع تـلك الصـورة الـتي يقدمهـا لـنا الـتاريخ عـن مـلك مـن مـلوك "الحثيين" في "فلسطين"، يستنجد في ساعة الخطر بفرعون مصر، ويكتب رسائله بالخط البابلي المسماري، باللغة العقّادية!

وحيـنما جـلس "داود" على العرش، كان يهمه بطبيعة الحال أن تكون عاصمة مُلكة أقرب ما تكـون إلى القـبائل الشـمالية الـتي قابـلت وصوله العـرش بشـيء من الفتور والتردد، لذلك وجد أن «أورشـليم» هـي أصـلح مديـنة لهـذه الغايـة؛ لموقعهـا الجغرافي الحصين، ولقربها من الشمال. ولقد كـانت المديـنة بهـذا القـدر من المناعة، حتى أن "اليبوسيين" كانوا يفخرون بأن الأعمى والأعرج في إمكانهمـا الدفـاع عـنها. ومـع أن كلمة "قناة" الواردة في القول: **"وأخذ داود حصن صهيون — وقال ... إن الـذي يضـرب اليبوسيين ويبلغ إلى القناة ..."** سفر "صموئيل الثاني" (٥: ٦–٨) غامضة في الأصـل العـبري، حـتى أن الطـريقة الـتي احتل بها "داود" المدينة غير أكيدة تماماً، وكنا نستطيع أن نسـتنتج، اسـتناداً على ما جاء في إحدى ترجمات الكتاب المقدس، أن قوات "داود" وصلت إلى الداخـل عـن طـريق قـناة مائيـة تجـرى تحـت الأرض، وتصل إلى وسط المدينة، وربما قام بحفرها سـكان الـبلاد الأصـليون تحـت جـبل «صـهيون» لتوصـيل المياه إلى الداخل. وبالفعل، لقد اكتشف "سـير/ شـارلْ ورنْ" هـذه القناة، وهي على هيئة سرداب يبلغ طوله خمسين قدماً، يبدأ من الينبوع الـذي يُعـرف الآن «بينـبوع العـذراء» في «وادي قـدرون» إلى كهـف سـفلي. وفي نهاية هذا الكهف،

حفرة رأسية تندفع منها المياه لتصل إلى مسطح من الحجر، تستقي منه نساء المدينة. وهناك سرداب آخر يمتد بانحدار من ذلك المكان إلى أن يصل إلى داخل أسوار القلعة، حتى يتوفر لها الماء في زمن الحصار، ولعل قوات "داود" قد اكتُشفت مدخل الكهف، وتتبعت مجراه حتى وصلت إلى القلعة واحتلتها. ومع ذلك، فإن بعض علماء اللغة العبرية يُرَجح أن الكلمة المُترجمة "قناة" أو "ينبوع" في الإمكان استبدالها بكلمة "خُطّاف". ولعل المهاجمين قد تسلقوا جدران القلعة بواسطة الحبال والخطاطيف، واستولوا عليها.

وإذْ أصبحت «أورشليم» عاصمة ملك "داود" ومقر سكناه وقلعته الحصينة، صار من السهل عليه أن يوسِّع رقعة ملكه. ومع أن "داود" لم يكن مولعاً بالبناء، قدر ولعه بالحروب، إلا أنه اكتُشفت في تل «بيت مرسيم»، على بعد ١٥ ميلاً إلى جنوب «أورشليم»، بقايا قلعة يُظن أنها من عهد "داود". وكذلك اكتُشفت بقايا جدار الأوفيل جنوب الهيكل.

ولكن كيف استطاعت دولة وليدة ناشئة، «كفلسطين»، تحت حكم "داود"، أن تتسع بهذه السرعة بلا عقبات أو مقاومة!

هنا، يقِّدم لنا علم الحفريات الجواب. فحتى أيام رمسيس الثاني كانت «مصر» هي القوة الغالبة والمسيطرة في «فلسطين»، ولا تحتمل أن تسمح على الإطلاق بقيام دولة مستقلة هناك. ولكن بعد ذلك بسنين عديدة لم يعتلِ العرش الفرعوني ملك في قوة رمسيس فجميع الذين تولوا عرش الملك من بعده، كانوا آلات طيعة في أيدي الكهنة. واستشرى الفساد في الدولة، وساد عليها الضعف والانحلال. وما أن انتهى عهد الأسرة العشرين، وبدأ عهد الأسرة الحادية والعشرين، حتى كان الكهنة يسيطرون تمام السيطرة على كافة شئون الدولة، وانقطعت جيوش «مصر» عن أن تكون قوة ضاربة في ميادين الفتح والغزو. ولذلك لم يكن لها من القوة والسلطان ما يُمكّنها من الوقوف في وجه "داود" وفتوحاته.

وبالتالي، تكشف لنا الآثار، أيضاً، أن تلك الفترة كانت فترة ضعف وخمول، بالنسبة

لمملكتي «بابل» و«أشور». ومع أن "داود" كانت تواجهه القلاقل الداخلية والمؤامرات والانقسامات التي تميَّز بها عصره، إلا أنه لم يقدَّر له أن يقف وجهاً لوجه، أمام جنود «مصر» الجبارة، أو جيوش «بابل» و«أشور».

أما "الحيثيون" فقد كانوا أيضاً في حالة اضمحلال وانحلال . ومما هو جدير بالذكر أن كبيراً من قوادهم كان ضمن جيش "داود"!

كل هذه العوامل ضمنت "لداود" التقدم بجيوشه، وبسط سلطانه حتى شواطئ الفرات. وقد استطاع أن يسحق قوات «أدوم»، و«عمون»، و«الفلسطينيين»، و«عماليق». ووصل في انتصاراته إلى «صوبة» في الشمال، وهكذا أوقف الخطر الزاحف على أراضي «آشور» – ذلك الخطر الذي كان يتهدد تلك المملكة الضعيفة، حتى أننا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن بقاء مملكة «آشور»، يرجع الفضل فيه إلى انتصار "داود" على «صوبه»، وسحق قواتها.

وبعد داود اعتلى عرش المُلك ابنه "سليمان". وقد كان "سليمان" مولعاً بالبناء، وخلَّف لعلماء الآثار الكثير من آثاره التي اكتُشفت في «عجلون»، و«مجدّو»، و«جازر» – سفر "الملوك الأول" (٩: ١٥-١٩) – أما التنقيب في «مجدُّو» فقد أسفر عن نتائج هامة للغاية. فهو أوسع المجالات التي قام المنقبون بالحفر فيها. وقد بدأ التنقيب هناك عام ١٩٢٥ ، بقيادة فئة من أساتذة جامعة شيكاغو، واستمر لمدة عشر سنوات. واكتُشفت أنقاض أربع مدن الواحدة فوق الأخرى، يعود تاريخ ازدهارها إلى الفترة ما بين القرن العاشر إلى القرن الرابع ق.م. المدينة العُليا، وهي أحدث المجموعة، قد ثبت أنها من عهد مملكتي «بابل» و«فارس»، والتي تليها يرجع تاريخها إلى عصر «أشور». والمدينتان السفليتان أقيمتا بأيدٍ يهودية – الأخيرة منها، وهي الأكثر قِدماً، ترجع إلى عصر "سليمان". وقد اكتُشفت فيها إسطبلات واسعة لخيول الملك، وبقايا قصر لسُكنى "بعنه" حاكم المنطقة. والإسطبلات قوية البناء تتسع لأربعمئة من الخيول، أما قصر الحاكم فقد كان يتجلى فيه تأثير الفن الفينيقي، وهو فن حديث بالنسبة لذلك العهد. وقد اكتُشفت ما يماثله أيضاً في حفريات "جازر" على بُعد ثمانية عشر ميلاً شمال غرب «أورشليم».

وقد فرض "سليمان" على كل حاكم من الحكام الاثنى عشر الذين في مملكته، أن يقدم مؤونة للحاشية الملكية لمدة شهر من شهور السنة، وهكذا استلزم الأمر إقامة مخازن واسعة لاختزان هذه الضريبة المفروضة. وقد اكتُشف البعض من تلك المخازن في «بعنه»، في شكل حجرات واسعة للغاية، كما اكتُشف هناك بدروم سرّي يرجع تاريخه إلى عام ١٢٠٠ ق.م. أي إلى عهد "رمسيس الثالث" في «مصر». وهناك اكتُشفت مئتا قطعة من قطع العاج المُحلىً بالنقوش غاية في الجمال والروعة.

❑ إصطبلات سليمان في «مجدو» – وهي بالفعل تتسع لعشرة خيول.

أما عن هواية "سليمان" للخيول، فالكتاب المقدس يتحدث عنها في سفر "الملوك الأول" (٢٦ : ١٠–٢٩) و"أخبار الأيام الثاني" (١ : ١٤–١٧).

والإسطبلات في «مجدو» مقامة على عشرة أبعاد متساوية، ورسم موحّد(١)، وبها أعمدة حجرية ذات مرابط للخيول، وبجوارها مذاود من حجر. والأرض مرصوفة بصخور خشنة لتمنع

(١) أحياناً يُذكر عدد المذاود أو الإسطبلات، وأحياناً أخرى يُذكر عددها كأفراد. فيكون عشرة أضعاف العدد السابق. [المراجع].

الانـزلاق. وقـد اكتُشـفت نظائـر لهـذه الإسـطبلات في «بيـت شـان»، و«حاصـور»، و«تـنَّاق» [وهذا الاكتشـاف يدحـض الاعـتراض عـلى عـدد إسـطبلات "سـليمان"،على أنها مذكورة مرة بعدد يزيد عشرة أضعاف عن المرة الأخرى](٢).

وفي «جـازر» اكتشـف الأثـر الوحيـد المكـتوب مـن ذلـك العهد، وهو لوح من الحجر الجيري يـرجع تاريخـه إلى عـام ٩٢٥ ق.م، ويعـرف بـتقويم "جـازر". ويتكون من أبيات منظومة من النوع الخفيـف الـوزن، مُسَطراً عليها أنواع المحاصيل التي تُزرع في فصول السنة المختلفة. وقد ساعد هذا التقويم في معرفة تاريخ المزمور الثامن والعشرين، وبعض نبوات "بلعام".

أمـا عـن "هيكـل سليمان"، فقد خُرِّب أثناء السبي، ولم يُعثر له على أثر حتى الآن. غير أنه يمكـن القول بأنه لم يكن واضحاً. وربما لم يكن يزيد في مسطحه عن مئة قدمٍ طولاً، وعرضه ثلاثين قدمـاً، وكـان مبـنياً بالحجر المغُطى بخشب الأرز المطَّعم بالذهب. ومن الداخل، كان قدس الأقداس وبـه تـابوت العهـد، والكـاروبيم المظـلل. وفي الخـارج، كـان الهيكل. وفي الساحة الخارجية، كان هـناك «بحـر نحاسي»، وهو عبارة عن "فسقية" صناعية من النحاس المطروق، ارتفاعها سبعة أقدام ونصـف قـدم، واتسـاعها خمـس عشـرة قدمـاً، وربمـا كـان وزنها ثلاثين طناً من النحاس أو يزيد. واكتُشـف أيضـاً عمـودان عـلى هيئة حيوان "الماموث"، كانا أمام المدخل. أما البحر النحاسي، فقد قـام بصـنعه عمـال فـنيون أرسلهم (خصيصاً إلى وادي الأردن) "حيرام" ملك «صور». وقد ثار الكثير مـن الجـدل بـين العـلماء، عن نظام الهيكل، والصورة التي كان عليها. ولعله من الأمور التي تعيننا عـلى تخيـل مـنظره، اكتشـاف بقايا هيكل آخر يرجع إلى ذلك العهد، في مكان آخر. ومع أن هذا لم يحـدث بصـفة قاطعـة إلى الآن، إلا أن أعمـال التـنقيب في «تل تينات» في «سوريا»، قد أسفرت عـن بقايـا هيكـل يشـبه في تفاصيله «هيكل سليمان» – وفي المدخل، بقايا عمودين وحجرة خارجية

(٢) فيكـون هـذا الاعـتراض مجـرد شـبهة وهمية (راجع: كتاب "شبهات وهمية حول الكتاب المقدس" – كنيسة قصر الدوبارة الإنجيلية). [المُراجع].

ضخمة تؤدي إلى حجرة داخلية، أو قدس الأقداس. ويرجع تاريخ هذا الأثر إلى القرن الثامن ق.م، ومنه نستطيع أن نكوّن فكرة عما كان عليه «هيكل سليمان».

وقد عقدت معاهدة بين "حيرام" ملك «صور»، وبين "سليمان"، بمقتضاها تَّم بناء أسطول من السفن في ميناء «عصيون جابر» على «البحر الحمر» لنقل الأخشاب والحاصلات. وهناك اكتُشف أكبر مسبك للمعادن في الشرق كله، وفيه كان يُصهر خام النحاس، والحديد. وبالقرب من المكان، كانت تقوم مخيمات للعمال من العبيد. وقد صُمم هذا المسبك في وضع يجعله يستفيد إلى أقصى الحدود من اتجاه الرياح التي تهب في وادي نهر "عربة".

وفي سفر "التثنية" (٨: ٩) يتحدث الوحي الإلهي إلى "الإسرائيليين" على أنهم سيمتلكون أراضي تحوي في تربة تلالها المعادن. وتأييداً لذلك الأمر، اكتُشفت بقايا مناجم كثيرة على جبال «أدوم»، و«عربه». وهذا يُبيّن لنا أن الأرض التي تبدو اليوم جرداء قاحلة، كانت بها مئات المدن الغاصة بالسكان. وكانت خامات المعادن، تُستخرج من المناجم، وتُرسل إلى «عصيون جابر» لتنقيتها وصهرها.

ولكن هذه المشروعات العمرانية الجبَّارة التي قام بها "سليمان"، اضطرته إلى الاستدانة من "حيرام" ملك «صور»، ولم يجد مخرجاً له من ديونه إلا أن يبيع له عشرين مدينة من مدن «الجليل». كما أنها اضطرته أيضاً إلى فرض ضرائب باهظة على الشعب، دفعت بالشعب إلى الثورة والتمرد على خلفه "رحبعام". وقد أرسل الشعب مندوبين عنه إلى "رحبعام"، يرجونه أن يخفف من حِمل الضرائب التي ترهق كاهلهم. ولكنه كان متهوراً، فاتبع مشورة حاشيته من الأحداث المتحمسين، وأجابهم جواباً غليظاً؛ سببَّ خروج عشرة أسباط عليه. ولم يبقَ مؤيّد له سوى سبطين اثنين: "سبط بنيامين"، و"سبط يهوذا". وهكذا بدأ الانحلال يدب في إمبراطورية "الملك سليمان" العظمى، خاصة وأن الدول المحيطة بها كانت قد بدأت تستيقظ من سباتها، فصعد "شيشنق" فرعون مصر من الأسرة الثانية والعشرين، وغزا «أورشليم»، وحمل معه كل الكنوز التي كدَّسها "سليمان" الملك، كما في سفر "الملوك الأول" (١٤ : ٢٥-٢٦). وفي هذا، تؤيد الآثار

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

الوحي المقدس كل التأييد. فهناك على جدران «معبد الكرنك» سجَّل "شيشنق" وصفاً ضافياً لانتصاراته على "الإسرائيليين" عام (٩٢٠ ق.م.) في إحدى اللوحات هناك، حيث ظهر رسم للإله "آمون". وهو يسحب خلفه صفاً من الأسرى المقيدين بحبل واحد، تدل ملامحهم على أنهم من «العبرانيين»، وفوق هذه الصورة رُسمت صور مائة وستة وخمسين من الأسرى، كل منهم يمثل مدينة من مدن «العبرانيين» التي استولى عليها "فرعون". وقد ذُكرت أيضاً أسماء اثنتي عشرة مدينة – كلها وردت في التوراة. وهكذا أثبتت الآثار بما لا يدع مجالاً لأدنى شك، كل الأحداث التي وقعت في عهد "رحبعام" الملك كما وردت في الكتاب المقدس.

الباب الأول

الفصل التاسع

مملكة الشمال

مملكة الشمال

يعتبر الحاكم الوحيد، في تلك المملكة، الذي ترك آثاراً هامة للتاريخ، هو الحاكم "عُمْرِي" وهو أحد ضباط الجيش الذين ثاروا واستولوا على مقاليد الحكم في البلاد، كما هو واضح في سفر الملوك الأول (١٦ : ١٥-٢٤)، ومع أن مُلكه لم يستمر أكثر من اثنى عشر عاماً، إلا أنه بعد مرور قرن من الزمان، كان "الآشوريون" يتحدثون عن ملوك إسرائيل "كبيت عُمري". وقد اتخذ ذلك الحاكم مدينة «السامرة» عاصمة لمُلكه. وقد قدَّمت بقايا «السامرة» الكثير من العاديات للباحثين عن الآثار.

وقبل بداية حُكم "عُمري" اختار سلفه "يربعام"، مؤسس مملكة الشمال، مدينة «شكيم» عاصمة له، ومن بعدها مدينة «ترصه». ولكن "عُمْرِي"، باختياره «السامرة»، اختار موقعاً حصيناً لطبيعة أرضه الصخرية، ولوجوده في موقع متوسط. وليس جبل «السامرة» في الواقع موقع حديث، ولكن إقامة مدينة كبيرة على سفحه كان يعتبر مشروعاً خيالياً غير عملي، خاصة قبل صناعة الخزانات الحديدية لحفظ المياه. وهكذا تؤيّد الحفريات تقرير التوراة بأن "عُمْرِي" كان أول ملك يبني مدينة «السامرة» .... واسم «السامرة» معناه (جبل الحراسة). وهو اسم ينطبق على طبيعة وضعها الجغرافي وسط «مملكة الشمال»، أو «مملكة إسرائيل». ولقد كانت قلعة حصينة لا تصل إليها أيدي الأعداء.

وأول مَنْ بدأ في أعمال التنقيب هناك، هي بعثة مرسلة من جامعة هارفارد عام (١٩٠٨ – ١٩١٠). ثم تجددت أعمال الحفر من عام (١٩٣١ – ١٩٣٣)، وفي عام ١٩٣٥اتسع نطاق الحفر، وأسفر عن نتائج هامة؛ فقد اكتُشفت ست طبقات أو مدن الواحدة فوق الأخرى، يعود أقدمها إلى القرن الثامن، أي إلى زمن "عُمْري". ولقد قام "عُمْري" ومعه ابنه "آخاب" بتسوية مسطح الوادي، وبحساب هندسي دقيق بنُيت الجدران الداخلية والخارجية. أما الملوك الذين أتوا بعد ذلك، فقد أقاموا جدرانا على سفح الجبل وفي الماشي الوسُطى. وفي سفر الملوك الثاني (٦ : ٢٤–٣١) نقرأ عن حصارٍ قاسٍ حُوصرت به «السامرة»؛ نجمت عنه جرائم وحشية، ومع ذلك لم تؤخذ المدينة!

وفي سفر الملوك الثاني (١٧ : ٥–٦)، حاصر "الآشوريون" المدينة ثلاث سنوات كاملة، قبل أن يتمكنوا من اقتحامها. ولقد كشف التنقيب عن خزانات منقورة في الصخر لحفظ المياه. واكتُشفت خرائب أقدم قصر عبراني هناك، على حافة الهضبة الغربية، ويطل على البحر المتوسط، وهو بناء بسيط في هندسته، أُقيم به في نهاية البهو الخارجي بُرج حصين، وحوض مُغشَى بمادة تشبه الأسمنت طوله ٣٣ قدماً، وعرضه ١٧ قدماً، ولعله الحوض الذي غُسلت فيه مركبة "آخاب" الملوثة بالدماء، كما ورد في سفر الملوك الأول (٢٢ : ٣٨). ويتحدث الأصحاح نفسه بعد ذلك عن "بيت العاج". ولقد اكتشف الباحثون قصراً ثانياً، مزيناً بألواح من العاج المنقوش . وفي القصر وُجِدت زهرية من المرمر عليها نقوش باسم "أوزروكون الثاني"، وهو ملك معاصر "لآخاب"، أما ألواح العاج المنقوش، فمن الواضح أنها كانت ملصقة كحلية لبعض الأثاث، أو على الجدران. وعلى ألواح العاج نُقشت صور عديدة كزهور اللوتس والزنبق وأوراق البردي، وصور حيوانات مثل الأسود والثيران والغزلان، وصور لآلهة آشورية مجنّحة، ولأبي الهول، وبعض آلهة «مصر»، مما يدل على تأثير «مصر» القوي على تلك الدولة في هذه الفترة. ومن الصور الجميلة نقش يمثل الإله "حورس"[1]، جالساً على زهرة اللوتس.

---

(١) ابن الإله اوزوريس والإلهة إيزيس

☐ الإله "حورس" على ورقة اللوتس - نقش على العاج.

وهذه الآثار والنقوش تصور لنا الحياة الناعمة التي كان يحياها أهل «السامرة»، والتي وبّخها النبي "عاموس" حينما وصف "أهل السامرة" بأنهم ينامون على أسِرّة من عاج (عا ٦: ٤)، وتنبأ بأن بيوت العاج مصيرها إلى الخراب (عا: ١٥). وقد اكتُشفت بقايا سرير من العاج في شمال «سوريا»، بمنطقة «أرسلان تاش»، وعلى قطعة منه نُقش اسم "حزائيل" ملك "دمشق" الذي تكرر ذكره مراراً في أسفار الملوك والأيام، وفي «السامرة» اكتُشفت قطع من الخزف من النوع الذي كان يُستخدم في كتابة الرسائل، وهي ترجع إلى عهد "يربعام الثاني" عام ٨٠٠ ق.م، وتحوي كشوفاً عن حاجيات قدمت لبيت الملك، في إحداها نقرأ:

"في السنة العاشرة وصل من "عزّة" إلى "جوديو" إناء من الزيت النقي".

قارن هذا بما ورد في سفر عا (٦:٦)، عن حكام «السامرة» الذين يتجرعون الخمر من آنيتها، ويتعطرون بالأطياب، ولا يكترثون لشقاء أخيهم "يوسف"!

والأسماء التي تكررت في قطع الخزف هذه جديرة بالاهتمام: فبعضها يذكر اسم البعل باسم "ماري بعل". والبعض الآخر يكرر اسم "ياهو" أو "يهوه"، مما يدل على حيرة الشعب، وتذبذبهم بين الديانتين؛ الأمر الذي وبّخهم "عاموس" بسببه بشدة.

على أن أعظم كشف يتحدث عن تلك الفترة ويلقى أضواءً تاريخية عليها، هو اكتشاف "الحجر الموآبي". وقد اكتشفه أحد المرسلين الألمان في مكان يُدعى "دبون" شرق «البحر الميت»، وشمال «نهر أرنون». ولقد كان مدفوناً في التراب إلى منتصفه، ولكن المرسل استطاع أن ينقل منه بضع كلمات، ويأتي بها تحت أنظار العلماء. والحجر قطعة من صخر البازلت الأسود، عرضها قدمان، وارتفاعها أربع أقدام، وسُمكها نصف بوصة. والنقوش على الحجر باللغة الفينيقية، وسطورها ٣٤ سطراً. وقد فوَّضت حكومة «بروسيا» ذلك المرسل لشراء الحجر لحسابها، فساوم الأعراب ليدفع لهم أربعين دولاراً. ولكن الحكومة الفرنسية علمت بخبر ذلك الحجر، فأرسلت من جانبها مندوباً لعمل نسخة من الكتابة المنقوشة على الحجر[1]، وفي الوقت نفسه لمحاولة شراء الحجر لحسابها. فساوم الأعراب على دفع ١٥٠٠ دولار لشراء الحجر. ولما رأى الأعراب ذلك ظنوا أن بالحجر قوة سحرية، فرفضوا بيعه، وأوقدوا ناراً، وأشعلوا حوله، ثم صبوا عليه ماءً، فتفتت الحجر، ووزعوا كِسره على بعضهم البعض كطلسم سحري. وقد استطاع العلماء، بعد متاعب جمة، أن يستعيدوا القِطع، ويلصقوها معاً، والحجر الآن محفوظ "بمتحف اللوفر" بباريس.

والسطور المنقوشة على "الحجر الموآبي" تُذّيل القصة المذكورة في الفصل الثالث من سفر الملوك الثاني، مع أن قصة الثورة لم تُذكر في الكتاب، والسطور لا تذكر شيئاً عن انتصار "آخاب" المدوّن في التوراة، ولكن الأسماء والمدن المذكورة هي نفسها. واللغة التي كتبت بها القصة، تقدم لنا حلقة من حلقات التطور في اللغات السامية. ويذكر "الحجر الموآبي" كيف أن الملك "عُمري" بعد انتصاره على «موآب»، قام ابنه "آخاب" بفرض جزية عليهم، مئة ألف كبش في كل عام، ولكن "ميشا"

(١) بضغط ورق خاص (من النشاف) المبلل بالماء. (المترجم).

رفض دفع الجزية بعد نهاية حكم "آخاب"؛ فثار ضده الملك "يهورام"، وحاصره في قلعته. فقام "ميشا" بإصعاد ابنه محرقة على أسوار القلعة، استرضاء للإله "كموش"، وبهذه الوسيلة اضطر ملك إسرائيل للانسحاب عن مدن «موآب» حينما رأى ذلك العمل الوثني البربري.

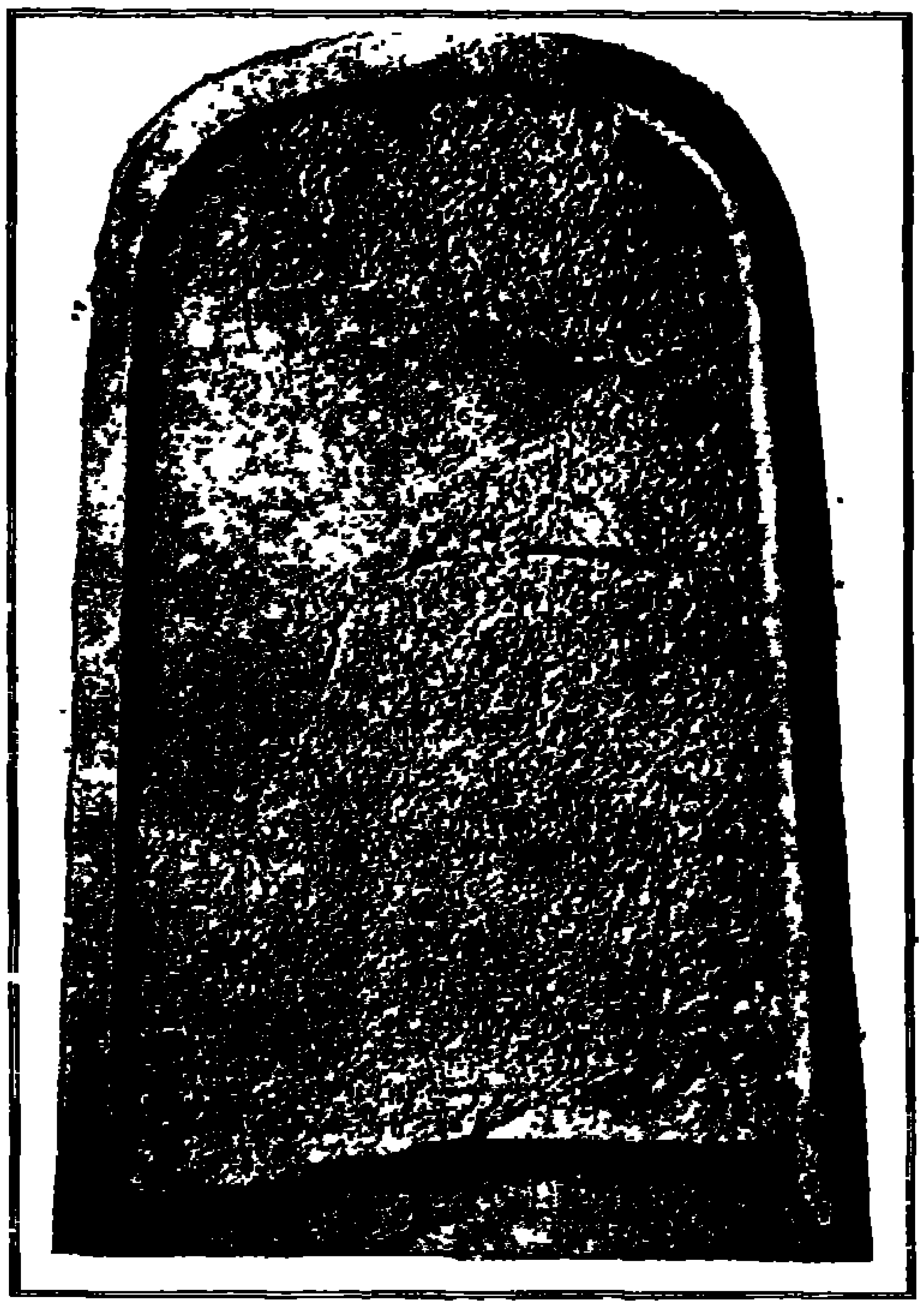

❑ الحجر الموآبي.

وهذه بعض الكلمات التي وردت ضمن سطور القصة:

" ... رجال "موآب" كانوا يسكنون في أرض "عطاروث"، وملك إسرائيل بنى عطاروث لهم ... ولكنني حاربت المدينة، وأخذتها، وذبحت كل سكانها سكيباً منعشاً للإله "كموش"، و"لموآب"".

ولقد استعاد "الموآبيون" مدنهم، وقلاعهم وحصّنوهم. أما هزيمتهم في القديم، فقد كانوا يعزونها إلى غضب الآلهة عليهم، وانتصارهم لرضاها. ويتحدث هذا الأثر أيضاً عن إله الإسرائيليين "يهوه" الذي أقام له أتباعه مقاماً في "نبو"، وفي كثير من مدن العهد القديم. و«الحجر

الموآبي» هـو أروع أثـر يشـير إلى مدى تقدم «موآب» في القرن التاسع قبل الميلاد. ولغته قريبة الشبه جـداً، في رسمهـا وقواعدهـا، باللغة العبرية القديمة التي كُتب بها العهد القديم. وتختتم قصة هذه الانتصارات بالقول:

"لقد هلكت إسرائيل للأبد".

وفي أثـناء حكـم "آخـاب" ابـن "عُمـري"، واجـه "شـعب إسـرائيل" تهديـداً من الشرق، من «مملكة آشـور» الناشئة الفتية. وهذا الخطر الجديد يفسر لنا مداهنة "آخاب"، وليونته مع «سورية» – (الملوك الأول – أصحاح ٢٠)، فبعد أن تغلب "آخاب" على "بنهدد" ملك «دمشق»، لم يقتله، ولم يحـرق المديـنة ويسـبي سكانها – كما كانت عادة أهل العصر، بل اكتفى باسترداد بعض المدن التي كـانت لإسـرائيل في عهـد الملك عُمْري، وكذلـك بعـض الشوارع في «دمشق»، وعقد محالفة صداقة مع ملك «سورية»! فلماذا إذن تصرف هكذا؟

يعـود السـبب إلى أن «سـورية» هـي الجـدار الفاصـل بيـنه وبـين «آشور»، ولذلك فقد تصرف "آخـاب" بحكمـة رجال الحرب المحنكين. فلو تهدم الجدار؛ سينفتح الطريق إلى قلب «إسرائيل». ولذلك كان يهمه أن تبقى «دمشق» سليمة، وأنْ تزداد «سورية» قوة لتقف سداً في وجه العدو الغازي.

ولقـد تـرك لـنا "شلمناصـر الـثالث" (٨٥٩– ٨٢٥ ق.م) تقريـراً هامـاً عن الحلف الإسرائيلي السـوري. وفي تقريـره، هـذا، يـتحدث عـن الحمـلات العشـرين الـتي قـام بهـا، وكيـف أنه عبر "الفـرات"، واسـتولى عـلى "حـلب"، وكيـف أن تحالفـاً عسـكرياً، قـام بـه اثـنا عشـر مـلكاً ضده لمحاربـته. ولكـن أقـوى أعضاء ذلك الحلف العسكري كان "آخاب" ملك إسرائيل، و"بنهدد" ملك دمشـق. ويـتحدث شلمناصـر عـن قـوات "بـنهدد"، بأنهـا تـتكون مـن ١٢٠٠ مركبة، و١٢٠٠ من والفرسـان، ٢٠ ألـف جـندي، أما قوات آخاب فهي تتكون من ٢٠٠٠ مركبة، و١٠ آلاف جندي. ويعود "شلمناصر" قائلاً في تقريره:

"لقـد حاربـتهم جميعـا بمعونـة قـوات "آشـور" الجـبارة، الـتي اعطانيهـا سيدي أشور.

وبالأسلحة القوية التي قدمها قائد جيشي. وقد استطعت أن انتصر عليهم بين مدينتي "قرقرة"، و"جلزاو"، وذبحت منهم ١٤ ألف جندي بحد السيف. ونزلت عليهم، كسيول الإله "أداد" حينما يزأر في العاصفة الطيرة، وبعثرت جثثهم في كل مكان. وغمرت الوادي بفلول جيشهم. وفي خلال المعركة، جعلت بحار دمائهم تسيل في المكان".

وفي مكان آخر يتحدث "شلمناصر" عن نفس المعركة، قائلاً بأنه فتك بعشرين ألفاً من الجنود، ولكنه يرفع هذا الرقم في مكان آخر إلى خمسة وعشرين ألفاً. ولكن يبدو أن المعركة كانت متكافئة بين الطرفين لأن "شلمناصر" لم يعد للحرب بعد ذلك لمدة خمس سنوات كاملة ...

على أن تقرير "شلمناصر" عن حملته السادسة عشرة جديرة بالذكر، حيث يقول فيها:

"في السنة الثامنة عشرة للكي، عبرت "الفرات" للمرة السادسة عشرة".

ولقد وضع "حزائيل" ملك «دمشق» ثقته في فرق جيشه العديدة – فاستدعى قواته، وأعلن التعبئة العامة، واتخذ من "جبل سنير" أمام لبنان، قلعة له فحاربته، وانتصرت عليه، وأفنيت من جيشه ١٦ ألف مقاتل متدرِّب على حمل السلاح. وغنمت ١١٢١ مركبة حربية، و٤٧٠ من فرسانه. واستوليت أيضاً على مخيمات جيشه. وقد هرب طالباً النجاة، فتبعته. وفي «دمشق» عاصمة مُلكة حاصرته.. وتوغلت في تقدمي، حتى «جبل حوران»، وضربت عدداً لا يُحصى من المدن، وأحرقتها بالنار، وأخذت غنيمتها. وفي هذا الحين، فرضت الجزية على الصوريين، والصيدويين التابعين "لياهو" ابن "عُمري".

ذُكر اسم "حزائيل" في سفر الملوك الأول (١٩: ١٥–١٧)، وفي سفر الملوك الثاني أيضاً (٨: ١٢–١٥)،

وقد ترك "شلمناصر" أيضاً تقريراً ثانياً عن فتوحاته وحملاته، في صور مرسومة أو منقوشة على المسلّة السوداء التي اكتشفها "سير/ أوستن لايار" في "كاله". وهنا، نرى صور الأسرى من "العبرانيين" يحملون العطايا والهدايا، وفي مقدمتهم "ياهو بن عُمْري"، راكعاً أمام "شلمناصر"

ومرافقيه. والموكب بهذا النظام: "ياهو" في المقدمة، ويأتي بعده أربعة من كبار الحكام العبرانيين، ويتبعهم ثلاثة عشر حمالا عبرانياً يحملون مختلف التقدمات والهدايا. وفي الأسفل، كُتِبَ تفسير الصورة على هذا النحو:

"تقدمة "ياهو بن عُمْري"، فضة، وذهباً، وآنية من ذهب، وكؤوس من ذهب، وفناجين من ذهب، وقضبان من رصاص، وخشب نفيس من البلسم، وصولجانات ليد الملك — هذه قبلتها منه".

وهذه هي أقدم صور في التاريخ "للعبرانيين"، التي اكتُشفت في «أشور». وبعد ذلك التاريخ بقليل، قدمت "أشور" خدمة لا تقدر بثمن لإسرائيل، بمحو «سورية» من الوجود. وفي سفر الملوك الثاني (١٠: ٣٢–٣٣؛ ١٣: ٣–٧)، استطاع "بنهدد"، بمعاونة جيش "حزائيل"، أن يسجل انتصارات قوية على «إسرائيل»، وبعد ذلك تقدم "أداد نيراري الثالث" ملك أشور (٨١٢–٧٨٢ ق.م.)، وطهر المنطقة، وخرّب «دمشق»، وهذا هو سجل انتصاراته:

"زحفت على "سمير سوس"، وحاصرت "ماري" ملك "دمشق" في مدينته عاصمة ملكه. وقد بهره بهاء سيدي "آشور" الرهيب؛ فسقط على وجهه، وأمسك بقدمي كعبد ذليل. فاحتللت قصره في دمشق، وتقبلت منه ٢٣٠٠ وزنة من الفضة تعادل ٢٠ وزنة من الذهب، و٥ آلاف وزنة من الحديد، وثياب من الكتان، بحواشي ذات ألوان متعددة، وسرير مطعم بالعاج، وأشياء كثيرة"

وبعد وفاة "أداد"، جلس على عرش «آشور» ثلاثة من الملوك الضعفاء، خففوا الضغط قليلاً على «إسرائيل»، فاستطاعت «دولة إسرائيل»، و«دولة يهوذا» كل منهما أن تسترد أنفاسها، وتوسع رقعة أملاكها. فاستطاع "يربعام الثاني" ملك إسرائيل، ورابع ملك من ملوك أسرة "ياهو"، أن يصل بسلطانه من "حماة" إلى حدود «الفرات»، وإلى شرق «البحر الميت». وكذلك استطاعت «مملكة يهوذا» — تحت حكم "عزّيا" — أن تتغلب على «فلسطين»، وتتقدم في كثير من المشروعات التجارية والعمرانية. وقد اكتُشف أثر من عهد "عزيا"، في منطقة «إيلات»، والتي يخبرنا الوحي

الإلهي في سفر الأخبار الثاني بأن "عزّيا" قد أعاد إخضاعها لسلطانه. وهذا الأثر هو عبارة عن خاتم ملكي جميل نُقش عليه اسم "يوثام"، وهو ابن "عزّيا" الذي تولى المُلك بعده، بعد أن أصيب والده بالبرص، وقضى بقية حياته في المعزل الصحي. وفي «آشور» استولى على المُلك، بعد أولئك الملوك الثلاثة الضعفاء، ملك يُدعى "بول الآشوري"، الذي لقّب نفسه "تجلات بيلاصر" (أو تفلث بلا سر). وأعاد عهود التوسع الاستعماري.

وفي سفر الملوك الثاني (١٥ : ١٩–٢٠) يتحدث الكاتب عن "مناحيم" ملك إسرائيل، وكيف أنه دفع "لتجلات بيلاصر" ألف وزنة من الفضة؛ لمعاونته في تأييد عرشه. ويتحدث "تجلات" عن نفسه أيضاً، بأنه أخذ هبات وتقدمات من "مناحيم" ملك «السامرة»، و"رصين" ملك «دمشق»، و"حيرام" ملك «صور» كما أنه أخذ من آخرين ذهباً وفضة وقصديراً وحديداً وجلود أفيال وعاجاً ونسيجاً من الكتان بحواشي متعددة الألوان، وصوفاً مصبوغاً باللون الأزرق، وصوفاً قرمزياً وخشباً نفيساً من الأبنوس كنوز الملك النفيسة، وكذلك حملاناً بصوف قرمزي، وطيوراً بأجنحة زرقاء، وخيولاً وبغالاً، وقطعان ماشية، وجمالاً، ونوقاً. ومهما كانت قيمة هذه الهبات، فإن تقدمة الفضة وحدها، توازي الملايين من الجنيهات. وفي سفر الملوك الثاني (١٥ : ٣٠)، يتحدث كاتب الوحي كيف أن "هوشع" تآمر ضد "فقح" ملك إسرائيل وقتله. وعن هذا يتحدث "تجلات" فيقول:

"لقد ثاروا ضد ملكهم "فقح". فنصّبت "هوشع" ملكاً عليهم".

ويعتبر "تجلات" أول ملك اتّبع سياسة إبعاد غير المرغوب فيهم من بلادهم، وهي السياسة التي اتبعها الملوك من بعده. وفي سفر الملوك الثاني (١٥ : ٢٩)، يحمل أسرى من مدن كثيرة من "الجليل"، و"نفتالي"، إلى بلاده «آشور».

وفي سفر الملوك الثاني (١٦ : ٧–١٠) يُرسل "آحاز" ملك يهوذا هدية "لتجلات"، ويرجوه أن يسرع لمساعدته ضد جيوش «سورية» التي تهاجمه. فيزحف "تجلات" على «دمشق»، ويستولى عليها، ويقتل ملكها "رصين"، ويسبي سكان المدينة، وهكذا يتغلب على شعب عنيد، حاول من

سبقوه أن ينتصروا عليه في حروب استمرت فترة طويلة دون جدوى، فتتم نبوة النبي "إشعياء" التي تنبأ بهـا عن دمشق (إش ٧: ١٦-٢٥)، بأنها ستكون بلا ملك. ووسط قائمة الملوك الذين أخضعهم "تجلات" لسلطانه، نجد اسم "آحاز". والأثر الثاني الذي ذكر فيه اسم "آحاز" هو خاتم خاص بـ"أوشا" خادم "آحاز"، على صورة جعران من الياقوت الأحمر.

وحسبما يخبرنا كاتب الوحي بسفر الملوك الثاني (١٧ : ٣-٦)، تولى المُلك بعد "تجلات"، "شلمناصر" (الخامس) الذي حاصر «السامرة»، ولعله قد مات بعد ذلك التاريخ بقليل. وقبل أن تسقط «السامرة»، جلس "سارجون الثاني" على عرش المُلك، كما تخبرنا بذلك بعض الآثار التي خلّفها:

" في بداية ملكي قمت أنا ... بمحاصرة "السامرة"، وانتصرت بمعونة الإله الذي حقق لي هذا الانتصار. وسبيت أسرى ٢٧٢٩٠ من سكانها، وبينهم خمسون مركبة لقوات جيشي. أما المدينة، فقد أعدت بناءها، وأسكنت فيها سكاناً من مدن أخرى انتصرت عليها، وجعلت حاكماً من قبلي، وفرضت جزية عليهم للشعب الآشوري .... "

وفي سفر الملوك الثاني (١٧: ٢٤-٤١) نجد قصة حصار "سارجون" وحروبه كاملة، وكيف أنه أحضر سكاناً من المدن التي في مملكته، ومزجهم ببقية الشعب الذي تبقى من الأسر. وليس صحيحاً أن "سارجون" قد سبى كل عشائر "إسرائيل"، أو أسباطه العشرة. ولكن الذي حدث أن الأسباط امتزجت مع تلك الشعوب المهاجرة بالتزاوج، والمصاهرة، واختفت الفوارق. ويعتبر تاريخ انتصار "سارجون" على «إسرائيل» نهاية «دولة إسرائيل»، دولة الشمال من شعب التوراه فلم يحدث أن قامت لها قائمة – كدولة متميزة بعد ذلك الحين. وبطبيعة امتزاج «دولة إسرائيل» مع الأمم: أخذوا عنهم عاداتهم، وتقاليدهم، ومزجوا معتقداتهم بمعتقدات الأمم، حتى أن "السامرين"، بعد ذلك، – وهم سلالة دولة إسرائيل كانوا مُحتقَرين، ومكروهين من شعب اليهود في عصر المسيح. ولم يتبقَ من "السامرين" الآن بضعة مئات من الأفراد.

الباب الأول

الفصل العاشر

الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا .. وأمجاد بابل

الأيام الأخيرة لمملكة يهوذا .. وأمجاد بابل

وبعد نهاية حكم "سارجون الثاني"، تولى المُلك "سنحاريب الآشوري"، وقد ترك لنا قصة حروبه مع «مملكة يهوذا» التي ذُكرت في سفر الملوك الثاني (١٨ : ١٣، ١٩ : ٣٦)، نثبتها هنا بلغته، حيث يقول:

" وهاجمت عقرون. وقتلت حكامها ورؤساءها. وعلقت جثثهم على أعواد حول المدينة. أما الأفراد الذين كانت جرائمهم أقل من جُرم أولئك فقد سبيتهم؛ والبقية ممن لم يثبت عليهم شيء أطلقت سراحهم. أما "حزقيا" اليهودي فلم يستسلم لي. فحاصرت ستين مدينة من مدنه الحصينة، وعديداً من القرى الصغيرة وأخضعتها بالمنجنيق، وجنود الشاة، وغنمت وسبيت سكانها، كباراً وصغاراً، نساءً ورجالاً، مع خيول وبغال وحمير وقطعان ماشية. أما هو فقد، حاصرته في "أورشليم" عاصمة مُلكه كالطير في القفص. وبنيت تلالاً من التراب حول المدينة، حتى لا يفلت الهاربون من بوابتها. أما المدن التي استوليت عليها، فقد أعطيتها للملك " متنتي" ملك «أشدود»، و"بادي" ملك «عقرون»، "وصلبيل" ملك «غزة». وهكذا ضغطت حدود مملكته، ولكنني ضاعفت الجزية عليه – لتُدفع سنوياً. أما "حزقيا" الذي باغته الرعب من سيدي، والذي هجرته جنوده التي أحضرها إلى «أورشليم» لتحميه، فقد أرسل إلـيّ إلى «نينوى» مدينتي الملكية؛ ثلاثين وزنة من الذهب وثمانيمئة وزنة من الفضة، وأحجاراً كريمة، وقطعاً من حجر العقيق. ومساند مطعّمة بالعاج، وجلود أفيال، وخشب أبنوس. وكل كنوز الخزائن النفيسة، مع سراريه، وفرقه الموسيقية من الرجال والنساء.

وبناته. ولكي يظهر طاعته وولائه كعبد. أرسل من قبله رسولا شخصيا مع هذه الأشياء

❑ إسرائيل تقدم الخضوع "لشلمناصر الثالث".

وفي سفر الملوك الثاني (١٨: ١٣-١٦)، نقرأ كيف أن "حزقيا" قد أرسل "لسنحاريب" تقدمة ٣٠ وزنة من الذهب، و٣٠٠ وزنة من الفضة. ولكننا نقرأ قصة إندحاره الرهيب في سفر الملوك الثاني (١٩: ٣٥)، وكيف أن ملاك الرب سار في جيشه، وقتل ١٨٥ ألف من جنوده. أما هو، فقد فر هارباً إلى بلاده. ولم يُذكر بالطبع شيء من هذا في تقرير "سنحاريب"[1] كما أن "سنحاريب" لم يذكر أنه استولى على أورشليم، ولكنه اكتفى بالقول إنه حَبَس الملك "حزقيا" في مدينته (كالطير في القفص).

ومع أن حكم "سنحاريب" قد استمر بعد ذلك مدة عشرين عاماً، إلا أنه لم يَعُدْ إلى مهاجمة أورشليم، فلقد كانت ذكرى هذه الهزيمة رهيبة تبعده عن العودة إلى هذه المخاطرة. ويذكر لنا المؤرخ اليوناني "هيرودوت" في تأريخه، أن "سنحاريب" في حملته على المصريين، الذين تقدموا للقائه في حشود هائلة، انتشرت الفئران في محلة جيشه، وقرضت سيور الخيل والمركبات الحربية، حتى أن جيشه أصبح في حالة يُرثى لها، فاضطر للتقهقر والهرب. ومهما يكن الأمر،

(١) والسبب واضح، فملوك الأمس، لا يسجلون على الإطلاق أخبار هزائمهم، بل أخبار انتصاراتهم فحسب!

فإن هذا التقرير يُظهر لنا صحة ما ورد في الكتاب المقدس عن كارثة رهيبة حلّت بجيش "سنحاريب". وعلى ذكر الفئران، يُظن [وهو ظن مُرجح] أن الهلاك الذي حل بالجيش كان نتيجة انتشار الطاعون الدمليّ، الذي تنقله البراغيث التي تتغذى على دم الفئران المصابة.

وقد حدث حصار «لاخيش» قبيل تلك الحوادث، ويهمنا أن نشير إلى ذلك الحصار بالنسبة إلى الآثار التي اكتشفها "سير/ أوستن لايار" في عام ١٨٥٠، في مدينة «نينوى». فقد اكتُشفت سلسلة من الصور المحفورة على الأحجار بلغ عددها ١٣ حجراً، تصوّر حصار تلك القلعة والاستيلاء عليها. وقد سُطِّرت فوقها هذه الكلمات "سنحاريب ملك العالم، ملك «آشور» يجلس على العرش، ويستعرض أمامه مواكب الأسلاب من «لاخيش». أما جدران القلعة، فقد صُورت فوق سفح تل مرتفع، وقد برزت منها الأبراج الحصينة ذات النوافذ التي تحميها القضبان، والمدينة ذاتها بُنيت على المرتفعات وسط الغابات. وفوق الجدران يقف المدافعون عنها من رماة السهام وحملة المقاليع، ويستطيع الرائي أن يحصي أكثر من عشرين تلة أقامها الجيش المهاجم لمحاصرة المدينة، وهي مقامة من الطوب والأحجار وجذوع الأشجار، وعليها ظهرت سبع بطاريات مقاتلة.

❑ حصار "لاخيش".

والبطارية، أو "المنجنيق" هو مركبة يبرز منها عرق ضخم من الخشب يتحرك مندفعاً إلى

الأمام بواسطة روافع، وينتهي بقطعة من الحديد على هيئة رأس كبش، يرتطم بالجدران فتتهدم أو تحدث بها ثغرات. وتُغطى المركبة بجلود طرية لا تنفذ منها السهام الملتهبة. ويوجد في داخل المركبة عدد من الجنود يقومون بإدارة الروافع بالحبال، وبعضهم يطلق السهام على جنود الأعداء الذين يحاولون إشعال النيران فيها بإلقاء المواد الملتهبة عليها، والبعض الآخر يصب ماءً بارداً يطفئ به النيران. وخلف هذه المركبات جنود بعضهم يبدو راكعاً والبعض الآخر من خلفه واقفاً، وجميعهم يطلقون السهام. وهناك حملة التروس، وقد غطُّوا تروسهمْ بجلود الحيوانات، واجتهدوا في الاختفاء، خلف المنجنيقات. وفي صور أخرى، نرى جنوداً وقد وضعوا على جدران القلعة سلالم خشبية يحاولون الوصل إلى أعلاها، بينما ألقى المدافعون عن المدينة في حيرتهم ويأسهم، بالمركبات عليهم لوقف زحفهم. وتؤيد الحفريات حديث الوحي بالعهد القديم عن الاستيلاء على «لاخيش».

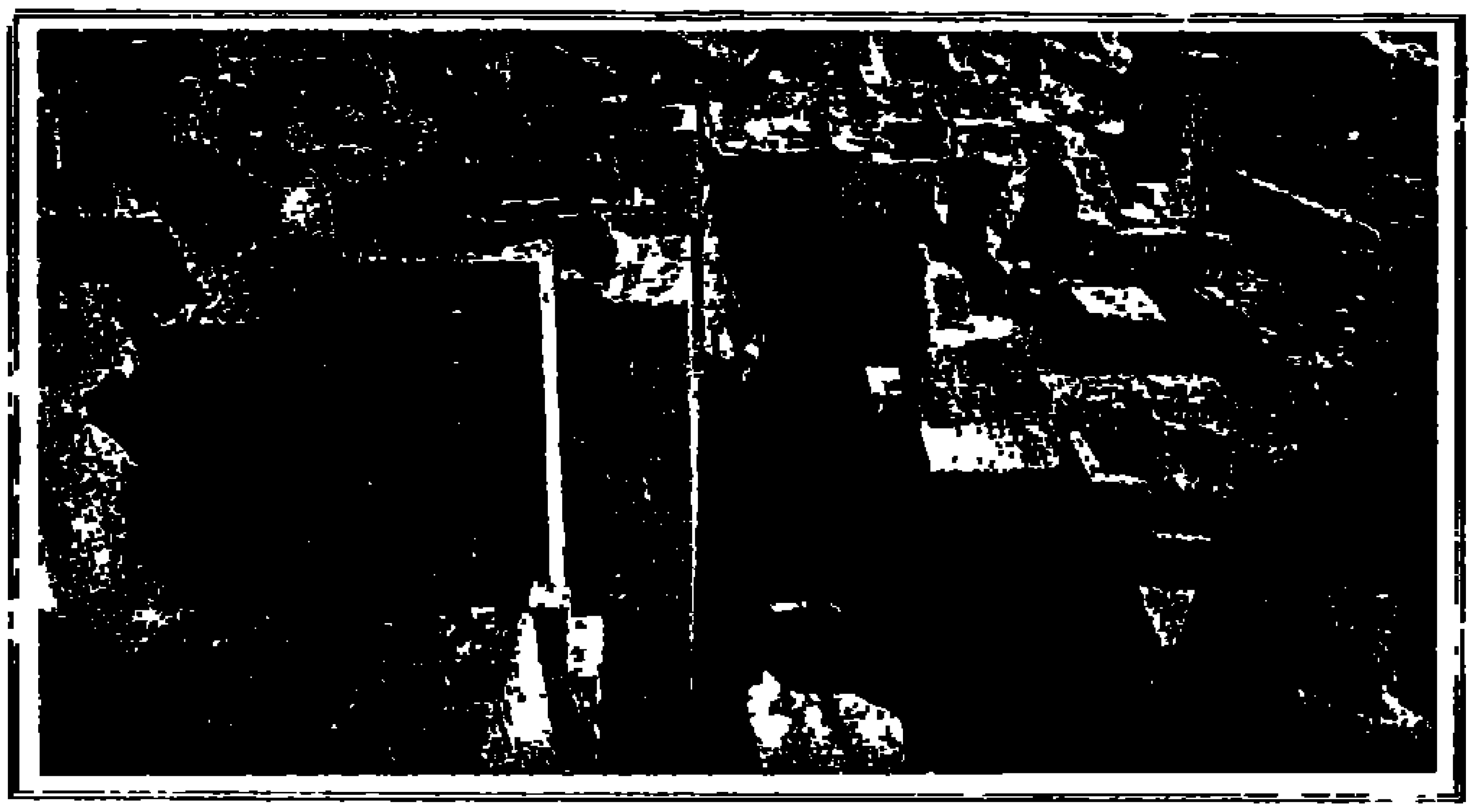

❑ الآثار المتبقية من بابل (خرائبها).

ومن روائع الأعمال الهندسية التي اكتشفها المنقِّبون هناك، حفرة عميقة في الصخر، طولها ٨٤ قدماً وعرضها ٧٤ قدماً، وعمقها نحو٨٥ قدماً، حتى أن الباحثين ذُهلوا وهم يتأملون هذا العمل الهندسي الرائع – في وقت لم يكن في متناول العمال إلاَّ الفؤوس والمعاول! ومن المُرَجَّح أن هذه الحفرة كانت لتخزين المياه. وهناك صورة أخرى من الأعمال الهندسية وهي "قناة حزقيا"، وهي تبدأ من «ينبوع جيحون». وقد ذكر خبر هذه القناة بإيجاز في سفر الملوك الثاني (٢٠: ٢٠)،

أما اكتشافها وتطهيرها، مع قنوات أخرى أثرية، فقد تم على أيدي رجال بعثة "باركر" التي قامت بذلك العمل خلال الأعوام الثلاثة (١٩٠٩– ١٩١١). وطول هذه القناة ١٨٠٠ قدماً، وعمقها ٦ أقدام، وهناك نقوش على جدرانها تُرينا كيف تم حفر هذه القناة الطويلة في قلب الصخر في اتجاهين متضادين، حتى ارتطمت الفؤوس بالفؤوس! وجرت المياه فيها. والحجر الذي نُقشت عليه هذه السطور، محفوظ الآن في "متحف القسطنطينية". وقد كان الينبوع، في ذلك العهد، خارج أسوار المدينة، وكانت تخفيه عن الأنظار كومة من الأحجار كُدست، وكانت المياه تصل إلى داخل الأسوار عن طريق ذلك النفق.

وبعد اغتيال "سنحاريب – ملك أشور"، الذي روت التوراة قصته في سفر الملوك الثاني (١٩: ٣٧)، كما ورد الكثير عنه في الآثار، وقد ملك عِوضاً عنه ابنه "آسرحُدون"، وهو أقوى الملوك الذين اعتلوا عرش «آشور». وقد أخضع كثيراً من البلاد، حتى «مصر». وفي الآثار التي خلَّفها نجده يطلب من ملوك الغرب، ومن بينهم "منسَّى – ملك يهوذا"، خشباً، وحجارة لبناء قصره في «نينوى».

ويتحدث خلَفه الملك "آشور بانبال" عن ثورة حدثت في بلدان الغرب، والمقصود بالطبع الدول الواقعة غرب «آشور» حتى حدود البحر الكبير، وكيف تم إخضاعها على يده. ومن الملوك الذين أُخضعوا ورد اسم "منسىً". وفي سفر الملوك الثاني (٢٣: ١٠–١٣)، يذكر الوحي المقدس كيف أن "منسَّى" قدْ سُبي إلى «بابل»، وأعيد بعد ذلك إلى عرش ملكه، ولعل هذا ما أشار إليه "آسر حدّون"، حينما اكتُشفت ضمن آثاره كتابة، ورد فيها ما يلي:

" دعوت ملوك مملكة "حتيّ"، في المنطقة التي تقع جانب الفرات، أن يشهدوا: "بالو" ملك «صور»، و"منسى" ملك «يهوذا»، واثني عشر ملكاً من الساحل. وعشرة ملوك من «قبرص» في وسط البحر، واثنين وعشرين ملكاً من "حتيّ" – وشواطئ البحر والجزائر. هؤلاء جميعاً أرسلتهم لينتقلوا إليّ، رغم المصاعب الجمّة، خشباً، وعروقاً طويلة، وسلخات من الأرز، والصنوبر من منتجات جبال لبنان. لينقلوا هذه إلى «نينوى» مكان مُلكي. لبناء قصري ... وكذلك من المحاجر في الجبال لعمل تماثيل الآلهة".

ولم يُذكر ضمن هذه الكلمات إعادة "منسّى" إلى عرشه، ولكن ذكرت حادثة مماثلة عن "نيخو" فرعون مصر، كيف أنه أُخذ أسيراً إلى بابل، ثم أُعيد إلى عرشه فيما بعد. وقد قضى "آشوربانبال" بقية عمره في جمع المخطوطات، وضمها إلى مكتبته العظيمة (التي اكتُشفت عام ١٨٥٢م.)

وبعد "آشور بانبال" تدهورت قوة «آشور»، حتى إذ حل عام (٦١٢ ق.م.)، ظهرت في الأفق «مملكة مادي وفارس المتحدة»، واستولت على «نينوى» عاصمة «أشور». وبعد ذلك، تقدمت قوات «مادي وفارس»، وأخضعت فلول الجيش الآشوري التي اتحدت مع «مصر». أما خراب «نينوى»، فقد ذُكر في نبوات سفر ناحوم (الأصحاح ٢و٣)، حيث تمت كل هذه النبوات – كما وردت بحذافيرها .

أمجاد بابل القديمة

أما الحفر في «بابل» القديمة. فقد بدأ مؤخراً على يد العالِم الألماني الأثري "روبرت كولدواي" (١٨٩٨م.)، وقد كان هذا العالم دارساً باحثاً، عرف الكثير عن هذا الإقليم من كتب التاريخ، وعن مباني البابليين القديمة. وكان واثقاً من اكتشاف آثار من عهد "نبوخذ نصر" الذي ذكرت أخبار انتصاراته في الآثار الآشورية. ولم يمضِ وقت طويل حتى كشف الحفر عن أسرار المدينة الجبارة. واستمرت البعثة في عملها بصبر لا يعرف الملل، تزيح أطنان التراب المتراكم في المكان، وقد اكتُشف أن مسطح المكان الذي تحتله الجدران المزدوجة يبلغ ١٢ ميلاً مربعاً. والجدار الخارجي بُسمك ٢٢ قدماً، والداخلي ٢٥ قدماً، وبينهما فراغ قدره ٣٥ قدماً. وقد رُدم الفراغ، حتى أن أربعة أزواج من الخيل تستطيع أن تسير على السور المزدوج في صف عرضي. وفوق الأسوار، مراقب يتيح للحراس مراقبة العدو القادم من مسافات بعيدة. وعدد غرف المراقبة ٣٦٠ غرفة فوق الجدار الداخلي، و٢٥ غرفة فوق الجدار الخارجي. وقد ترك لنا "نبوخذ نصّر" تقريراً عن هذا العمل الجبار يقول فيه:

" أقمت جداراً ضخماً حول «بابل» من الشرق. حفرت له خندقاً، وبنيت جانبه الخارجي المنحدر من الطوب المحترق والقار. وأقمته بارتفاع تل عال. وفتحت فيه بوابات واسعة. وأبواباً من خشب الأرز المغشى بالنحاس؛ حتى أن العدو مهما كان شره، لا يستطيع أن يصل إلى الداخل. وأحطت الجدران بسيول عارمة كأمواج البحر ... لقد صنعت من "بابل" قلعة حصينة .... "

وتشير الحفريات إلى أن "نبوخذ نصر" استخدم الطوب المحترق في البناء، بدلاً من اللبن أو الطوب النيء. ولقد أصلح أكثر من عشرين معبداً. وكانت قطع الطوب التي تحمل خاتمه عديدة، حتى أن معظم مدينة «هلَّه» قد بُنيت بها، وكذلك خزان يحوِّل نهر «الفرات» عن مجراه. ومن بين النظم الهندسية التي اكتشفها العالم "كولدواى" والخاصة بذلك العصر، هي تلك الممرات المقوَّسة السقف والمداخل المقامة من الأحجار. وقد كانت الطريقة التي أُقيمت بها «حدائق بابل المُعلَّقة»[1]. وكانت الحدائق الشهيرة مقامة على مرتفع مبني من الطوب في وسط المدينة ...

وفي سفر التكوين (١١ : ٣-٤) نقرأ عن "برج بابل" وكيفية إقامته. ويبدو أن البرج الأول قد أقيم في عهد "حامورابي". وأعيد بناؤه فيما بعد في عهد الملك "نبوبلاصر" ملك بابل. وقد ترك لنا تقريراً عن ذلك قال فيه:

" في ذلك الوقت أمرني إلهي "مردوخ"، أن أعيد بناء «برج بابل» الذي خُرِّب، وتهدم بمرور الزمن. لقد أمرني أن أعمِّق أساساته في العالم السفلي، حتى ترتفع أجنحته إلى السماء".

ويبدو أن ذلك العمل قد أُكمل في عهد ابنه "نبوخذ نصر"، فقد ترك لنا تقريراً يقول فيه:

"أجهدت يدي في رفع "اتمانانكي" حتى يناطح السماء!!"

وحينما تم البناء، كان البرج يتكون من سبع طبقات الواحدة فوق الأخرى، ترتفع إلى ٢٨٨

[1] إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة.

قدماً، ومسطح قاعدته ٢٨٨ قدماً، واستخدم في بنائه مالا يقل عن ٥٨ مليون قطعة طوب! ولعل هذا العمل قد قام به الأسرى. وفي قمة البرج، هيكل "للإله مردوخ" – لا شيء به سوى حشية. وقد اخبرنا المؤرخ "هيرودوت" أن البابليين كانوا يعتقدون أن "مردوخ" يأتي ليلاً ويستريح هناك. ومن قمة البرج، يستطيع الرائي أن يشاهد مباهج الوادي لأميال عديدة. وفي أسفل البرج، توجد غرفة بها تمثال ذهبي جبار "للإله مردوخ"، ارتفاعه ١٨ قدماً، وقد استلزم صنعه ٨٠٠ وزنة من الذهب[1].

ومن الآثار الهامة أيضاً في ذلك العهد، «بوابة اشتار» التي تُوَصِل إلى ممر طويل، تمر به المواكب، وقد كان اتساع ذلك الممر ٧٣ قدماً. وهو مستقيم لا انحناء فيه، يرتفع على جانبيه جدران إلى علو ٢٢ قدماً. ويحده من هنا وهناك، صفان من تماثيل الأسُود تبلغ عددها ١٢٠ تمثالاً. وفي سفر دانيال (٤: ٣) نستمع إلى "نبوخذنصر"، وهو يفخر بمقدرته قائلاً: **"أليست هذه بابل العظيمة التي بنيتها لجلال ملكي واقتداري؟! !"**. وفي الآثار يقول "نبوخذ نصّر":

" حينما دعاني سيدي العظيم "مردوخ" ، ورفعني لأكون رئيساً فوق الممالك. حتى أبني المدن، وأجدد الهياكل – أنا الحكيم – تقدمت بتضرعاتي لكي أبني هذا البيت" .

وفي مكان آخر يقول:

" يا سيدي "مردوخ" ، خالقي، ورب الآلهة ، ليت أعمالي تتبرر أمامك ، وتثبت إلى الأبد. هبني بنعمك الحياة الزاخرة لأجيال طويلة ، والنجاح والفلاح، والعرش الثابت والمُلك الوطيد" .

ومما ورد في سفر ملوك الثاني أن «أورشليم» قد حاصرتها قوات "نبوخذ نصّر" مرتين: الأولى، حينما كان "يهوياكين" ملكاً، وذُكرت في (٢٤: ١٢–١٦). ويبدو أن "يهوياكين" قد تمرد على "نبوخذ نصّر" في السنة الثانية لمُلكه، فحاصره "نبوخذ نصّر" في «أورشليم»، وتغلب عليه،

[1] أو ما قيمته ٢٤ مليون دولاراً أمريكياً [المُراجع].

وسباه إلى بلاده، وحمل أسلاباً كثيرة وغنائم، فقال: "**كل كنوز بيت الرب. كل كنوز بيت الملك، أخذتها. وكسَّرت كل آنية الذهب التي عملها سليمان الملك في هيكل الرب، كما أوصاه الرب**". وزيادة على ذلك، فقد سبى صُناعاً مهرة. "عشرة آلاف أسير، وكل الصياغ، وكل الحدادين، وأصحاب الحِرف، لم أترك هناك إلا أفقر الطبقات في الأرض". وفي عام ١٩٥٦، اكتُشفت أربع لوحات أخرى من أخبار حروب «بابل»، تعطينا فكرة كاملة عن "سبي بابل".

وقد عين "نبوخذ نصّر" في مكان "يهوياكين"، "الملك صدقيا" الذي توقع أن يكون تابعاً أميناً له. ولكن "صدقيا" اغترَّ بأقوال أنبيائه الكذبة، رغم تحذير "إرميا" له، فانساق لآرائهم الفاشلة، كما في سفر إرميا (٢٧: ١٤-١٥).

وفي الجانب الواحد، وقف "إرميا" محذراً الشعب في الطرقات، والأماكن العامة، منادياً بأنهم ينبغي أن يخضعوا لسلطان ملك «بابل»، وإلا سيكون نصيبهم الهلاك. ومن الجانب الآخر، كان "حنانيا" مع أنبيائه، الذي أخذ النير عن "إرميا" وكسره، قائلاً: "**هكذا سيكسر الرب عن يهوذا نير نبوخذ نصّر في مدى عامين اثنين**". وقد صنع "إرميا" لنفسه نيراً آخر من حديد، ونادى بأن الشعوب كلها ينبغي أن تخضع "لنبوخذنصر"، وأن "حنانيا" سيموت بأيدي البابليين جزاء كذبه ونفاقه.

وكذلك، لا غرابة أن نجد "صدقيا" ينحاز إلى النبوءة السعيدة المتفائلة، ويتمرد على "نبوخذنصر" بعد أن يعقد حلفاً مع فرعون مصر. وفي عام ٥٨٧ ق.م، يحاصر "نبوخذنصر" «أورشليم» للمرة الثانية، وبعد حصار طويل، يضطر "صدقيا" إلى الهرب مع ابنيه وحاشيته في «وادي الأردن»، فتلحق به قوات «بابل»، وتقبض عليه، ويُذبح ابناه أمام عينيه، وتفقأ عيناه بعد ذلك بالمحاوير الملتهبة، ويقيَّد، ويُحمل أسيراً إلى «بابل»، بينما تُحرق «أورشليم»، والهيكل المقدس، ويُساق الشعب إلى أرض السبي.

وتأييداً لهذه الحقيقة، نجد ضمن الآثار المكتشفة أثراً يتحدث عن "يهوياكين" سلف

"صدقيا"، وأسير ملك بابل، وهي تتفق مع قول العهد القديم في سفر الملوك الثاني (٢٥ :٢٧-٣٠):

"…. ملك بابل في السنة التي بدأ ملكه فيها رفع رأس يهوياكين ملك يهوذا في أسره، وغيَّر ثياب سجنه، فأكل خبزاً أمامه كل أيام حياته وأُعطيت له فريضة الملك يوماً بيوم كل أيام حياته"

وقد اكتُشفت، مؤخراً، بالقرب من بوابة "اشتار" ٣٠٠ لوحة أثرية، تحمل كل واحدة منها تاريخها، وفي إحداهما – وتاريخها يوافق عام (٥٩٢ ق.م) – نجد قائمة بالأوامر المُعطاة لأسرى بابل، ومن بينهم اسم "يوكين" ملك «يهوذا» وأبنائه الخمسة. أما تسمية "يهوياكين" بالاسم "يوكين"، فقد وجدت أيضاً مطبوعة على يد إناء فخاري في "فلسطين"، يرجع تاريخه إلى نفس ذلك التاريخ. "يهوياكين" كان له سبعة أبناء، وربما وُلد له ابنان بعد التاريخ الذي تذكره الآثار.

أما «قلعة لاخيش» المجاورة «لأورشليم»، فهي برهان قاطع يُثبت أن «أورشليم» قد أُحرقت مرتين في فترة قصيرة؛ لأن هذه القلعة أيضاً قد أُحرقت مرتين. وفي «لاخيش» اكتُشف خاتم من الطين، ما زال ظهره يحمل آثار نبات البردي الذي وُضع عليه، ونقرأ هذه الكلمات: "خاص "بجدليا" رئيس البيت". ونحن نقرأ عن هذه الشخصية المعروفة في سفر الملوك الثاني (٢٥: ٢٢)، كيف أن "نبوخذ نصر" ملك بابل، قد عين "جدليا" حاكماً على البقية التي تبقت بعد السبي من سكان «أورشليم». وكذلك اكتُشفت أيضاً في «لاخيش»، في حجرة خارج بوابة المدينة، ٢١ قطعة من الخزف المكسور، الذي كان يُستخدم في كتابة الرسائل. والتقارير كلها في غاية الأهمية، فقد كُتبت قبل سقوط المدينة بالعبرانية القديمة التي تُعتبر حلقة تطور بين أبجدية اللغة الفينيقية الحديثة، وبين هجائية اللغة التي اكتُشفت في "سيرابيت". مما يدل على أن "اللغة الفينيقية العبرية" كانت سائدة في أيام السبي في «فلسطين»، وإنما استُبدلت بعد السبي شيئاً فشيئاً، بالآرامية التي كُتبت بها كل مخطوطات التوراة القديمة التي وصلت إلينا حتى الآن. وهكذا، تؤيِّد آثار «لاخيش»، ما رواه الكتاب المقدس عن وجود فترتين للسبي في تاريخ «مملكة يهوذا»، وعن وجود "جدليا" كحاكم للبلاد، وعن انتشار الوثائق المخطوطة قبل السبي.

الباب الأول

الفصل الحادي عشر

ظهور فارس

ظهور فارس

لا يذكر الكتاب المقدس شيئاً عن ظهور «فارس»، على مسرح التاريخ – حتى بعد «سبي بابل». ويُظن أن أصل الفرس من "القبائل الآرية" التي ظهرت عام (١٥٠٠ ق.م.). وقد انتشرت واستقرت فيما يعرف الآن «بإيران» الحديثة. وكانت هجراتهم في صورة موجتين من أماكن مختلفة. "فالماديون" (نسبة إلى مادي) استقر بهم المقام في شمال غرب «إيران»، و"الفُرس" اتخذوا «عيلام» عاصمة لهم في الجنوب الغربي. أما "الماديون" فقد اتخذوا «اكبتانا» عاصمة لهم، وكانت تقع بالقرب من مدينة «حمدان» الحديثة. ففي عهد "نبوخذ نصّر"، كان الماديون من الشمال، والفرس من الجنوب، يحاصرون «مملكة بابل» بين شقي الرحى، مما سهّل عليهم إخضاعها.

ومن الغريب أن ظهور الملك "سيرس" وفتوحاته قد أشارت إليهما التوراة أكثر من مرة. فهي تشير إليه كمسيح الرب، والممسوح من الرب (إش ٤١، ٤٣). ومن المعروف أن "سيرس" لم يكن يشارك اليهود إيمانهم، ومعتقداتهم. ومع ذلك، فإننا نجد الله يخاطبه على لسان "النبي إشعياء" بالقول: "**قد نطقتك مع أنك لم تعرفني**". بل إن انتصارات "سيرس"، يشير إليها "إشعياء"، وكأنها تُظهر قوة الله، وتتمم قصده. ففي عام (٥٤٩ ق.م.)، تحركت جيوش ذلك الملك الفارسي نحو مملكة الشمال وافتتح «اكبتانا»، وضم الدولتين إحداهما للأخرى في دولة موّحدة عُرفت فيما بعد «بمملكة مادى وفارس». وفي حملة شتوية لاحقة، استطاع أن يكسر شوكة الملك "كروزوس" ملك "ليديا"، الذي كانت مملكته الثرية تضم أراضي «تركيا» الحديثة. وفي عام (٥٣٩ ق.م.)،

هـاجم جيـوش "الكـلدانيين"، وافتـتح «بـابل». ونجـد تـأييداً لذلك في مصادر ثلاثة: سفر دانيال، وتقرير تركه الملك المنهزم "نابونيدس" ملك «بابل»، وتقارير "سيرس" نفسه.

فمن التقارير التي تركها اتباع "نبونيدس" نجد هذه العبارة:

" حيـنما هاجم "سيرس" جيش العقادين، تمرد الشعب على ملكهم، وهرب "نابونيدس". وفي السـادس عشـر من شهر تشرين دخل المدينة هو و"غبرياس" حاكم "قوطية"، بدون مقاومة، ففـرش الشـعب أغصـان الأشـجار أمامـه. وأعـلن السـلام الشـامل في المديـنة، وأرسل "سيرس" تحياته إلى سكان «بابل»، وعَين "غبرياس" حاكماً من قبله على أرض «بابل»"

ومن تقرير "سيرس" نفسه نجده يقول:

" لقـد تطـلع مـردوخ، وفحـص بـين الشـعوب لـيجد حاكمـاً بـاراً يقوده ... ثم نطق باسم "سـيرس" مـلك "أنشـان" وعيـنّه حاكمـاً على العالم أجمع. وجعل مملكة «القوط» تسجد أمامه، وكـل جماهير «الماندا». ولقد اجتهد أن يحكم الشعوب ذات الرؤوس السوداء التي أُخضعت له، فـنظر مـردوخ الإلـه العظيـم، حـامي عـبيده، بسـرور عظيـم هـذه الأعمـال الـبارة، وهذا القلب المستقيم، وأمـره بعـد ذلـك أن يهـاجم مدينته «بابل»، وسار إلى جواره كصـديق مع صـديقه، أما فِـرقه العسـكرية المنتشـرة، والـتي لا يعـرف عددهـا، فهـي كأمواج البحر، فقد تقدمت دون أن تُشـهر سـيفاً. وعاونـه الإلـه بـلا معـركة ليدخـل بابل، دون أن يلحق بها أذى. ودفع إلى يديه "نـبونيدس" المـلك الذي لم يسجد له (أي الإله) ولم يعبده، وكل سكان «بابل». وأيضاً كل دولة «سـومر»، و«عقـاد»، والملوك، والرؤساء، والحكام، انحنوا أمام "سيرس". وقَبلوا قدميه، بوجوه مستبشـرة، مشـرقة فـرحين لأنـه جلس على العرش، وانقذهم من الموت إلى الحياة، فلم يمسهم بـأذى ومجـدوا اسمه ... وحينما دخلت إلى بابل كصديق للشعب، اثبتُ الحكم في قصر الحاكم بهـتاف، وفـرح عظيـم، وقـد حـث "مـردوخ" الشـعب على محبتي، وأنا كنت اعبده كل يوم. وكانت فِرق جيشي تطوف «بابل» في سلام".

أمـا قصـة التوراة، فهي مسطرة في سفر دانيال (٥: ٢٥، ٣١)، وهنا نجد وصفاً موجزاً لسقوط

المدينة.

على أن هناك أمرين يسترعيان الانتباه في قصة التوراة. أولهما، أن حاكم «بابل» ليس "نابونيدس"، ولكن "بيلشاصر". وثانيهما، أن الملك الغازي ليس "سيرس"، ولكنه "داريوس – المادي". ويذكر الكتاب قصة مأدبة "بيلشاصر"، وكيف أنه احضر أواني الهيكل التي غنمها في "سبي أورشليم"، وشرب بها الخمر، وكيف أن يداً قد كتبت مصيره الرهيب على الجدار، وقد فسّر له ذلك "دانيال"؛ فكافأه بأن جعله متسلطاً "ثالثاً"[1] في المملكة. ولكن هذا التناقض الظاهري قد فسرته لوحات أثرية أخرى، فيها يُذكر اسم "بيلشاصر" كالمولود البكر "لنبونيدس"، وفي إحداها وردت هذه الكلمات:

" ولقد دفع شئون معسكره لسلطان ابنه البكر.

وجعل كل القوات في كل مكان في الدولة تحت أُمرته.

ووكّل إليه شئون المُلك ..

أما هو فقد ذهب في رحلة طويلة ..

وقوات "عقّاد" الحربية معه،

واتجه إلى تيماء في أقصى الغرب"

أما التقارير التي أتت بعد ذلك عن السابع، والتاسع، والعاشر من أعوام مُلكه، فقد قضاها "نبونيدس" في «بلاد العرب»، بينما بقي "بيلشاصر" ابنه على عرش «بابل» في أرض "عقّاد". وعلى ذلك، كانت «بابل» تحت حكم بيلشاصر قبل سقوطها. هذا المُلك المزدوج يفسر لنا لماذا لم

[1] وجعله "ثالثاً" على المملكة بدلا من أن يجعله "ثانياً"، وذلك بسبب وجود الملك الأب "أولاً"، ثم الابن "ثانياً". فالمكانة التالية لدانيال أن يكون "ثالثاً" دون تناقض، فهذا تناقض ظاهري. اقرأ أيضاً: كتاب "شبهات وهمية حول الكتاب المقدس"، للرد على هذا التناقض الظاهري [المُراجع].

يكـن في سـلطان "بيلشاصر" أن يعين "دانيال" ثانياً في المملكة، كما كنا نتوقع، فنبونيدس "الأول". وبيلشاصر "الـثاني"، أمـا دانيـال فقـد نـودي به "ثالثاً" في المملكة ... ولكن الحفريات لم تقدم لنا دليـلاً عمَّـن يكـون "داريـوس – المـادي" هذا. وقد قال البعض إنه ربما يكون "غبرياس"، الذي له فضل الاستيلاء على المدينة أولاً. ولكن لا يوجد دليل يؤيد هذا الزعم.

وباخضـاع «بـابل»، أصـبح "سـيرس"، السـيد المطـلق في الدوائـر السياسـية، والاجـتماعية، والديـنية، أصـبحت مملكـته المركـز الرئيسـي لـثقافة العـالم القديـم، بـل بواسـطته سـقطت آخـر إمـبراطورية للسـاميِّين، وبـدأ عهـد الآريـين من فُرس وروماں ويونان، ليظهروا على مسرح التاريخ. وقـد أتـبع "سـيرس" في ميدان السياسة، نهجاً جديداً يخالف من سبقوه. ونحن نقرأ في تقريره هذا القول:

"أما عـن المـناطق التي تصل "لأشور"، ... فقد أعدتُ لها معابدها التي خُرِّبت منذ زمن بعيـد. والصـور الـتي كـانت بهـا وأقمـت فيهـا هياكل ثابتة. ثم جمعت كل السكان السابقين. وأعـدت لهـم مـنازلهم وأملاكهم. وأكثر من هذا أعدت، بأمر سيدي "مردوخ" الإله العظيم. كل آلهـة "سـومر"، و"عقّاد" التي أحضرها "نبونيدس" إلى «بابل»، وسبَّب بذلك غضب رب الآلهة – أعدتهـا إلى معابدهـا السـابقة، التي كانت سعيدة فيها، دون أن يمسها أذى ... ليت الآلهة الـتي أعدتهـا إلى مدنها المقدسة، تشفع لي عند "بعل"، و"نبو"، طالبة لي طول العمر. وياليتها توصـي سيدي "مردوخ" بي، سائلة هكذا: "سيرس" الملك الذي يعبدك، و"قمبيز" ابنه".

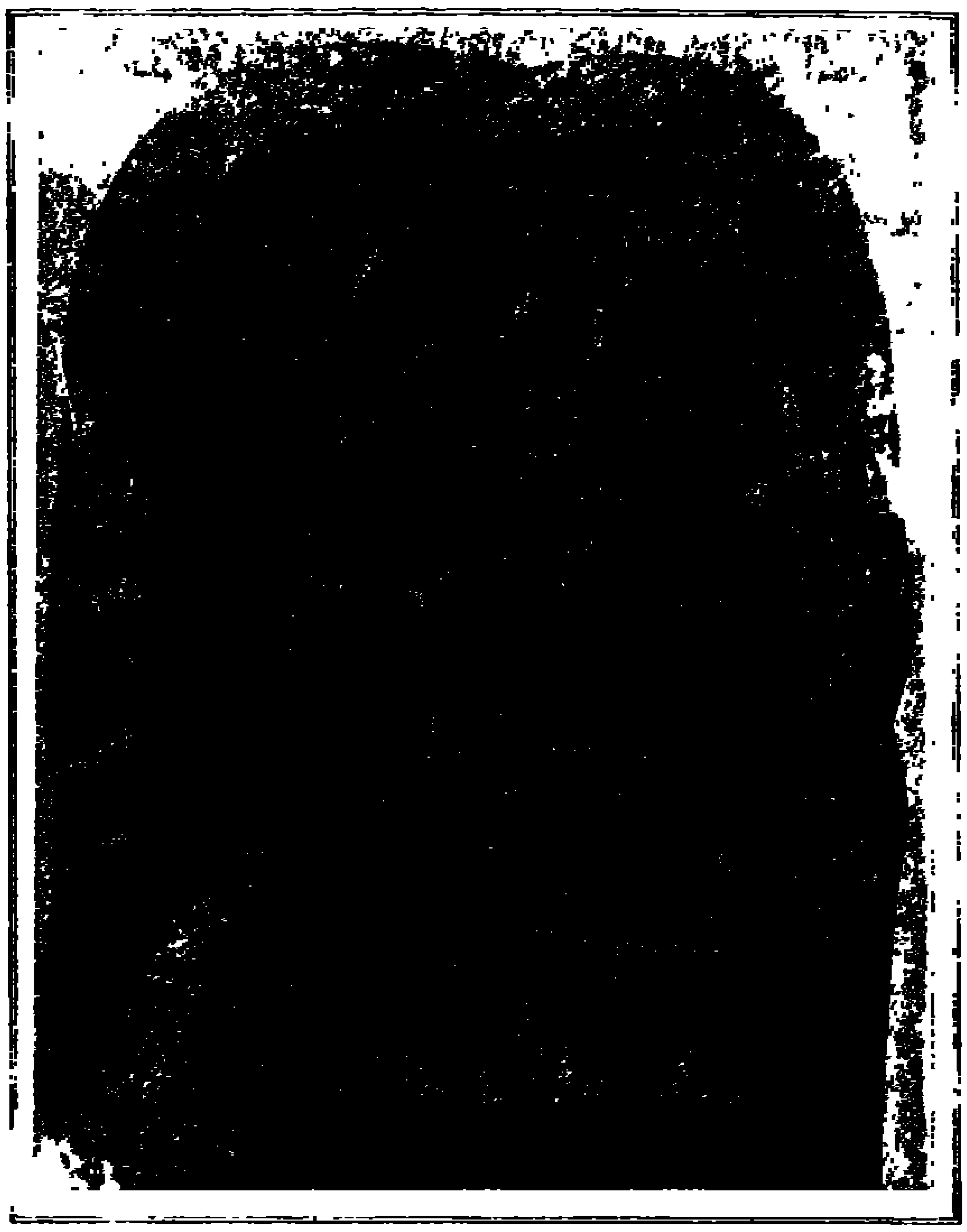

❑ الإله البعل على عرشه.

وهكذا لا ندهش حينما نرى "سيرس" يأمر بعودة اليهود إلى موطنهم، كما تنبأ بذلك الأنبياء في سفر عزرا (٦،٥). وفي سفر عزرا أيضا، نجد قصة رجوعهم إلى أراضيهم الخربة. ومن التنقيب في الآثار نرى مبلغ الخراب الذي حل بالأرض في عهد "نبوخذ نصر"، فقد مُحقت من الوجود مُدن بأكملها، وسُبي سكانها، وهكذا اقتضى الأمر قروناً طويلة، حتى تعود البلاد إلى سابق حالتها، وجاء بعد "سيرس" ابنه "قمبيز" الذي لم يستمر في الحكم أكثر من ثماني سنوات. ثم جلس على عرش «مادي وفارس»، "داريوس الأول" (داريوس الكبير). وباعتلائه العرش، أصبحت "الزرادشتيه"، ديانة الدولة الرسمية. وهذا هو "داريوس المادي" الذي يشير إليه الكتاب مراراً، ففي سفر حجي، نجد رسالة تنبؤية تُرسل "لزربابل" في الشهر السادس من السنة الثانية لحكم "داريوس". وأول عظة يتقدم بها "زكريا النبي" في الشهر الثامن من نفس السنة، وإعادة بناء الهيكل قد تم في السنة السادسة من مُلك "داريوس" (١٢ مارس سنة ٥١٥ ق.م). وفي

"دانيال" (أصحاح ٦)، نجد إشارة للتنظيمات التي كانت الطابع المميز لحكم "داريوس".

ولقد اكتُشفت آثار ثلاثة في «إيران»، تتحدث عن "داريوس الكبير". وأهمها من جهة البحث التاريخي تلك الكتابة المخطوطة على آثار "بستون"، فقد كانت هي المفتاح الذي فتح مغاليق الكتابة المخروطية المسمارية. وأعظم أثر له، مجموعة القصور التي تعرف بعرش "جمشيد" أو "برسبوليس". أما الأثر الثالث فهو قبره المنحوت في الصخر "نقشى رستم".

وقد اتخذ "سيرس" عاصمة لُلكة مدينة "بأسرجدي" التي تبعد ٢٥ ميلاً من "بيرسبوليس"، واتجه لإقامة مجموعة من البنايات الفاخرة على مسطح طوله ١٥ ألف قدم. واستمرت هذه المدينة عاصمة "الآشوريين" حتى آتى "الاسكندر الأكبر" وغزا «فارس». وقد اكتُشف المنقبون هناك مدخلاً فاخراً، يحدُّه من الجانبين، ثيران مجنَّحة لها رؤوس بشرية، يؤدي إلى بهو فسيح يعرف «بالعبدانة» يرتكز سقفه على ٧٢ عموداً. وهذا يقضي بدوره إلى بهو أكثر اتساعاً به ١٠٠ عمود ثم يتجه إلى حريم "زركسن"، و"داريوس" وخزانة الملك، وهي قصور تجلت فيها روعة "الفن الأشموني"، ولم يصل إليها الفن الهندسي في «إيران» حتى الآن.

أما "زركس" الذي ورد في منحوتات "برسبوليس"، فهو بلا شك "أحشويرش" الذي ذُكر في سفر عزرا (٤: ٦). ومن بعده آتى خلفه "أرتازركس" الذي أرسل "نحميا" إلى «أورشليم» في السنة العشرين للملكة. وقد ذهب "عزرا" إلى «أورشليم» في السنة السابعة من مُلك "زركس". وإنْ كان المقصود بالاسم الأخير "ارتازركس"، فيكون ميعاد وصول "عزرا" لأورشليم (٤٨٥ق.م)، أي قبل وصول "نحميا". أما إذا كان المقصود بذلك "ارتازركس الثاني"، فإن التاريخ يكون ٣٩٨ق.م، ويذكر "نحميا" كيف أن "سنبلط" من «السامرة» قد حاول أن يفشِّل "نحميا"، في إعادة تعمير «أورشليم». وقد رُسم اسم "سنبلط" في بردية "فيلة"، وهي وثائق كتبها بعض اليهود المصريين، بالآرامية، ويرجع تاريخها إلى القرن الخامس قبل الميلاد. ويُذكر عنه أنه والد لولدين صارا حاكمَيْن على السامرة عام (٤٠٨ ق.م)، وهناك اسم آخر "يوحانان" الذي كان رئيس كهنة في «أورشليم» في ذلك الحين. و"يوحنان ابن الياشيب" في سفر نحميا (١٢: ٢٣)، الذي عاون في

إعادة بناء الهيكل، وهذا يؤيده ما ورد في البردي[1].

(1) مما يجعلنا نعتقد أن "عزرا" تبع "نحميا" – ولم يسبقه، مخالفين بذلك ترتيب الأسفار في كتابات الأنبياء. [المُراجع].

الباب الأول

الفصل الثاني عشر

قصة الكتابة
والمخطوطات القديمة

قصة الكتابة والمخطوطات القديمة

لقد دفعت الآثار بعض العلماء إلى الاعتقاد بأن فن الكتابة قد بدأ وانتشر من جنوب «العراق»، من "السومريين" في العصور السحيقة في القدم. وليست «العراق» فقط هي التي اكتُشفت ضمن آثارها القديمة أول أنواع الكتابة البدائية، بل قد اكتُشف فيها أيضاً المخطوطات الأولي لتطور الكتابة. ولقد كان "السومريون" يستعملون الأختام لتحقيق الشخصية، يضغطون بها على ألواح لينة من الطمي تترك لتجفف، فيبقى الأثر واضحاً. ومن هذه نبعت فكرة الكتابة التصويرية، وتطورت إلى استخدام الرموز، ثم تقدمت شيئاً فشيئاً إلى اختراع هجائية ثابتة.

أما المواد التي كانت تستخدم في الكتابة، فقد كانت تختلف من بلد إلى بلد تبعاً للمواد الطبيعية الكائنة بها، ولطبيعة مناخها. ففي «العراق» حيث يكثر الطمي، كانت ألواح الطمى، المجففة في الشمس، أو المحترقة بالنار، هي المادة الأولى للكتابة. و"مكتبة أشوربانبال العظيمة" اكتُشفت بها ستة آلاف لوح من هذه الألواح.

وفي إيران، حيث تكثر الصخور، والجو هناك اكثر رطوبة، فإن معظم ما وصلنا من أخبار قديمة سُطر، ونُحت، ونُقش على الصخور الصلدة – وأحياناً على رقائق الذهب والفضة. كما أن ألواح الطمي قد استخدمت أيضاً هناك، كما هو واضح من اكتشاف عدة آلاف منها في خرائب "برسبوليس".

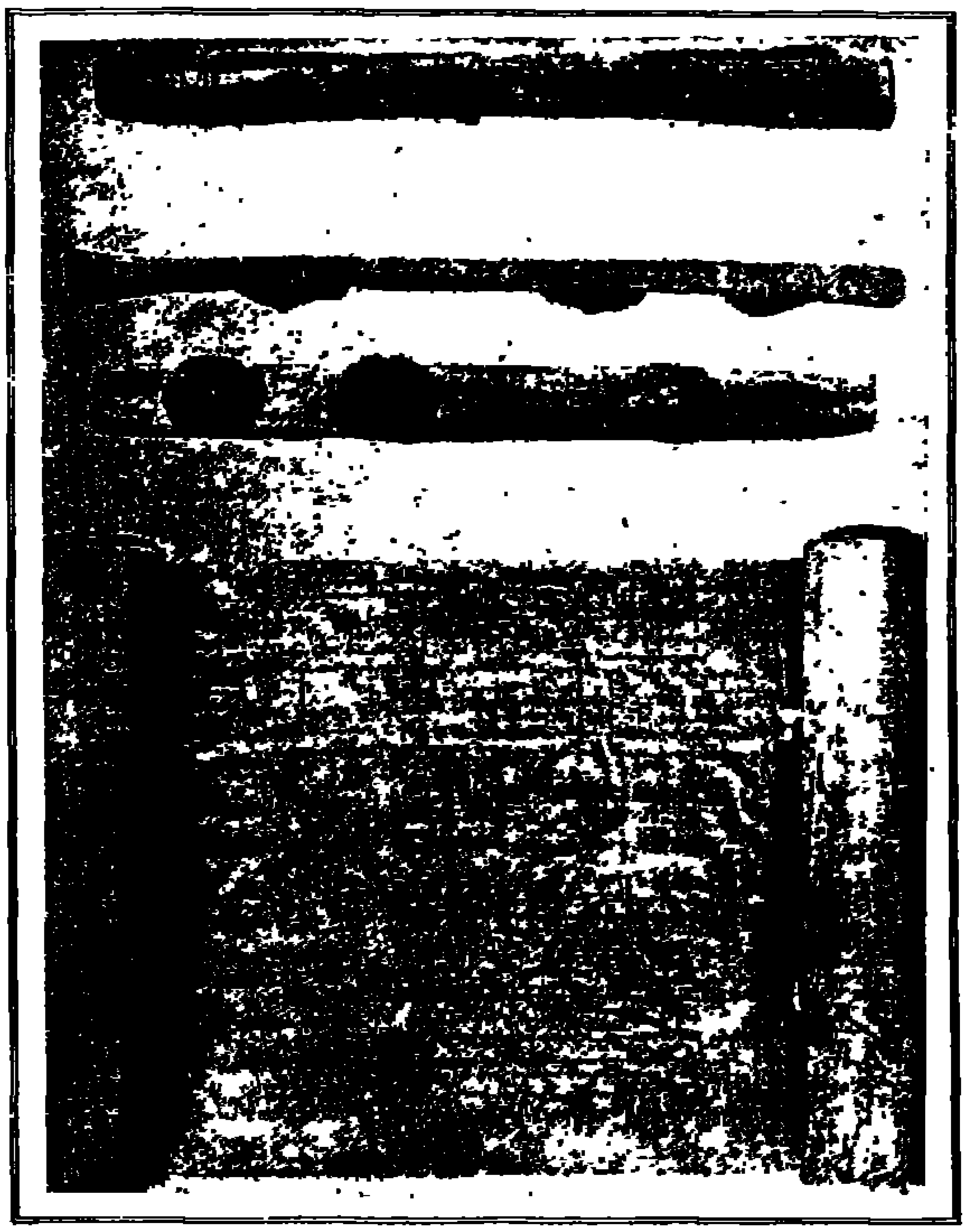

❑ رقوق من البردي.

أما في «وادي النيل» بمصر، حيث يكثر نمو نباتات "البردي" على الشواطئ الموحِلة غزيرة الطمي، فقد اكتُشف أنه يمكن صناعة مادة أكثر بقاءً للكتابة، من هذه النباتات. وقد تبلغ طول ساق البردي خمسة عشر قدماً، وسُمكه بقدر سُمك ذراع الإنسان. وعند تصنيعه كورق، تُنزع قشرته، ويُقطع اللب إلى شرائح رقيقة، توضع جنباً إلى جنب – بحسب المساحة المطلوبة، وفوقها توضع طبقة أخرى أليافها مستعرضة متقاطعة مع الطبقة السفلي، وتلصق الطبقتان معاً بالطمي والضغط والتجفيف في الشمس. ولعمل لفيفة كبيرة من البردي، يمكن لصق عدة شرائط قد تصل إلى أكثر من عشرين واحدة، وتصل في طولها إلى ٣٥ قدماً. وقد اكتُشف في مقبرة "رمسيس الثاني" لفيفة ضخمة تروي أخباره، ويبلغ طولها ١٣٣ قدماً، وارتفاعها وهي مطوية ١٧ بوصة[1].

---

(1) في القرية الفرعونية مازال يُقدم نموذج لصنع أوراق البردي على الطبيعة. [المراجع]

وكانت الكتابة تسطر في العادة على جانب واحد، في اتجاه موازٍ لألياف الطبقة العليا من البردي، ولو أن بعض اللفائف قد سطرت الكتابة عليها من الوجهين. وفي سفر الرؤيا (٥: ١) "ورأيت على العرش سفراً مختوماً من داخل ومن وراء"، وهذا يشير إلى نوع من الرقوق، أو المخطوطات التي سطرت على الوجهين. أما القلم الذي كان يستخدم في الكتابة، فقد كان من أعواد البوص. أو الغاب المبرية كالقلم الرصاص. وقد كانت تستخدم في ريف «مصر» إلى عهد قريب. ويكتب بها بغمسها في الحبر. أما المداد، فقد كانوا يصنعونه إما من السناج والصمغ والماء، أو من ثمار "العفص" – بعد سحقه ومزجه بكبريتات الحديد.

وفي القرن الأول للميلاد كانت اللفيفة تعرف "بالبيليون" ومجموعة اللفائف "ببليا". ومن هذه أتت كلمة "بايْبل – BIBLE"، وهي التي تُطلق على مجموعة أسفار الكتاب المقدس. أو لفائفه في اللغات الغربية. على أن البّعض يُرجحون أن كلمة "بايْبل"، أتت من الأصل "ببلوس"، وهي القلب الرخو لنبات "البردي" الذي كانت تصنع منه صحائف "البردي".

وفي «فلسطين» كانت الألواح المستخدمة في الكتابة من الخشب المغطى بالشمع الملون الأسود: وكانت الأداة المستخدمة قلماً صلباً يخدش بـه الشمع، فيترك أثراً. وهذا هو اللوح المشار إليه في بشارة لوقا (١: ٦٣)، حيث طلب "زكريا" لوحاً ليكتب عليه اسم المولود. وبالطبع، لم تكن هذه طريقة للكتابة الثابتة، لأن الشمع معّرض للانصهار عندما تشتد الحرارة، ولكنها كانت طريقة مؤقتة غالباً ما كانت تستخدم لتعليم الصغار. وكان الصغار يُعلقون هذه الألواح في زنار يشدونه إلى وسطهم. وغالباً ما كانوا يحتاجون إلى لوحين للدروس المختلفة. وخوفاً من أن يحتك اللوحان معاً، فتضيع معالم الكتابة، كان اللوح يحاط بغطاء مرتفع[1]. ومن هذا المظهر البدائي، نبعت فكرة الكتاب بشكله الحديث، فبطريقة ربط لوحين معاً أو ثلاثة ألواح من جانب واحد، يمكن الرجوع إلى وسط الكتاب، أو دفتيه دون كثير عناء يقتضيه فرد لفيفة طويلة من رقائق البردي. ومن هنا،

[1] وهذا هو الأصل في "ألواح الإردواز" التي كان يستخدمها الصغار في الشرق العربي.

نشأت فكرة صناعة "كتاب أوكودكس"، حيث خيطت قطع من البردي من جانب واحد، ومع أن البعض يرجّحون أن أول من قام بعمل "كتاب" في صورته الحالية هم المسيحيون الأولون، إلا أن هذا الرأي يحتاج إلى دليل. وعلى كل حال، كان المسيحيون هم أول من اعتنق هذه الفكرة، واستخدم الكتاب (الأوكودكس) لجمع الأسفار والرسائل معاً، وذلك قبل أن يبدأ العالم الوثني في نبذ اللفائف والرقوق بزمن طويل[1].

أما المادة التي كانت تستخدم في «فلسطين» للكتابة الثابتة، فهي قطع الخزف المكسور (أوستراكا). وقد اكتُشفت آلاف من هذه القطع، كانت مستخدمة في كتابة المذكرات، فضلاً عن الدروس في المدرسة، وبعضها كان يحمل آية أو آيتين من الكتاب المقدس، ولو أنه يُظن أن تلك كانت تستخدم كتعويذة[2]. ومن أهم الكتابات المكتشفة في «لاخيش» ما سُطِّر على الخزف.

ولم يكن البردي مُستخدماً في «فلسطين»، فقد كانوا يضطرون إلى استيراده من «مصر»، كما أن طبيعة الجو الرطب كانت تُعرِّضه للتلف. ولذلك، فقد اضطروا في أول الأمر إلى استخدام الجلود المدبوغة، جلود الحملان والخراف، وكذلك الرقوق المصنوعة منها، بعد تنقيتها من الشوائب، وقد كانت تستخدم للوثائق الهامة. ونقرأ في سفر إرميا (٣٦: ٢٣) أن الملك مزّق رسالة "إرميا" بالمطواة، وألقى بها إلى النار. وهذه الرسالة كانت مكتوبة، على الأرجح على رق من الجلد. ونقرأ أيضاً أن "بولس الرسول" في رسالته الثانية إلى تيموثاوس، طلب منه أن يُحضِر الرقوق، وهي في الغالب الرقوق المنسوخ عليها أسفار التوراة (٢تي ٤ : ١٣). وما أن حلَّ القرن الرابع للميلاد، حتى كان استخدام البردي قد بطُل تماماً في كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وحل محله استخدام الرقوق[3].

---

[1] وقد طالعنا الأهرام في ١٩٨٩/١/٢١ بنبأ عن "أقدم كتاب في العالم"، وقد كان عن اكتشاف سفر المزامير من القرن الرابع قبل الميلاد، ويحوي المزامير، وقد اكتشف في صعيد مصر. [المُراجع].

[2] تحويطة للشعبيين Folk People . [المُراجع].

[3] وفي عام ٣٣٢ م. أمر الإمبراطور قسطنطين المؤرخ "يوسابيوس". بأن يجهِّز للكنيسة في عاصمة مُلكه الجديدة، خمسين نسخة من رقوق الكتاب المقدس. وقد وُزعت على أنحاء المسكونة، ووصل بعضها إلى الجزيرة [يُتبع]

وكانت الكتابة تسطر على ثلاثة أعمدة، أو أربعة، وتُجلَّد صحائف الرقوق معاً، بحيث أن الجانب المكسو بالشعر، يقابل الجانب المكسو بالشعر، والجانب الأملس الذي عليه الكتابة يقابل الجانب الأملس. وكانت تُسطَّر خطوط غائرة في الجانب ذي الشعر، بحيث يسهل تتبعها مع وجود كتابة على الجانب الآخر.

ومن حجم الكتابة، وارتفاع الحروف اليونانية، كان يُعرف العصر الذي كُتبت فيه الرقوق. فجميع مخطوطات العهد الجديد، التي لا تتعدى القرن العاشر كلها كُتبت بحجم خاص [يُسمى: Uncial]، الذي يُعرِّفه العلماء بأن الحرف فيه يحتل ١/٣ من السطر. وعرَّفه آخرون بأن طول الحرف بوصة واحدة. وبعد ذلك، سُطِّرت الرقوق بحروف أصغر في الحجم. وهذه تعطي العلماء فكرة تقريبية عن تاريخ الكتابة.

وهناك أمر أخر يُعينهم على ذلك هو استعمال النقط، والتشكيل. فالكلمات في النُسخ القديمة لم تكن مفصولة الواحدة عن الأخرى، ولم تكن هناك فصول مستقلة الواحدة عن الآخر، بل كانت الكتابة تستمر من بداية العمود إلى نهايته بدون أي فراغ. كما أن السفر لم يكن مقسماً إلى أصحاحات. ولم يتم هذا حتى عام ١٢٣٨م، حينما قام النُسَّاخ، بإرشاد الكاردنال "هوجو"، بعمل أول نسخة للكتاب مُقسَّمة إلى إصحاحات. أما تقسيم الإصحاحات إلى آيات أو أعداد، فلم يتم حتى عام ١٥٥١م. وقد قام به العالِم "روبرت أتين". بالطبع هذا لا يؤثر أدنى تأثير على النص الأصلي، فقد حفظه الله عبر القرون.

العربية. وحتى القرن السادس الميلادي كان الكتاب المقدس معروفاً بخمس عشرة لغة في ذلك الوقت. فعرف العالم كله الكتاب المقدس بلغاته المختلفة وفي البلاد المختلفة، وهي نسخ تطابق بعضها البعض، فأنّى لمحرف أن يجمع كل نسخ العالم في كل الأماكن وعبر كل العصور؛ ويحرّفها نفس التحريف! ! منطقيا يستحيل ذلك، فنسخ القرون الأولى تتفق مع ما لدينا الآن اتفاقاً مذهلاً [المُراجع].

المخطوطات القديمة الهامة

من بين آلاف المخطوطات القديمة التي تحتوي أجزاء من الكتاب المقدس، نعرف الآن أربع نسخ هي أكمل هذه المخطوطات، وأقدمها، وأهمها وأشهرها نُسخة الفاتيكان (كودكس فاتيكانس). وسُميت هكذا، لأنها كانت مِلك "مكتبة الفاتيكان – بروما"، وبقيت هناك معظم تاريخها. ولقد ذُكرت هذه النسخة ضمن محتويات المكتبة التي سُجِّلت عام ١٤٧٥م. وحينما اجتاحت جيوش "نابليون" "إيطاليا"، نُقِلت النسخة إلى "باريس"، وقام بدراستها أحد العلماء، من عام ١٨٠٩إلى ١٨١٥. وفي عام ١٨٩٠ صُوِّرت صفحاتها صحيفة صحيفة، وعُرِضت نسخ من هذه الصور للبيع للجامعات والمتاحف. وتقع "نسخة الفاتيكان" في ٨٢٠ صحيفة. وكل صحيفة سُطِّرت بها الكتابة في ثلاثة أعمدة؛ كل عمود منها يحتوي على ٤٢ سطراً. ويُرّجِح الخبراء أنها كُتبت في تاريخ لا يتعدى منتصف القرن الرابع للميلاد.

أما النسخة الثانية التي تليها في الأهمية فتُعرف "بالنسخة السينائية". وذلك لأنها اكتُشفت في "دير سانت كاترين" المقام على سفح "جبل سيناء"، والذي يعتبر من أقدم الأديرة في العالم، لأنه بُني عام ٣٧٢ للميلاد، بأمر الملكة "هيلانة" والدة الملك "قسطنطين". والدير قائم حيث كانت العُليقة التي رآها "موسى" مشتعلة بالنار، وقد أُطلق على الدير اسم "القديسة كاترين" التي استشهدت خلال فترة حكم الإمبراطور "مسكيمان" (٣٠٥ – ٣١٣م). وبالنسبة لبناء هذا الدير في صورة حصينة ترتفع فوق مستوى الوادي، فقد جعله هذا يحفظ من الخراب والدمار خلال فترة تزيد على ١٦٠٠ عام.

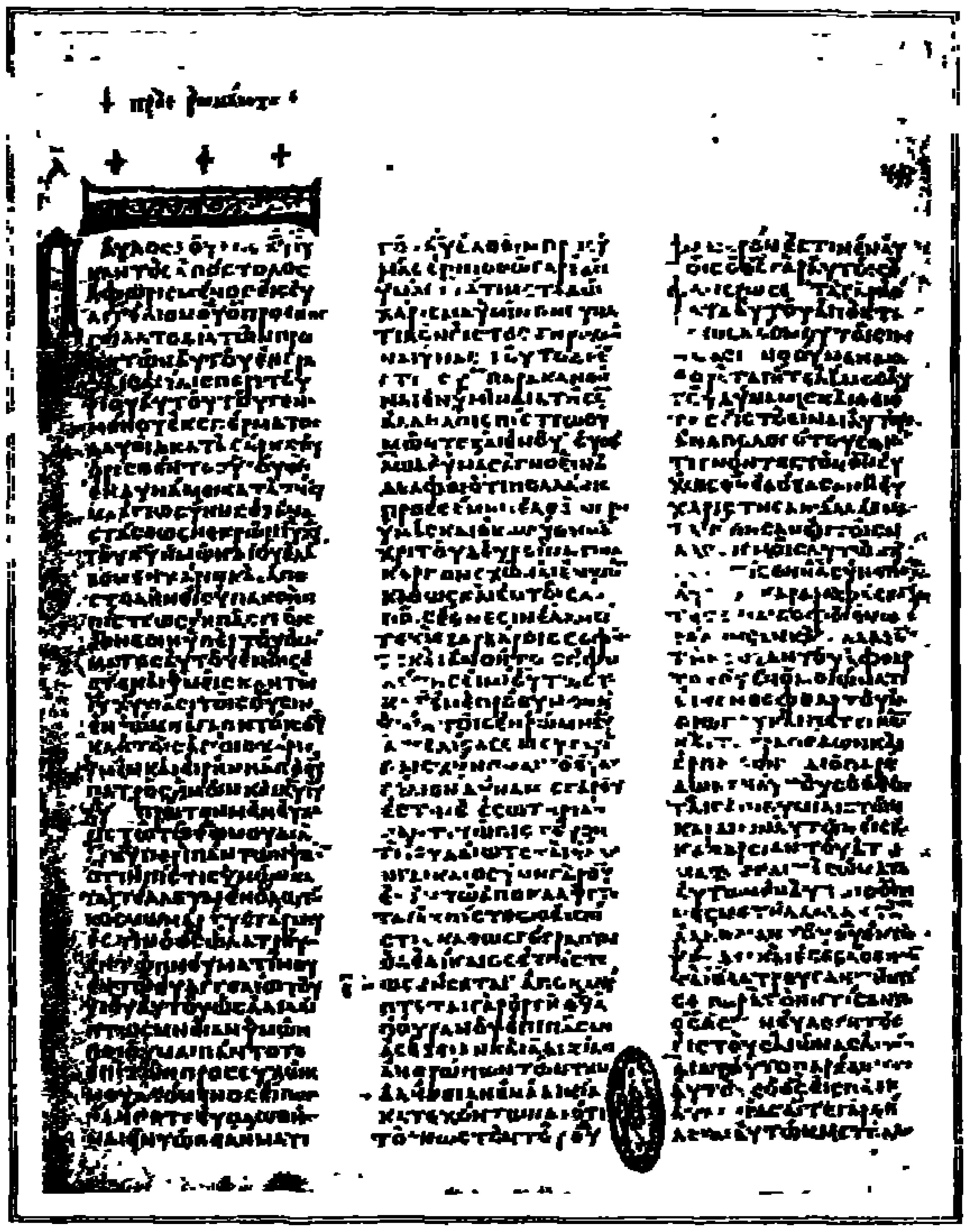

☐ صورة من النسخة الفاتيكانية لمخطوطات الكتاب المقدس.

وقد اكتشف هذه النسخة عالم ألماني يُدعى "قسطنطين تشندرف"، قام عام ١٨٤٢م بزيارة الدير بحثاً عن هذه النسخة الأثرية. وفي إحدى غرف الدير، وجد سلّة تحتوي على مجموعة من الرقوق القديمة، قيل له أنها من المهملات المُعَدّة للحريق، وأنه قد أُحرقت من قبل سلّتان نظيرها. وقد سُمح لهذا العالم بنقلها لفحصها، فوجد أن عددها ٤٥ رقاً، تحوي بعض أجزاء من الأسفار المقدسة. وفي عامي ١٨٥٣، ١٨٥٩م. عاد ليجد الأجزاء الناقصة منها، في لغة [حروفها يونانية] ضخمة. قدمها أحد الرهبان. ولدهشته وسروره، وجدها تحتوي على العهد الجديد بأكمله، وأجزاء من العهد القديم، مع رسالة أخرى بعنوان "راعي هرماس"[1]، فاشترى الكل بمبلغ ٦٧٥٠ دولاراً ونقلها إلى "بتروجراد"، حيث صُوِّرت صحائفها، ووزعت على المتاحف. ولما قامت الثورة

[1] ورسالة أخرى اسمها "رسالة برنابا" وهي غير إنجيل برنابا، وللمزيد راجع كتاب: "إنجيل برنابا" الطبعة التاسعة – دار النشر الأسقفية.

الشيوعية، عُرضت النسخة للبيع، فاشتراها المتحف البريطاني، بعد أن اكتتب الشعب بنصف ثمنها، بمبلغ نصف مليون دولار.

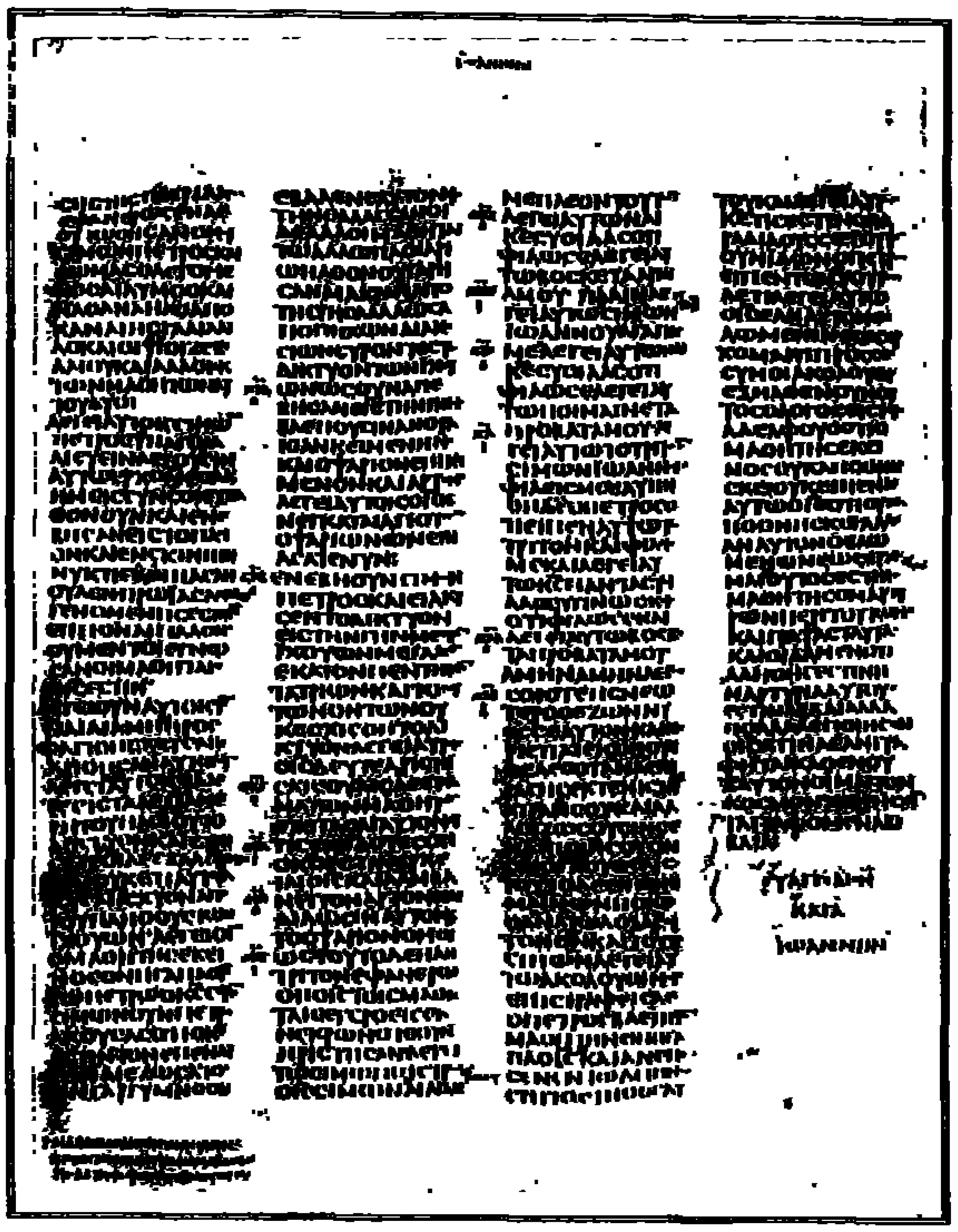

☐ صورة للمخطوطات السينائية للكتاب المقدس

و"النسخة السينائية" الأصلية يُرَجح أن عدد صفحاتها كان ٧٣٠ صفحة، أحرق الرهبان منها، لعدم تعرفهم عليها، ٣٤٠ صفحة، ولم يبقَ الآن سوى ٣٩٠ صفحة. ويُظن أنها كُتبت في التاريخ الذي كُتبت فيه "نسخة الفاتيكان". والبعض يظن أنها إحدى النسخ الخمسين التي أمر "قسطنطين" بنسخها، لاستخدامها في كنائس العاصمة[1].

والنسخة الثالثة التي لا تبلغ في قدمها النسختين السابقتين، هي "نسخة الإسكندرية"،

---

[1] وإذا كانت أجزاء فقدت من إحدى المخطوطات، فوجود خمسين نسخة أخرى كافٍ للمقارنة ومعرفة واستنتاج النسخة الكاملة [المُراجع].

قدّمها بطريك "القسطنطينية" في عام ١٦٢٤م. هدية للسفير البريطاني في تركيا. ويعتقد البعض أنها كُتبت بيد "القديس تكلا" أحد المعاصرين للرسول "بولس"، ولكن هذا الرأي يحتاج إلى إثبات. وقد نُقلت هذه النسخة من الإسكندرية، حينما كان هذا البطريرك على كرسي الإسكندرية وقبل أن يصبح بطريركاً على القسطنطينية، لأنه وجدت هذه الكلمات مسّطرة عليها:

"مهداة إلى المحراب البطريركي في مدينة الإسكندرية ومن ينقلها تحلُّ عليه اللعنة، ويُحرم" – إمضاء "أثناسيوس الحقير". ويُعتقد أن "أثناسيوس" كان بطريركاً على كرسي «الإسكندرية» حتى عام ١٣٠٨م، و"نسخة الإسكندرية" كانت تحوي ٨٢٠ صحيفة، بقي منها ٧٧٣ صحيفة، يُرَجح أنها كُتبت في القرن الخامس الميلادي.

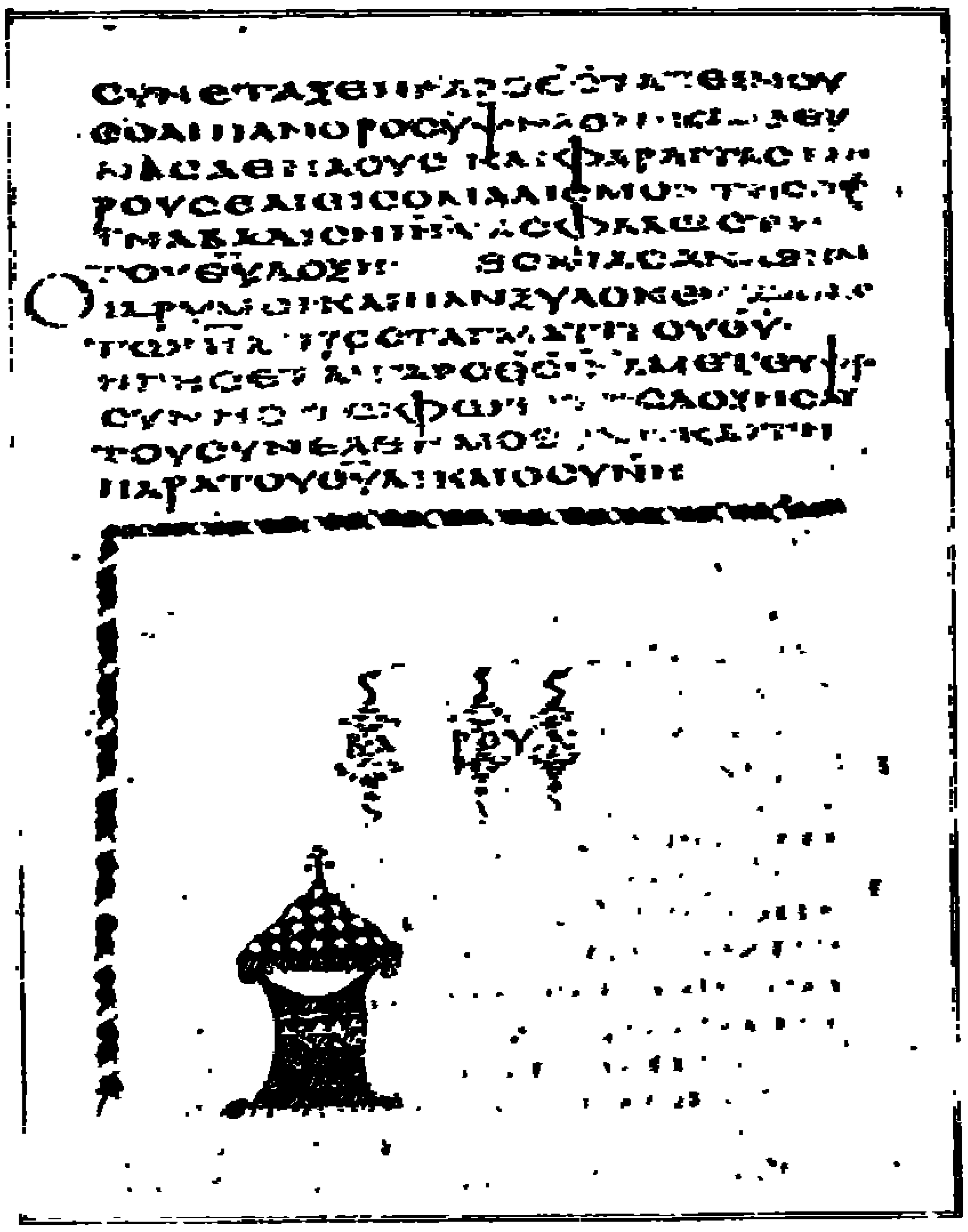

❑ النسخة الإسكندرانية لمخطوطات الكتاب المقدس.

والنسخة الرابعة هي "نسخة أفرايم" (كودكس أفرايم)، وهي من القرن الخامس أيضاً، وكما

تفيد كلمة " رسكوبتوس"، استخدمت رقوق هذه النسخة في القرن الثاني عشر، لكتابة مصنف اللاهوتي "أفرايم السرياني"، الذي عاش في القرن الرابع للميلاد، وذلك بعد أن بهتت وتلاشت سطور كلمات الكتاب المقدس المسطورة عليها في البداية. وهذه النسخة كانت مِلْك عائلة "مديشي" في «فلورنسا»، ونقلتها "كاترين دي مديشي" إلى «باريس» في القرن السادس عشر. ولم يفلح أحد في قراءة كلماتها الأولى حتى قام بذلك العالم الألماني "تشندورف"، الذي عثر على النسخة السينائية. ومعظم صحائف هذه النسخة من العهد الجديد مكتوبة في عمود واحد بلا فواصل بين الكلمات. وهكذا .. نرى أن معظم نسخ الكتاب الأثرية لم تكن معروفة حين قام العلماء بعمل الترجمة الشهيرة للكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية عام ١٦١١م، وهي المعروفة بترجمة "الملك جيمس – King James Version"، مما دعا الكثيرين إلى إعادة النظر في ترجمة الكتاب المقدس ترجمة حديثة على ضوء الاكتشافات الأخيرة.

وعلاوة على هذه النسخ الأربع الأثرية، اكتُشفت مئات من أجزاء متفرقة من الكتاب، ونُسخت في عصور كثيرة. ومهما وقع النساخ في أخطاء – إلا أنها لا تؤثر على استنتاج نسخة كاملة من القصاصات. أما عن النسخ التي ترجع إلى القرن الأول أو الثاني للميلاد، فهي قليلة. ولكن يكفينا أن نعرف أن لدينا نسخاً قديمة من الكتاب المقدس أكثر من أي كتاب أثري آخر في العالم كله، وهذا يؤيد صحة الكتاب الذي بين أيدينا.

الباب الأول

الفصل الثالث عشر

في كهوف البحر الميت

في كهوف البحر الميت

سوف نعرض في لمحة خاطفة لتاريخ "مخطوطات البحر الميت" التي تحوي الكتاب المقدس، ومتضمناتها، ثم نتحدث عن سؤال أثارته هذه الاكتشافات، وهو: هل كان "المسيح" من "طائفة الاسينيين"؟! وهل استمد تعاليمه منهم؟!

وقد اكتُشفت هذه المخطوطات، اتفاقاً بالصدفة البحتة، في كهف قديم بالقرب من «البحر الميت». وبيع بعضها إلى "ماراثناسيوس" رئيس رهبانية القديس "مرقس" «بأورشليم»، والبعض الآخر إلى "د/ سوكنك" رئيس قسم الحفريات بالجامعة العبرية، واشترك في فحصها أساتذة مدرسة الأبحاث الشرقية الأمريكية. فظهر أن إحداهما نسخة كاملة من "سفر إشعياء"، يرجع تاريخها إلى مئة عام قبل ميلاد المسيح، وهي تعد لذلك أقدم نسخة لسفر من أسفار التوراة موجودة بين أيدينا حتى الآن. وقد أُثبتت صحة هذا التاريخ. بالتجربة العلمية [1]. وكذلك فحص الأواني الخزفية التي كانت محفوظة بها هذه الرقوق، كما اكتُشفت بالقرب من المكان خرائب دير

[1] عن طريق (الكربون ١٤) المشع (Carbon 14)، الذي ذكرنا عنه سابقاً أن عمره في التحلل أطول من الكربون العادي. وهو يتحول إلى (كربون ١٢) مع الزمن، والذي يمكن حسابه بأجهزة دقيقة.

للرهبان "اليهود"، هم في الغالب نُسَّاخ[1] هذه الأسفار. واكتُشفت أيضاً نقود يرجع تاريخ تداولها إلى الفترة ما بين (١٠٠ ق.م.). إلى بداية القرن الميلادي الأول.

❑ نموذج من نسخة مخطوطات قمران، المكتشفة ١٩٤٧م.

وأما تجربة (ك ١٤) أو (كربون ١٤)، فقد أثبتت أن الكتان الذي لُفّت به هذه الرقوق أُخذ من نبات نما في عصر المسيح، أو قبيل مولده ويبدو أن الرقوق كانت محفوظة من قديم لدى أصحابها، قبل أن تؤخذ، وتلف بالكتان، وتحفظ في الجرار إلى يوم اكتشافها، وذلك لوجود أماكن ممزقة فيها قام أصحابها بلصقها. بالإضافة إلى سفر إشعياء[2]، اكتُشف ضمن هذه المخطوطات تفسير "لسفر حبقوق"، وكتاب عنوانه "كتاب النظام"، وآخر بعنوان "حروب أبناء النور مع أبناء الظلمة"، وتعليق على جزء من "سفر التكوين". أما "تفسير حبقوق" فهو محاولة لتطبيق النبوات التي وردت به على الحوادث المعاصرة لذلك العهد. ويرد فيه ذكر غزاة أمميين

(١) "النُسّاخ" هم الذين ينسخون، أي يكتبون بأيديهم، وليس المقصود هُنا النسخ بمعنى الإلغاء، حتى المسيح نفسه لم يأت لنسخ أو لنفي ما قبله بل جاء يكمله، فقد أكمل الناموس (الشريعة). وأعطى له البعد والعمق الروحيين. [المُراجع].

(٢) الذي كان يُعتقد أنه سفران منفصلان، لكنهما وُجدا كسفرٍ واحدٍ كما هو بين أيدينا. [المُراجع].

يُعرفون باسم "شعب شطيم"(1) ، (أو كتيم)، ولا يدري أحد منْ المقصود بأولئك، ولعلهم "الرومان" أو "المكدنيون".

و"كتاب النظام" يحوي قواعد لسلوك هذه الجماعة الرهبانية، وهي "طائفة الأسينيين"، ومنها عُرف الكثير عنهم.

وكتاب "حروب أبناء النور مع أبناء الظلمة"، مخطوط غامض لا يُعرف إن كان المقصود به تفسير نبوي ، أو رمزي، أو تاريخي.

ومخطوط "مزامير الشكر" به ما ورد في سفر المزامير الذي بين أيدينا ... وهناك مخطوط آخر كتبت عليه من الخارج كلمة "لامك". وكان يُظن أنه "سفر لامك". أحد أسفار الأبوكريفية الضائعة. ولكن ظهر أنه يعلق على بعض الأصحاحات من "سفر التكوين". ويبدأ من الأصحاح الخامس. ويذكر الكثير عن جمال "ساراي" زوجة "إبرام".

وقد أدت هذه الاكتشافات إلى حماس وغيْرة بين الباحثين، دفعتهم إلى التنقيب في كل كهف في الصحراء بحثاً عن أسفار مماثلة. وقد أدى هذا إلى اكتشاف عدد كبير من الرقوق والمخطوطات، بحيث أصبح بين أيدينا مخطوطات كاملة لأسفار العهد القديم – عدا "سفر أستير". ويقدر البعض أن العلماء يحتاجون إلى خمسين عاماً، على الأقل. لفحص هذه الذخيرة العظيمة.

وقد دحضت هذه الاكتشافات زعم البعض بأن "سفر الجامعة" قد كُتب عام ١٠٠م. أو ٢٠٠ م.، لأنها قد أظهرت لنا أن السفر كان متداولاً عام (١٥٠ ق.م.).

على أن اكتشاف هذه المجموعة الهائلة من المخطوطات، في وقت كانت تنسخ منه كتب.

(١) لعل المقصود بكلمة "شطيم" الشعب الذي يسكن الشطوط أو الشواطئ البعيدة، وربما يؤيد هذا أنهم من "الرومان" أو "المكدونيين". [المراجع].

قـد دفـع العلماء إلى الاعتقاد بأن جماعة منظمة كانت تقوم بهذا العمل. وبدأ العلماء يحفرون منّقبين عـن أسـرار هـذه الجماعة الخفية، فبدأوا بالحفر في «وادي قمران» القريب من المكان، حيث كانت هـناك بقايـا قـلعة يحتـلها جـنود الكتيـبة العاشـرة مـن "الـرومان". وقـد أثبت الحفر أنه وإن كان "الـرومان" قـد احتـلوا المكـان ثـم أحـرقوه – إلا أنـه كـان قائماً قبل ذلك بكثير، وكان يقطن به ما يقرب من مئتي شخص من "اليهود".

والبـناء قـلعة مكونـة مـن طابقين: الأسفل صالة للاجتماعات، والأعلى مخصص للكتابة. وقد اكتُشـفت بـه بقايـا مكـاتب ومحابـر مـن الـنحاس، والخزف الصيني، وأوانٍ للاغتسال، وفي الدور الأرضي حجرة للطعام بجوارها مطبخ به سبعة عشر إناءً للطهي.

وبالقـرب من القلعة، اكتُشف مصنع كبير للخزف، يعتبر أعظم مصنع اكتُشف في «فلسطين». بجـواره حفـرة كـان يُقطـع مـنها الطـين لعمـل الفخـار، وبقايا برك، أو أجران كبيرة للماء، كانت تسـتخدم للوضـوء[1]، أو للاغتسـال. وقـد أثـبت اكتشاف مجموعة من قطع النقود تاريخ هذا المكان بصفة قاطعة.

ومن قطع النقود الفضية، عُرف أنه توالت على ذلك المكان فترات ثلاث. فبعضها تاريخه من (١١٠ ق.م – ٣٧ ق.م.)، والـبعض الآخر من (٤ ق.م. – ٦٨ ب.م.)، والبعض الثالث الذي تغطى بطـبقة كثيفة من الرماد المحترق، تاريخه من (٦٨م. – ١٠٠م.). وهكذا ... يتضح لنا أنه وإن يكن "الـرومان" هـم الذين احتلوا المكان وعسّكروا فيه، ثم أحرقوه بعد ذلك، إلا أن السكان الأولين كانوا من "طائفة الأسينين".

ومـن كـتابات "ف. يوسـيفوس" نعـرف الكـثير عـن هذه الجماعة، التي يضعها "يوسيفوس"

(١) والترجمـة "للوضـوء" تـرجمة دقيقـة، فقـد كـانت هـناك غسلات وأنواع من الوضوء قبل الصلاة في العديد من الأمـاكن، ومنها الجزيرة العربية، وللمزيد راجع: "الجذور التاريخية للشريعة" – دار سينا للنشر، ص ٢٠– ٢٥. [المراجع].

جنباً إلى جنب مع "الفريسيين"، و"الصدقيين"، بل إن مديحه لهم يرفعهم إلى درجة أعلى في القداسة من كل الطوائف اليهودية الأخرى. فهم "يفوقون كل أولئك الذين يُدمنون الفضائل"، وكل شيء كان بينهم مشتركاً، وكانوا يمتنعون عن الزواج، ولا يحتفظون بخدم، بل يقومون بأعمالهم بأنفسهم. ومع أن بعضهم كان يعيش في المدن، ويتميزون بالكرم، والفضيلة، إلا أن معظمهم كانوا يعيشون في مستعمرات وأديرة في حياة أشبه ما تكون بالحياة الاشتراكية، ويذكر "يوسيفوس" الكثير عن صلواتهم وطقوسهم وتزمتهم وتدقيقهم في سلوكهم، ومحبتهم للكتب والمعرفة. ويذكر أيضاً الفروض والممنوعات، التي كان لزاماً على من ينضم إليهم أن يمارسها. وقَسَم السريّة الذي كانوا يرتبطون به. وينطبق ما ورد من قوانين في "كتاب النظام" مع ما أورده "يوسيفوس". وقد ازدهرت "طائفة الاسينيين" من بداية العهد المكابي (١٧٥-١٣٢ ق.م)، واستمرت حتى سقوط «أورشليم» عام ٧٠ للميلاد ...

هذه الاكتشافات دفعت إلى الظن أن الكثير من التعاليم الواردة في العهد الجديد، ورسائل "بولس" مصدرها كتابات وتعاليم هذه الطائفة. بل لقد بالغ البعض في القول بأن التلاميذ كانوا من "الاسينيين"! وأن يسوع نفسه كان "أسينياً"[1]! بل قالوا بأن هناك مسيحاً آخر، يشير إليه "الأسينيون"، سبقت حياته وتعاليمه، حياة وتعاليم مسيح العهد الجديد الذي اقتبس الكثير منها! وإليه يُشير اتباع هذه الطائفة في كتاباتهم بلقب "مُعلم البر".

صحيح أن هناك مشابهات عدة بين معتقدات "الأسينيين" ومعتقدات "المسيحيين"، ولكن هناك اختلافات كبيرة، وسنعرض لهذه وتلك.

بالنسبة للمشابهات بين الطرفين:

يعتقد الاثنان معاً أنهم شعب العهد الجديد، أو الموعد. وأن أعظم الوصايا هي محبة الله، ومحبة القريب، وأن هناك مجموعة من اثني عشر شخصاً سيدينون المسكونة في اليوم الأخير ..

[1] راجع: كتاب د. نبيه فريز حول نفس الوضوع [المُراجع].

وأن كـل واحـد مـن اتـباع طائفـتهم هـو ابن للنور. وكان لهم "عشاء مقدس" يرددون فيه الصلوات. و"معموديـة" يُـلزمون بها. وكل منهم كان يعتقد أن الأيام التي كانوا يعاصرونها هي الأيام الأخيرة، حيـث يتصـارع الخـير مـع الشر. ولهذا يجب اتباع الحق والبرّ، لأنه قد اقترب ملكوت السموات. بـل أن هـناك مشابهة كبرى في الأسلوب بين "إنجيل يوحنا" وبين الكتاب "حروب أبناء النور مع أبناء الظلمة".

ومع ذلك، فالاختلافات بين الطرفين كثيرة، ونذكر منها الآتي:

"الأسينيون":	"المسيحيون":
• يعـتقدون بـأن الـناموس الموسـوى مُـلزم لهم يجب اتباعه.	• عهد الناموس قد كمل في عهد النعمة.
• ينادون بأن الخلاص باتباع وصايا موسى.	• يعتقدون بأن الخلاص هو بالإيمان بالمسيح.
• ملزمين بترديد قَسَم.	• مُنعت الأقسام في المسيحية.
• يـتوقعون بأن يأتي إيليا ليمهد الطريق لظهور المسيا،	• آمنوا بأن إيليا قد أتى في شخص المعمدان.
• كـانوا ينـتظرون ظهـور مسـيحيْن: المسـيح الأول مســيح هــارون، والــثاني مســيح إسرائيل.	• نادوا بأن المسيا قد جاء.
• كان لهم رئاسة، وكرسي،	• نادوا بالمساواة التامة بين الجميع.
• كـانوا يتزمـتون في أدق الفـروض الخاصـة بحفظ السبت.	• اعـتقد المسـيحيون بـأن الإيمـان بالمسـيح قد حـررنا مـن عـبودية الـتقاليد الجافة. [وبعد مـوت وقيامـة المسـيح مـن الأمـوات تحوّلت

	العبادة إلى تقديس يوم الأحد].
• كانوا يغتسلون قبل تناول الطعام،	• لم يفعل التلاميذ ذلك منادين بأن الطهارة [الحقيقة] هي طهارة القلب...
• كانوا يمارسون وسائل الزهد، والامتناع عن الزواج.	• نادى المسيحيون بقدسية الزواج، كوصية إلهية ...
• كانت معمودية الأسينيين فريضة وضوء أو تطهير يمارسونها مرتين في اليوم.	• لكن معمودية المسيحيين كانت فريضة تثبيت وقبول، وإعلان واعتراف بالإيمان بالمسيح.
• يمارسون نوعاً من العشاء الديني المشترك	• كان العشاء الرباني الذي كان التلاميذ يمارسونه تذكاراً لآلام المسح وموته.
• ينادون بكراهية الأعداء، ومحاربتهم،	• لكن المسيح علمنا أن نباركهم، ونصلي من أجلهم ...
• كانت طائفتهم طائفة سرية مغلقة لا يُقبل من أفرادها إلا مَنْ يقوم بفروض عنيفة قاسية.	• كنيسة المسيح كانت مفتوحة للجميع، لكل من يتوب، ويُعلن إيمانه على رؤوس الأشهاد.
• كان الأسينيون يرفضون النساء ويحتقرونهن	• المسيحيون رحبوا بهن ...

ولكن على أن أعظم خداع هو الزعم بأن "معلم البرّ" الذي أشار إليه "الأسينيون" في كتاباتهم، هو "شخص المسيح"، الذي تعلق به "المسيحيون" فيما بعد، أو هو نظيره، وسابق له، وهذا المعلم الذي يشيرون إليه هو مؤسس الطائفة. وقبل كل شيء علينا أن نعرف أن ذلك المعلم المشار إليه، قد نادى بمذهب ناموسي، أدق وأقسى في فروضه، من مذهب "موسى". كما أن ذلك

المعلم لم يردْ عنه أنه صُلِبَ، وقُبِرَ، وقام من الأموات – كما هو واضح في حياة المسيح، ولكن كل ما ذُكر عنه أنه احتمل مضايقات كثيرة. ولكن ليست معنى هذه المضايقات أنها وصلت إلى القبض عليه وقتله. بل إن ذلك المعلم لم يتحدث أحد عنه بأنه "المسيا"، أو "المخلص"، ولم ينادِ به أحد بأنه سيأتي مرة ثانية، في نهاية هذا الدهر. ومن يُدرينا إنْ كان "الأسينيون"، يقصدون شخصاً معيناً بكلمة "معلم البرّ"، أو أنهم يشيرون بهذا اللفظ، إلى المعلمين والأنبياء في كل عصر وجيل؟ ولماذا طُبِّقت على هذا الإنسان الحوادث التي مرت في حياة "المسيح"؟ ألا يعني هذا أن الذين ينادون بهذا الرأي قد درسوا حياة ذلك المعلم، أو تخيلوها، في نور حياة "المسيح"؟

والواقع أنه ليس في مخطوطات «البحر الميت» شيء ما يقلل من قيمة "العقيدة المسيحية"، ولم تمس تلك المكتشفات العقائد التي نادى بها المسيح، بأي صورة من الصور[1].

[1] بل على العكس فإن كل ما تم كشفه أيّد مخطوطات الكتاب المقدس الأصلية، فتطابق مع ما بين أيدينا الآن. [المراجع].

الباب الثاني

سياحة في أسفار العهد الجديد

الفصل الأول

في رمال مصر

في رمال مصر

لقد أظهر القرن قبل الماضي(١) للوجود آلاف الوثائق من البردي، كانت مطمورة في الرمال في أرض مصر. البعض منها أجزاء منسوخة من الكتاب المقدس من العهد الجديد. والبعض الآخر يُلقي أضواءً كافية على حياة المسيحيين في القرون الأولى، وعلى المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه. ولم يعرف العلماء قيمة هذه الاكتشافات؛ حتى الآونة الأخيرة، حينما قام العلماء بحل طلاسمها. في عام ١٨٧٧م.، حيث اكتُشفت كمية كبيرة من لفائف البردي، بالقرب من «أرسينوي» في محافظة «الفيوم». وهذه المدينة كائنة بالقرب من واحة في الصحراء تقع على بُعد ثمانين ميلاً جنوب «القاهرة». وهذه المدينة كانت في القديم مركزاً لعبادة التماسيح. وإلى جنوب هذه الواحة، تقع خرائب مدينة "أوكسيرنكوس" أو "بهنسة"، التي كانت في القرن الرابع والخامس للميلاد قلعة من قلاع المسيحية في مصر، غنية بأديرتها. ولقد أسفرت أعمال الحفر والتنقيب في هذين الموضوعين عن اكتشاف عدد لا يُحصى من الوثائق القديمة – في بقعة منها اكتُشفت مقبرة للتماسيح المحنَّطة.

وفي إحدى المرات، تضايق أحد العمال القائمين بالحفر من كثرتها، فضرب بأحدها الأرض، وكم كانت دهشته، حينما تحطمت المومياء، وتساقط من داخلها العديد من لفائف البرديّ. لقد كانت هذه التماسيح المحنطة، مكتبة زاخرة، ومصدراً غنياً للحياة في العصور الأولى.

---

(١) ونحن في بداية القرن الواحد والعشرين ما زلنا نتذكر ذلك، ونقارن مع الاكتشافات الأحدث. [المراجع].

ومن بين أوراق "أوكسيرنكوس" هذه، اكتُشفت ورقتان، سُطِّر عليهما بعض من أقوال المسيح، ومعظمها يختلف إلى حد ما عن الكلمات المُسَّطرة في البشائر، وسنكتفي في سرد بعض الكلمات، دون التعليق عليها [1]

يقول السيد في إحداها:

" وقفت في وسط العالم، وفي الجسد ظهرت للناس، ووجدت البشر سكارى، ولم أجد بينهم واحداً ظمآناً "للحق"، ونفسي تئن فيَّ على بني البشر، لأنهم عميان في قلوبهم، وبؤساء لا يعرفون بؤسهم." .

وفي أخرى يقول:

" حيثما اجتمع اثنان، لن يكونا بدون الله، وحيث يوجد واحد فإني أقول لكم بأني معه. ارفعوا الحجر تجدوني هناك. شقوا الخشب هناك أنا .. "

وفي أخرى يقول:

"ليس نبي مرفوضاً إلا في وطنه، ولا طبيب لا يشفي مريضاً إلا (بين) أهله" .

وفي أخرى يقول:

" المدينة القامة على قمة جبل عالٍ ، على أساسٍ لا تختفي" .

وفي أخرى يقول:

"أنت بالأذن الواحدة [تسمع]، والأخرى (تصمها)"

وربما يعني السيد بهذه المقولة من يتمسكون بمواعيد الله، ويرفضون القيام بواجباتهم.

والورقة الثانية تبدأ بهذه الصورة:

---

[1] راجع كتاب: "أقوال المسيح غير المدونة ببشائر الإنجيل" - دار النشر الأسقفية

" هذه هي الكلمات التي تكلم بها يسوع الرب الحيّ لتلاميذه. ولتوما. حيث قال لهم: من يسمع هذه الكلمات لن يذق الموت".

وأيضاً يقول يسوع:

" إن الإنسان (منكم) لا يتردد ... أن يستفسر عن مكانه في الملكوت. وأنتم تعرفون أن كثيرين من الأولين سيكونون آخرين ومن الأخيرين أولين".

وأيضاً يقول:

"كل شيء ليس أمامك. وهو مخفي عنك، سيظهر لك. لأنه ليس مكتوم إلا ويعلن. ولا مدفون إلا ويقام".

وفي عام ١٩٤٥م.، اُكتشف بالقرب من «نجع حمادي» في صعيد «مصر» عدد من مخطوطات "البردي"، يرجع تاريخها إلى القرن الرابع للميلاد، وتحتوي على دراسات في اللغة القبطية، ومجموعة أخرى من كتابات تُعرف "بإنجيل توما"؛ وهو لا يحوي تاريخاً مفصّلاً لحياة المسيح، بل هو مجموعة من الأقوال المنسوبة للسيد تبلغ في مجموعها مائة وأربعة عشر قولاً، وكل منها يبدأ بعبارة "قال يسوع". وهذه الأقوال ليست مرتبة ترتيباً تاريخياً، ومع ذلك هي في غاية الأهمية. ويمكن تقسيمها إلى فئات أربع:

الأولى، وهي أكثرها، موجودة حرفاً بحرف في البشائر. **والثانية**، تحوي نفس المعاني لبعض الآيات الواردة في البشائر، ولكنها تختلف عنها قليلاً في القراءة. **والثالثة**، اقتبسها آباء الكنيسة في كتاباتهم، فهي تأييد لصحة ما أوردوه. أما **الرابعة**، وهي أهمها، فلا وجود لها في مكان آخر، وهذه طائفة منها:

يقول "يسوع":

" إن كان منْ يرشدونكم يقولون لكم هوذا الملكوت في السموات. فالطيور سبقتكم (إليه). وإن قالوا لكم هوذا الملكوت في البحر. فالأسماك سبقتكم. ولكن الملكوت داخلكم. كما هو

خارجكم".

" وقال له تلاميذه، هل الختان نافع أم لا؟ فأجابهم: لو كان نافعا، لولدتم مختونين من أمهاتكم. ولكن الختان الحقيقي الوحيد النافع، هو ختان الروح".

" وقالت مريم ليسوع بماذا تشبه تلاميذك؟ فأجاب يشبهون أطفالا صغارا استقروا في حقل آخرين .... فإذا جاء أصحابه قالوا: "اتركوا لنا حقلنا"، فيتركون الحقل ويمضون".

وقال يسوع:

" ويل للفريسيين لأنهم مثل كلب يرقد في مذود القطيع. لا يأكل ولا يدع القطيع يأكل".

وليس غريباً أن نجد هذه الكلمات مدوَّنة خارج البشائر. "فالبشير يوحنا" يقول في ختام بشارته: "وأشياء أُخر كثيرة صنعها يسوع إنْ كُتبت واحدة واحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة" (يو ٢١: ٢٥). وأيضاً "البشير لوقا" يذكر في مستهل بشارته أن كثيرين قد أخذوا في كتابة قصة المسيح، (غير البشيرين الأربعة)[١].

على أن اكتشافات أخرى تُلقي أضواءً على الحياة في القديم[٢]، وتفسر لنا بعض ما ورد في بشائر الإنجيل والرسائل.

في رسالة من هذه الرسائل نجد خطاباً مُرسلاً من شخص مصري يُدعى "هلاريون" إلى زوجته وتدعى "أليس"، ولعله كان في بلد بعيد عنها، يوصيها إنْ وُلِدَ له ولداً تستحييه، وإنْ كانت بنتاً تتركها في العراء لتموت! وتاريخ إرسال الخطاب يرجع إلى القرن الرابع للميلاد. وهذا يُرينا ما هي قيمة الطفولة في العهود القديمة. ولكن .. تُرى هل كان يعرف ذلك الرجل بأنه وُلِدَ طفل آخر في فلسطين سيكون على يديه تغيير هذه العادات القاسية؟!

---

[١] راجع كتاب "اتفاق البشيرين"، طبعة منقحة ومُزيَّدة – الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة. [المراجع].

[٢] فهي نافعة للتأريخ. [المراجع].

وهنالك خطاب آخر أرسله ابن عاق هرب من بيت أبيه، يستعطف به أمه. بعد أن ضاقت به الحال. وما أشبه قصته بمثل الابن الضال وهذه فقرات من خطابه:

"تحياتي ... إنني اتضرع كل يوم للإله "سرابيس" لأجل صحتك ... أنا لا أطمع في أن تأتي إلى العاصمة. كما أنه لا رجاء لي بالحضور إلى «كرانيس» (قرية قديمة بمصر). لأنني أسير في خرق بالية ... أرجوكِ يا أمي أن تتصالحي معي. إنني أعرف ما جلبته على نفسي. جلبته بيدي... اعترف بأنني أخطأت ... إنْ أردتِ تعالي لتتحققي بنفسك من كل شيء".

وكذلك اكتُشفت أيضاً خطابات أطول من هذه تشبه إلى حدٍ كبير رسائل "بولس الرسول". وتبدأ بالتحية التقليدية ثم بشكر وصلاة، ويأتي بعد ذلك موضوع الرسالة. ثم تختتم بالتحية والبركة.

ومن أهم ما وصل إليه العلماء، نتيجة لدراسة نظام ولغة هذه الرسائل المكتوبة باليونانية، هو مشابهتها للغة التي كُتبت بها رسائل العهد الجديد. وهي لغة تختلف إلى حد كبير عن الكلاسيكية القديمة، بل تختلف عن كل المخطوطات اليونانية التي وصلت إلينا من العصور المماثلة. وكان البعض يظن أن هذا تفرد، وميزة خاصة، إلى أن جاء العالم "د./ القريد دايسمان"، وأثبت – عن طريق فحص أوراق البردي التي تحوي الكثير من الرسائل الخاصة المعاصرة لكتابة أسفار العهد الجديد، أن الرسل الأولين قد سطروا كتاباتهم بلغة الشعب "اليونانية" التي كانت سائدة في ذلك الحين، في أنحاء "الإمبراطورية الرومانية" [وحتى لا تكون اللغة عائقاً يمنع فهم البشارة المفرّحة، ورسالة خلاص البشرية]. كما أنه كانت هناك ضمن الخمسة آلاف كلمة اليونانية التي تضمنها العهد الجديد في الأصل اليوناني، خمسمائة كلمة لا يُعرف معناها. وهذه [تكررت] ضمن رسائل البردي ووضح ما تضمنته. وبذلك، تحقق العلماء من معنى ومبنى "اللغة اليونانية" التي كُتبت بها أسفار "العهد الجديد".

الباب الثاني

الفصل الثاني

أضواء على بشارة يوحنا

أضواء على بشارة يوحنا

من أهم الآثار التي اكتُشفت حديثاً، ما يُعرف "بمخطوط جون ريلاندز"، وهو يحوي كلمات قليلة. إلا أنها غاية في الأهمية؛ ذلك لأنها أقدم أثر اكتُشف حتى الآن من مخطوطات العهد الجديد. ويُرَجَح أنه يرجع إلى عام ١٢٥ للميلاد. وقد اُكتشف هذا المخطوط في رمال مصر. وقد ساعد على تصحيح خطأ بدأ يقع فيه بعض العلماء في الآونة الأخيرة. فلقد مال البعض إلى الاعتقاد بأن "بشارة يوحنا" لم تكتُب قبل القرن الثالث للميلاد. مع أن آباء الكنيسة يؤكدون إنها كُتبت قبيل موت الرسول بقليل. ولكن هذه النسخة التي اكتُشفت – وهي تحوي أجزاء من "بشارة يوحنا" – قد أثبتت للملأ أن تلك البشارة كانت مقروءة، ومعروفة قبل عام ١٢٥ للميلاد، وذاع صيتها؛ حتى أن نسخة منها قد وصلت إلى صعيد «مصر».

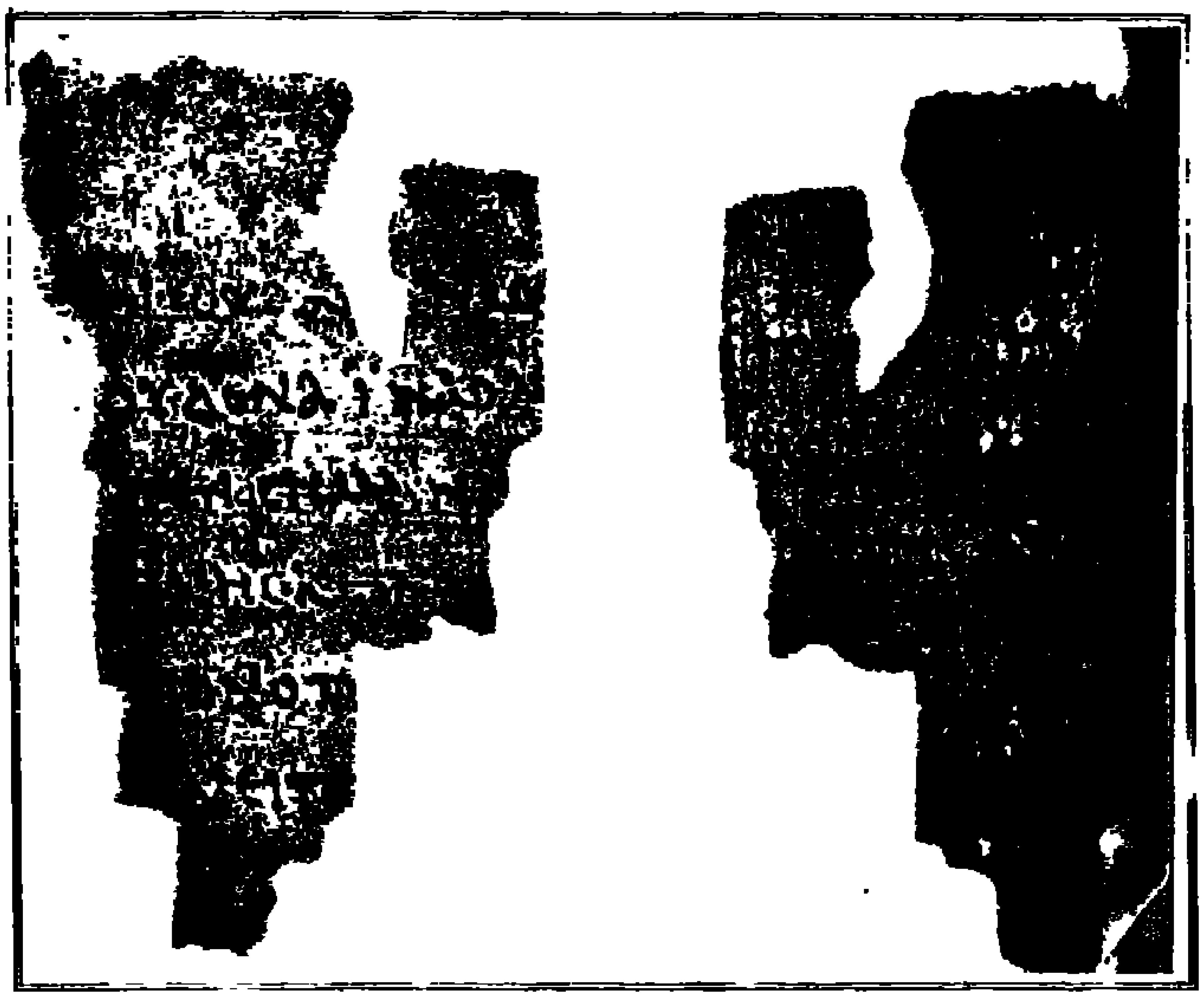

❑ أجزاء قديمة مُكتشفة من إنجيل يوحنا.

على أن المجموعة الأكبر من كتابات العهد الجديد، قد وصلت إلينا ضمن "مجموعة تشستربتي"، وذلك في عام ١٩٣١م.، حينما ظهرت في أسواق العاديات المصرية مجموعات جديدة من أوراق البردي، اشترى جزءاً منها "تشستربتي" الإنجليزي، وبيع الجزء الآخر "لجامعة متشجان" بأمريكا. وهذه المجموعة تتكون من أحد عشرة لفيفة تحوي مقتبسات من تسعة أسفار من العهد القديم، ومعظم أسفار العهد الجديد – عدا الرسائل الصُغرى. أما الجزء الذي يحوي "رسائل بولس"، فهو يرجع إلى عام ٢٠٠ للميلاد. ولقد كتب بولس رسائله للكنائس ما بين عامي (٥٠ – ٦٠ م.).

وأقدم نسخة لدينا من أسفار العهد الجديد قبل اكتشاف هذه المجموعة هي "نسخة الفاتيكان". وقد كتبت في منتصف القرن الرابع للميلاد. وهكذا تأتي هذه المجموعة في منتصف التاريخ، ما بين كتابة هذه الرسائل وبين أقدم اكتشاف لدينا، ومن هذا نرى عِظم قيمتها.

على أن ترتيب الأسفار في مجموعة "بتي" تختلف قليلاً عن ترتيبها في العهد الجديد

الـذي بـين أيدينـا. "فالرسـالة إلى أفسـس"، تأتي قبل "الرسالة إلى غلاطية". و"الرسالة إلى العبرانيين"، تأتي بين "رسالة رومية"، و"رسالة كورنثوس الأولى". وبمقارنة هذه الأسفار مع أسـفار العهـد الجديد التي بين أيدينا؛ نرى أنه ليس هناك فارق في المعنى[1]. مما يُرينا دقة النساخ الذين وصل الكتاب المقدس على أيديهم إلينا.

وهـناك اكتشاف آخر، تم حديثاً، في دير "سانت كاترين" «بجبل سيناء»، وهو نسخة أصـلية مـن بشـائر الإنجيل "باللغة السريانية"، ويرجع تاريخ هذه النسخة إلى ما بين القرن الخـامس والقـرن السابع، وهي منقولة عن ترجمة بشائر قام بها المسيحيون في القرن الثاني. ولذلك، فهي أقدم النسخ المعروفة للإنجيل. والنسخة تحوي في الواقع، علاوة على البشائر، كـتاباً آخر، سُطِّر في عصر لاحق هو تواريخ حياة بعض النسوة القديسات. وكانت صفحات المخطـوط ملتصـقة إحداهـا بالأخـرى، حيـنما اكتشفت وعولجت بالبخار، حتى أمكن فصل الصـفحات، وبمواد كيماوية أخرى وضحت الكتابة المُسَطرة عليها. والبشائر كاملة بها، عدا ثماني صفحات منها[2].

وفي عـام ١٨٨١م، اُكتشـف مخطـوط هـام هو الدياطسرون أو الرباعي وقد كتبه أحد آباء الكنيسة السريانية، ويُدعى "طاطيان" من «شمال العراق»، باللغة السريانية. استخدم فيـه نصـوص البشـائر الأربـع وأدمجهـا في إنجيـل واحـد، أغفـل فيه ما ورد من حوادث وأحـاديث مكـررة. وقـد ذاع صـيت هـذا المُصنَّف، واستخدمه المسيحيون الأولون فترة من الـزمن، إلى أن قضـت الكنيسـة بإبطالـه خوفـاً مـن أن يحلَّ محل بشائر الإنجيل ذاتها، فيهملها الشعب. وهناك إشارات عِدة "للدياطسرون" في كتابات الآباء الأولين. وكان بعض

[1] حتى وإن كانت بعض الألفاظ تختلف قليلاً. [المُراجع].

[2] في العصـر الحديـث بـدأ اسـتخدام الأشـعة تحـت الحمراء (IR) لإظهار الكتابات القديمة على المخطوطات الـتي اسـتخدم بعضـها أكـثر مـن مـرة بعـد أن مُسـحت المرة الأولى، فهذه الأشعة أظهرت الكتابة الأقدم، فكانت إضافة لعدد المخطوطات (كما سبق وأوضحنا). [المُراجع].

العلماء يعتقدون أن "الدياطسون" لا يمكن أن يكون كاتبه "طاطيان" لأنه توفي عام ١٧٠م. وفي اعتقادهم أن "إنجيل يوحنا" لم يكن قد كُتب حتى ذلك الحين. ولكن اكتشاف "مخطوط ريلاندز" قد قضى على هذا الاعتقاد (كما ذكرنا).

وقد اكتُشفت في السنوات الأخيرة، مخطوطات عِدة من الدياطسرون بلغات مختلفة في خرائب مدينة "دورا" على «نهر الفرات»، اكتُشفت ورقة من الأصل اليوناني لعلها ترجع إلى الفترة ما بين عامي (٢٥٤ – ٢٥٧م.)، في نفس الوقت الذي خُرّبت فيه المدينة. واكتُشفت ترجمة أخرى "بالعربية" [١] في "مكتبة الفاتيكان"، قام بها أحد مشاهير العرب في القرن العاشر الميلادي. وكذا نسخة "بالفارسية"، يرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر، طُبعت منها نسخ لدراستها في جامعات "طهران"، و"تبريز"، كمثل رائع من أمثلة "اللغة الفارسية" في القرن الثالث عشر. وهذه الاكتشافات كلها قد أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك، وجود "الدياطسرون" ككتاب كان شائعاً في القرن الثاني للميلاد. كما أنها أثبتت أن "بشارة يوحنا"، كانت متبادلة قبل عام ١٧٥ للميلاد، مما يؤيد صحة أقوال الآباء الأولين.

وهناك اكتشافات أخرى قد أثبتت صحة "بشارة يوحنا"، ودحضت مزاعم المعترضين، والنقاد. من ذلك استخدام كلمة "ديداسكالوس" اليونانية، للدلالة على لقب (تلميذ)، فقد زعم البعض أن الكلمة لم تكن شائعة الاستعمال قبل القرن الثاني للميلاد. ولكن أحد علماء اللغة العبرية وهو "د. سوكنك" قد أثبت مؤخراً من بعض المدافن الأثرية الموجودة بالقرب من «أورشليم»، والتي كانت مستخدمة قبل عام ٧٠ للميلاد [٢] ، أنه عثر على هذه الكلمة اليونانية ،على جدار إحداها. وقال البعض الآخر من المعترضين إن بعض الأسماء التي وردت لم يكن لها أيضاً وجود في عصر المسيح، ولكن الحفريات أثبتت وجود هذه الأسماء مثل: "مريم".

---

[١] وهذا أحد الأدلة على وجود ترجمات عربية قديمة. [المُراجع].

[٢] قبل خرابها قبل سنة ٧٠ م. أي قبل خراب أورشليم. [المُراجع].

و"مرثا"، و"اليصابات"، و"لعازر"، و"سالومي"، و"يوحنا"، و"يسوع".

قبل هذه الاكتشافات، لم يكن معروفاً في «أورشليم»، ما هو "البلاط"، فلم يكتشف أي أثر عنه، وهكذا لم يكن العلماء يفهمون ما هو المقصود بقول "البشير يوحنا" عن "بيلاطس" إنه جلس في موضع يقال له (البلاط)، وبالعبرانية "جباثا". ولكن العالِم الأثري الأب "فنسنت"، قد اكتشف تحت القوس المعروف بلقب "اكسى أومو" أو (قوس هوذا الإنسان) بلاطاً فاخراً للغاية. وبجوار «قلعة أنطونيا»، اكتشف مربع مساحته ٢٥٠٠ متر، كان يُستخدم ساحة للقضاء، وهو مكان صخري مرتفع ينطبق عليه اسم "جباثا" (أو المرتفع).

أما «بركة بيت حسدا» التي ذُكرت في الأصحاح الخامس من نفس البشارة، فقد سببت للعلماء كثيراً من الارتباك. فقد أثارت الاعتراضات حول صحة وجودها في نقطتين: الأولى، إنه لا يوجد هناك أثر لبركة أخرى بهذا الاتساع في أورشليم القديمة. النقطة الثانية، أنه ذُكر أن «بركة بيت حسدا» كان لها خمسة أروقة، أو جوانب. ومع أن كل البرك الصناعية المكتشفة في الشرق الأدنى، إما مربعة الشكل، أو مستديرة. ومع ذلك، فبعد أن، بدأت أعمال التنقيب بجوار كنيسة قديمة بالقرب من «أورشليم». كان المعتقد أنها أقيمت بجوار «بيت حسدا»، وعلى عمق ثلاثين قدماً، اكتُشفت بقايا بركة سطحها ٤٠ متراً مربعاً، وهكذا ثبت أنه كانت هناك بركة ضخمة كما أشار البشير. ولكن المشكلة بقيت كما هي، فأين الأروقة الخمسة؟!

واستمر الحفر بعد ذلك، فكشف عن بركة مجاورة يصلها بالبركة الأولى مجرى عريض، والبركة لها أروقة أربعة والرواق الخامس يقع في المجرى المتوسط.

واُكتشفت أيضاً أماكن أخرى، ورد ذكرها في "بشارة يوحنا"، مثل: «بئر يعقوب»، و«شكيم» بجوار مدينة «نابلس»، وظهر أنها تطابق تمام المطابقة، ما ورد عنها هناك. أما العادات القديمة، والحالة السياسية، والاضطرابات التي انتهت بسقوط «أورشليم» عام ٧٠

للميلاد، فقد أشار إليها البشير، وثبتت دقته المتناهية. مما يشير إلى أن كاتب البشارة إنسان عاش في «أورشليم»، وعاصر تلك الظروف التي كتب عنها. ومن السائد عند البعض، أن أقدم بشارة كتبت من البشائر الأربع هي "بشارة يوحنا"[1].

[1] على كل حال، من الثابت أن ما لدينا يتطابق مع أقدم النسخ، فسواء كان "إنجيل يوحنا" قد كُتب مبكراً أو متأخراً، فهو متطابق تمام المطابقة مع ما كتبه الوحي الإلهي بيد "يوحنا". والبعض يعتبر "مخطوطة جون رايلاندز" المكتوبة سنه ١٢٥م. من أعظم المخطوطات لإثبات صحة الكتاب المقدس ككل، فحتى البشارة التي كان تاريخ كتابتها موضع جدل، أصبحت ذات مصداقية عالية، فأقدم نسخة موجودة لليوم (والتي اكتشفت في مصر) كانت موجودة بين وقت "يوحنا البشير" ، أو على أقصى تقدير من وقت تلميذه "بوليكاربس" الذي عمّر ٨٦ عاماً، واستشهد استشهاداً عظيماً – كما سنوضح في فصل لاحق، فقد كان هناك شهود أمناء عبر الزمن. [المُراجع].

الباب الثاني

الفصل الثالث

مع البشير لوقا

مع البشير لوقا

سوف نتتبع في هذه الصفحات حياة المسيح، كما أثبتها "البشير لوقا" في بشارته، محاولين أن نستنير بما وصل إليه علم التنقيب، من نتائج تُلقي أضواءً على القصة. وتبدأ قصة المسيح في أيام "هيرودس" ملك اليهودية. ويرجع اعتلاء "هيرودس" عرش المُلك إلى عام ٦٣ ق.م، حينما كان "هيركانوس" و"أرستوبولس الثاني"، وهما آخر سلالة "المكابيين"، يتناحران للانفراد بعرش اليهودية. واتجه كلاهما إلى "بومبي" طالبين معونته، فاحتل «أورشليم». ومن هذه اللحظة، بدأ الاستعمار الروماني «لفلسطين»...

وحينما قُهر "يوليوس بومبي" عين "انتباتر الأدومي" والد "هيرودس الكبير" حاكماً لليهودية. وقد أظهر "هيرودس" معاونة صادقة "للرومان"، فكسب عطفهم وتأييدهم. وبعد مصرع "قيصر"، نشبت الحرب بين "هيرودس" و"أنتيجون"، للحصول على كرسي المُلك، فاستعان "أنتيجون" "بالبارثيين"، فاحتلوا «أورشليم». أما "هيرودس" فاستنجد "بالرومان"، فأتوا وطردوا "البارثيين"، وأقاموه حاكماً مطلقاً على "اليهودية" عام ٤٠ق.م.

وقد كانت الأعوام الأولى لحكم "هيرودس" غير مستقرة، فقد وهب "أنطونيوس" للملكة "كيلوباتره" (حينما تولى الحكم) مدينة «أريحا»، والمدن الساحلية. ولكن "أُوكتافيوس" أعاد إليه تلك المدن.

وكـان "هـيرودس" مغرماً بالبـنايات الفاخـرة. ولعل تلك هي المأثرة الوحيدة التي يحفظها له الـتاريخ. وهكـذا أعـاد بـناء «السـامرة»، وأسماهـا "مبسـطة"، وهـي الترجمـة اليونانيـة لاسـم "أوغسـطوس". وفي كـل بـلد بـناه أقـام هياكل أممية. ولكن أروع عمل قام به هو إعادة بناء الهيكل بصـورة أعظـم، فقـد قـام بتغشـية واجهـته برقائق من الذهب. وكذلك زيّن السقف بأشواك ذهبية، حـتى لا تحط عليه الطيور النجسة. وقد قال عنه أحد المؤرخين الذين عاصروه: "كان الهيكل يبدو كجـبل مـن جـليد مـتوج بـالذهب". ولـو بقـى إلى اليـوم، لكـان أحـد عجـائب الدنيـا القديمـة «كالأهرامات»، و«حدائق بابل»، ولكنه خُرِّب في حصار «أورشليم» عام ٧٠ للميلاد.

وكـان "هـيرودس" إنسـاناً قاسـياً دمويـاً، لم يسـلم مـن سـيفه أقـرب أقـربائه، وفي أيامه وُلد "المسـيح"، وحدثـت مذبحـة الأطفـال في قـرية «بيـت لحـم». ولكـنها لم تكـن شـيئاً يُذكر بالنسبة لجـرائمه الدمويـة حـتى أن المؤرخين لم يشيروا إليها. وبعد موته، قُسِّمت المملكة بين أبنائه فكانت «اليهوديـة»، و«السـامرة»، و«أدوميـة» "لأرخيلاوس"، و«الجليل»، و«بيريه» "للأنتيباس"، و«وادي الأردن» "لفيليبس". أما "هيرودس أنتيباتر" فهو الذي قُتِلَ في عهده "المعمدان"، وصُلب "المسيح".

مدينة الناصرة

وفي الأصـحاحات الأولى من البشارة، نقرأ عن «الناصرة»، التي قضى فيها السيد أيام طفولته، وصـباه، ومعظـم حياتـه. وتقـع المديـنة على قمة جبل عالٍ في الجليل. وبجوارها ينبوع يُعرف الآن باسـم «بـئر مـريم». وإلى الغـرب يقع «جبل الكرمل»، وتتلاطم أمواج البحر الزرقاء عند قاعدته. وإلى الشـمال الشـرقي «جـبل حـرمون» الـذي تـتّوجه الثـلوج معظم أيام السنة. وإلى الشرق جبل طابور، حيث جمع "باراق" جيشه تحت إرشاد "دبورة" وهاجم "سيسرا"، ودحر «الكنعانيين».

❑ جبل حرمون تتوجه الثلوج معظم أيام السنة. (صورة في مارس ٢٠٠٠).

وسفح الجبل الذي تقوم عليه المدينة، منحدر خصيب. وفي فصل الربيع يكتسي بعشرات الألوان من الزهور البرية. وقد كانت «الناصرة» في عهد "المسيح"، تقع على الطريق الرئيسي الموصل إلى «سفوريس» عاصمة «الجليل»، أعظم المدن هناك، التي زيّنها "هيرودس" بالبنايات العظيمة. وقد عاصر "يسوع" في طفولته ثورة "يهوذا الجليلي"، الذي تمرد على «روما»، وجمع حوله عشرة آلاف جندي "يهودي"، واحتل "سفوريس"، ثم تقدم أيضاً ليحتل «طبرية»، فالتقى به القائد الروماني "فاروس"، وانتصر عليه وأحرق «سفوريس»، وصلب ألفين من جنوده، أما الباقون فقد سباهم عبيداً أرقاء إلى «روما». وقد كانت هذه أيام رعب "للجليليين"[1]، وقد كشفت أعمال التنقيب هناك، عن بقايا قلعة ومسرح روماني، فوق حطام الخرائب المحترقة، لكن "هيرودس أنتيباس" قد أعاد بناء «سيفوريس» للمرة الثانية.

[1] ولعل يسوع، وهو طفل، قد شاهد جانباً من منظر الصلبان الرهيبة، واستمع إلى تفاصيل القصة المروّعة من أفواه الكبار. [المترجم].

مقدمة لوقا (٢ : ١-٣)

وفي الآيات الأولى من "بشارة لوقا" يصطدم الكثيرون بعقبات متعددة، كانت سبباً في إثارة مجادلات عنيفة. فهناك الاكتتاب الذي دعا إليه "أوغسطس قيصر" في جميع أنحاء "الإمبراطورية الرومانية": الأمر الذي يشير إليه واحد من المؤرخين الذين عاصروه، وكتبوا تفاصيل حياته بكل دقة وأمانة. وهناك ما ذُكر عن "كيرينيوس" إنه كان والياً على «سورية» عند مولد "المسيح"، مع أن المؤرخ "يوسيفوس" يؤكد في كتاباته إن "كيرينيوس" بدأ حكمه عام ٦ للميلاد. وهناك ما ورد في الآية الثالثة أن على كل واحد الرجوع إلى بلدته الأصلية ليُكتتب فيها. فقد بدا هذا الأمر غير معقول، حتى أن واحداً من الكُتاب المتأخرين قال ساخراً: "إن لوقا قد حرَّك كل أفراد الشعوب في الإمبراطورية العظيمة، كما يُحرك اللاعب قطع الشطرنج، حتى يجعل "المسيح" يولد في "بيت لحم.."

وبقى على الحفريات أن تقول الكلمة الأخيرة، وقد حدث ذلك بالفعل. فقد أثبتت الاكتشافات، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الاكتتابات المتوالية كانت نظاماً سائداً في أنحاء الإمبراطورية، وكانت تتم مرة كل ١٤ عاماً. ومن بين أوراق البردي القديمة، اكتُشفت ورقة تتحدث عن اكتتاب حدث عام ١٧٤م. كما أشارت أيضاً إلى اكتتابين آخرين حدثا عام ١٦٠م، ١٤٦م، واكتشفت ورقة أخرى تعود بنا إلى حكم "طيباريوس"، وتتحدث عن اكتتاب ضريبي عام ٢٠م. وأخرى تتحدث عن اكتتاب في عهد "نيرون" عام ٦٢م، وثالثة تتحدث عن اكتتاب حدث السنة الحادية والأربعين لحكم "أوغسطس" الذي بدأ عام ٢٧ق.م – أي أن الاكتتاب قد تم حوالي عام ١٤ للميلاد. وجاء عن "أوغسطس" أنه قد بكّر منذ بداية حكمه في تنظيم وتعداد الشعب، أي أن الاكتتاب الأول قد حدث إما في عام (٢٣ ق.م.)، أو في عام (٨ ق.م.)، وهذا الاكتتاب الأخير هو الذي أشار إليه "البشير لوقا" في بشارته.

أما عن ولاية "كيرينوس"، فمازال الغموض يحيط بها. ولكن اكتُشفت لوحة في خرائب

«أنطاكيـة» في جـنوب «غلاطية»، يرجع تاريخها إلى ما بين عامي (١٠ – ٧ ق.م.)، وعليها بعض الأسمـاء، مـن بيـنهم اسـم "كيريـنيوس"، وقد أُشير إليه كقائد جيش عُين واليا تكريماً له، وتقديرا لخدماتـه في صـد هجمـات "الهـامونديين". ولعلـه قـد عُـين بعـد ذلك والياً على «سورية»، خاصة والفـرق بين التاريخين طويل، يبلغ عشر سنوات، ولكن يكفي أنْ نعرف أنْ "كيرينيوس" كان والياً في «أنطاكيـة»، بالقـرب مـن الـتاريخ الـذي وُلـدَ فيـه "المسـيح". وحينما يتحدث "البشير لوقا" عن اكتتاب أول، فلابد أن هناك اكتتاباً ثانياً في وقت لاحق.

أمـا عـن رجـوع كـل واحـد إلى بـلده الأصلي، ليكتتب فيه، فقد أثبته اكتشاف مخطوطة من أوراق البردي في «مصر». وقد جاء فيها:

" نسبة لقرب ميعاد الاكتتاب القادم، فمن الفروض على كل واحد يسكن بعيداً عن بلده، أن يستعد للرجوع إليها، حتى يُدرج اسمه في التعداد ضمن أفراد عائلته، وتثبت صحة امتلاكه للأرض".

وهكذا حطمت نتائج التنقيب كل هذه الاعتراضات.

مدينة بيت لحم

تقـع «بيـت لحـم» عـلى مسـافة سـتة أميـال إلى الجـنوب من «أورشليم». وأهم موضع في المدينة يقدسه المسيحيون هو «كنيسة المهد» القامة في المكان الذي يُظن أن المسيح وُلِدَ فيه ...

لقـد أقـام "كنيسـة المهـد" الأولى الإمـبراطور "قسـطنطين"، وقـامت بتدشـينها أمـه المـلكة "هيلانـة"، وكـان عمـرها في ذلك الوقت ثمانين عاماً. وكتب المؤرخون أن الكنيسة بُنيت فوق المغارة التي يُعتقد أن المسيح وُلدَ فيها ...

ولقـد شـهدت الأجيـال الـتي تـلت ذلـك توسـيع وتجميـل "كنيسـة المهد"، فهي لذلك أقدم كنيسـة في العـالم. أمـا عـن المغـارة، فقد كتب "يوستينوس الشهيد" الذي عاش في «فلسطين» حتى

عام ١٥٥م. (أو ١٦٠م.)، قائلاً :

" وحينما وُلد المسيح في بيت لحم، إذ لم يجد يوسف مكاناً له في المدينة، فالتجأ إلى كهف قريب منها".

وكتب "أوريجانوس" أيضاً عام (٢٤٦م):

" هناك في بيت لحم، نرى المغارة التي وُلِدَ فيها المسيح. وفي قلب المغارة المذود، الذي لُف فيه، بأقمطة وأُضجع هناك. وهذا الوضع يتحدث عنه الكثيرون في كل مَكان. حتى أعداء الإيمان، فيقولون إنه في هذه المغارة وُلد يسوع الذي يقدسه المسيحيون ويعبدونه".

وكتب الأب "إيرونيموس" الذي عاش في عهد "هادريان" (١١٣ — ١٣٨م.)

" إن موضع ميلاد الطفل أُقيم فوقه مقام "لأدونس"، وحيث اطلق الطفل "يسوع" صرخته الأولى، كانت أصوات العويل، والنحيب تنطلق من الوثنيين الذين يذكرون مغامرات "فينوس". فقد قصد "هادريان" الإمبراطور أن يُدَنس هذا الوضع المقدس بعبادة "فينوس"، لأن التقاليد كانت تُشير منذ بداية حُكمة إلى أن المسيحيين يُقدسون هذا الوضع كمكان الميلاد المعجزي".

ولم تدم بناية كنيسة "قسطنطين" طويلاً، ففي عهد الإمبراطور "جوستنيان"، (٥٢٧ — ٥٦٥ م.) أمر بهدمها، وإقامة بناية أ كثر فخامة وعظمة في مكانها، تضارع في جمالها «هيكل أورشليم». ولكنه أصيب بخيبة أمل كبرى، حين رأى البناء، وأمر أن يُقدم القائمون بالأمر إلى المحاكمة.

وفي بناء كنيسة "جوستنيان"، استخدمت بناية المحراب الداخلي لكنيسة "قسطنطين"، وفي الفتح الفارسي لم يهدم الفرس الكنيسة عام (٦١٤م)، لأنهم اكتشفوا منقوشاً على مدخلها، صورة المجوس الثلاثة بملابس فارسية[١].وهم يقدمون الهدايا للطفل!

---

[١] ولكن يقول "د. طوني معلوف" في رسالته للدكتوراه: *"إن هؤلاء المجوس هم عرب جاءوا من الشرق". [المراجع].*

وفي العصر الإسلامي (عام ١٠٠٩ م.) حُفظت هذه الكنيسة من الدمار، مع أن الخليفة الفاطمي "الحاكم بأمر الله" قد هدم معظم الكنائس المسيحية في «فلسطين». وفي عيد الميلاد سنة ١١٠١ تُوِّج "بلدوين" الأول ملك «فنلندا»، ملكاً على «أورشليم» في كنيسة "المهد". وزُينَت في القرن الثاني عشر بنقوش عِدة. وفي عام ١٩٣٤ سُمح للعالم الأثري "هارفي" بأن يقوم بالحفر على نطاق ضيق في فناء الكنيسة، وساحتها، فاكتُشفت بقايا "كنيسة قسطنطين". وقد زُيِنَت أرضيتها بشريط من قطع الموزايكو الملَّون على صورة نقوش فنية رمزية، تعتبر أقدم عمليات الموازيكو المُكتشفة في «فلسطين». وفي كنيسة "سانتا بودنشيانا"، «بروما»، اكتُشفت نقوش من الموزايكو يُرَّجح أنها صورة لكنيسة "قسطنطين". وهذه وتلك تعطينا فكرة عما كانت عليه تلك الكنيسة.

مدينة أورشليم

ولقد قام السيد المسيح بأول زيارة له «لليهودية» حينما كان في سن الثانية عشرة. ولسنا نعرف كيف كانت صورة «أورشليم» في عهد "المسيح"، لأن «أورشليم القديمة»، مدفونة إلى عمق سبعين قدماً في بعض الأماكن، تحت أكداس التراب والحجارة. وفي عهد يسوع، كانت المدينة يشقها وادٍ يُعرف بالوادي «التيروبي»، وهو الآن مَنخفض ضئيل الانخفاض. ويمر به القادم من الشمال بين جدارين يحميان المدينة من ذلك الجانب. ولقد أضاف "هيرودس أنتباس" جداراً ثالثاً، ولكن ذلك الجدار لم يكمل حتى عام ٧٠ م. ويُرَّجَح أن "كنيسة القيامة" بُنيت خارج الجدار الثاني وخلف الجدار الثالث، ولكن هذا الظن يحتاج إلى إثبات. لأن الكنيسة إن كان موقعها في هذا المكان، فهي لم تُبنَ في مكان «الجلجثة» (لأن الجلجثة خارج المدينة).

ولقد بنى "هيرودس الكبير" جدار المدينة، وأقام في جانبها ثلاثة أبراج حصينة. أحدها يرتفع إلى ٧٣ قدماً، والثاني ١١٧قدماً، والثالث ١٣١ قدماً. ولقد كتب "يوسيفوس" أن هذه الأبراج كانت من الحصانة والروعة بحيث لا تضارعها أية أبراج أخرى في العالم. وكذلك زين

"هيرودس" المدينة بإقامة مسرح، وساحة سباق، ومسرح دائري (أمفيتياتر). وتقليدا للعادات اليونانية السارية، كان يقيم الألعاب مرة كل خمسة أعوام. وكانت الإعلانات تُرسل إلى الممالك المجاورة. والجوائز تُرسل للفائزين. وعلى جدران المسرح الدائري. كانت نقوش من ذهب وفضة. تحية وتكريماً "لقيصر". وكانت الوحوش الضارية تُجمع من الجبال المحيطة. ويقوم الصراع في الحفلات، بين هذه الوحوش، والمحكوم عليهم بالإعدام. وهكذا كانت «أورشليم» المدينة التي عرفها "المسيح". مدينة لها طابعها الوثني الدموي، لا يميزها عن غيرها إلا وجود الهيكل. ومقر الكهنوت اليهودي.

❑ مدرج ألعاب "أمفيتياتر" (مسرح دائري) في أورشليم[1].

أما الهيكل. فقد كان أعظم الأبنية هناك. ويُرجح أنه كان قائما مكان «قبة الصخرة». وقد

---

[1] وهذه أحجار من العهد القديم. وبقيت إلى وقت المسيح بل وإلى اليوم. فهي أحجار تتكلم وتشهد عن صحة الكتاب المقدس. وهذه الصورة مأخوذة في يناير ٢٠٠٠ [المراجع]

أحاطه "هيرودس" بجدران ثلاثة جبارة لم يبقَ منها إلا جدار واحد، هو حائط المبكى[1]. وكان الهيكل مكوناً من ساحة داخلية وأخرى خارجية، وكانت تحيط بساحة الهيكل الداخلية أروقة ذات أعمدة مزدوجة من الرخام مغطاة بسقوف خشب من الأرز. ويقول "يوسيفوس" إن هذه كانت من صُنع "الملك سليمان"، فهو على الأرجح "رُواق سليمان" الذي اجتمع فيه التلاميذ بعد معجزة إقامة المُقعد (أع٣: ١١). وإلى الجنوب، كانت تحيط بالهيكل الأروقة الملكية، ترتكز على ١٦٢ عموداً، كل منها من الضخامة بحيث لا يستطيع أن يحيط بقطره (بدائرته) أقل من ثلاثة رجال متشابكي الأيدي. وكانت ساحة الهيكل الداخلية منفصلة عن الخارجية، بسياج أنيق من الأحجار، على مسافات متساوية منه، وكان السياج يحمل لافتات من الحجر منقوشاً عليها تحذير لكل وثني يتجاوز المكان تحت عقاب الموت. ومن الساحة الخارجية، طرد "يسوع" الباعة، والتجار .... (مر ١١: ١٥-١٧).

وكان العابدون يدخلون إلى الهيكل من تسع بوابات ضخمة، إحداها كانت مغشاة برقائق من نحاس. وهناك باب آخر يعرف "بالجميل" (أع ٣: ٢)، كان مُغشّى بصفائح سميكة من الفضة والذهب. لقد كان هيكل هيرودس معجزة في البناء والفن.

[1] وما زالت آثاره موجودة لليوم، وقد زاره البابا "يوحنا بولس الثاني" في مارس ٢٠٠٠ [المُراجع].

الباب الثاني

الفصل الرابع

أماكن أخرى في حياة المسيح

أماكن أخرى في حياة المسيح

في هذا الفصل سوف نتناول بعض الأماكن، وقت حياة المسيح على الأرض، كما يلي:

نهر الأردن

ليس هناك على وجه البسيطة نهر آخر في انخفاض مستوى «الأردن» عن سطح البحر. وهناك منابع أربعة لذلك النهر، ثلاثة تجرى إليه من سفح «جبل حرمون»، والرابع يصب فيه من الغرب. ويمر النهر ببركة ضحلة تُعرف بمياه "ميروم"، ويستمر في سيره، حتى يصب في «بحر الجليل»، ويغادر «بحر الجليل» ليتابع طريقه المتعرج حتى ينتهي إلى «البحر الميت»، وحيث أن المنابع مرتفعة، و«البحر الميت» منخفض[1]، فإننا نستطيع أن نتصور مقدار سرعة المياه. وفي البداية تكون المياه صافية، ولكنها تختلط بالطين كلما تقدمت في سيرها، ومن هذا نُدرك سر اشمئزاز "نعمان السرياني"، حينما طلب منه النبي أن يغطس في «نهر الأردن»، فقد قارن المياه المُوحِلة بمياه أنهار «دمشق» الصافية البلورية.

وبين «الجليل»، و«البحر الميت»، يمر «نهر الأردن» بمنطقة غنية بالخضرة والأشجار، من الحور والصفصاف والغاب.

---

[1] البحر الميت منخفض أكثر من أي بحر في العالم، لدرجة أنه أقل مستوى مما يُطلق عليه مستوى سطح البحر، كما أسلفنا. [المُراجع].

وقبل عصر الحفريات، كان الرحالة يؤكدون إنه لا يمكن أن تكون هذه المناطق في يوم من الأيام مأهولة بالسكان، .لوجود الغابات والوحوش الضارية، وتفشي الأمراض، وانتشار العصابات. ولكن معول الحفار قد أثبت أن هذه الأماكن كانت مزدحمة بالسكان، كما يخبرنا كاتب "سفر التكوين" في قصة "إبراهيم" و"لوط"، وكانت هناك خزانات لمياه النهر، وقنوات محفورة في الحجر تجرى منه، وقد تم الكشف عن سبعين مكاناً مأهولاً بالسكان منذ أكثر من خمسة آلاف عام في الضفة الشرقية «للأردن»، وبينما لا يقطن هذه المناطق الآن اكثر من ٣٥٠ ألف نسمة من "قبائل الأعراب"، كان تعداد السكان في أيام "المسيح"، أكثر من مليون ونصف، وهكذا كان مركز بشارة "يوحنا المعمدان" مكاناً مكتظاً بالناس.

بحر الجليل

وتبلغ مساحة «بحر الجليل»، ثلاثة عشر ميلاً طولاً وثمانية أميال عرضاً، وفي وضح النهار تكون مياهه زرقاء كمرآة. وفي الغروب تتحول إلى لون أحمر داكن، ويبدو إلى جوارها «جبل حرمون» الذي يرتفع إلى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر، أما «بحر الجليل» فمستواه ينخفض ٧٠٠ قدم تحت سطح البحر. وبسبب ذلك، يتعرض لهبّات مفاجئة من زوابع تجعل أمواجه تثور وتعلو وتجعل الملاحة فيه خطرة متعذرة. والتلال المحيطة به خصبة تنفجر فيها الينابيع. وفي عصر "المسيح" كانت تحيط به تسع من أجمل المدن في الشرق الأدنى، تحوي هياكل. ومجامع يهودية، وحمامات، ومسارح، وأماكن للسباق، وقصور من الطراز الكورنثي. وكانت الخضروات تنمو بوفرة، والسمك كان يُمَلّح ويُرسل، حتى إلى «روما».

ومن هذه المدن، ذُكرت «طبرية»، وقد بناها "هيرودس الكبير"، وأعطاها هذا الاسم إكراماً "لطيباروس قيصر". وجعل منها أقوى قلعة في «الجليل». واضطر "هيرودس"، لكي يوسع المدينة، إلى إقامتها على بقايا مدافن قديمة للموتى، حتى أن اليهود الأتقياء كانوا يعتبرون منْ يدخل هذا المكان، نجساً، يستلزم التطهير، والعزل سبعة أيام. ولهذا كان

معظم سكانها من "يهود الشتات" والأمم. وبعد سقوط «أورشليم»، أصبحت «طبرية» مركزاً للمجامع وللثقافة اليهودية، فهناك أُكمِل "التلمود". وقد بنى "هيرودس" قصوراً على التلال المحيطة، ما تزال آثارها إلى اليوم. والبلدة غنية بالينابيع الحارة التي يُقال إن لها خاصية شفاء الأمراض، وقد زارها "هيرودس" قبل موته، أملاً في أن يلقى بها الشفاء، وما زالت تجتذب المرضى إلى اليوم. وليس في بشائر الإنجيل ما يشير إلى أن "يسوع" دخل مدينة «طبرية».

وإلى شمال غرب المدينة، يرى الرائي قمة جبلين مرتفعين إلى علو ألفي قدم، يُعرفان «بقرون هاتين»، وهما فوهتا بركان خامد، ويُعتقد أن هناك ألقى "السيد المسيح" موعظته الخالدة على الجبل. وهنا حدثت الموقعة التي دُحِرَ فيها "الصليبيون" على أيدي قوات "صلاح الدين". وكما قال المؤرخ:

"لقد لقيت المسيحية الاسمية الكاذبة نهايتها في المكان عينه الذي نادى فيه السيد بالتسامح، وقدم إنجيل الإخاء والمحبة".

وهنا .. تمت نبوة السيد بأن الذين يأخذون بالسيف، بالسيف يُؤخذون ....

وعلى بُعد ثلاثة أميال إلى الشمال، تقع مدينة «مجدل»، بلدة "مريم المجدلية"، وإلى جنوبها حدود «وادي جنيسارت» الخصب. وكانت «مجدل» مشهورة بصناعة الصباغة، في عصر "المسيح" ... وفي «وادي جنيسارت» تجود زراعة الكروم، والتين، والزيتون، والنخيل. مما دعا "يوسيفوس" إلى ذكرها بالثناء الكثير في كتاباته.

في هذا الوادي الخصيب، تحدّث السيد المسيح بأمثاله عن الزارع والحاصد، وحقول الحنطة المبيضة، وزنابق الحقل، والأمطار التي تهطل على الأبرار والظالمين.

وإلى الجنوب الغربي، من البحيرة تقع مدينة «كفر ناحوم» التي شهدت معظم خدمات "المسيح"، حيث تحدث في مجمعها مراراً، وقام بمعجزات كبيرة، من شفاء المجنون، وشفاء

حماة "بطرس"، والمفلوج الذي حمله الأربعة على سريره، وعبد قائد المئة. وهنا، كانت جماهير المرضى تتكدس أمام المنزل الذي ينزل فيه؛ لتنال الشفاء. وموقع «كفر ناحوم» هو الآن خرائب «تل حوم»، مصداقاً للويلات التي نطق بها "المسيح" على المدينة. وقد كشفت الحفريات عن بقايا مجمع "اليهود"، وكانت واجهته تتجه إلى «أورشليم»، وهو النظام الذي اتبعه "الربيون" في بناء كافة المجامع، وأثبته الحفر. وليس هذا هو المجمع الذي كان المسيح يعظ فيه. لأن "تيطس" (٧٠م.)، و"هارديان" (١٣٠م.) قد قاما بهدم جميع المجامع، ولذلك يُرّجح أن ذلك المجمع بُني عام ٢٠٠م. والجدار المواجه «لبحر الجليل»، به ثلاثة أبواب ونافذة كبرى، ولعل عيون الصبيان كانت تتسلى بالمنظر من خلالها إلى سفن الصيد المنتشرة، حينما يملون من ترديد الصلوات المملة. ويظن بعض العلماء أن هذه هي بقايا المجمع الذي بشر فيه "المسيح".

وساحة المجمع الداخلية مساحتها٥٠ قدماً عرضاً، و٧٠ قدماً طولاً، يحيط بها أعمدة من جوانب ثلاثة وهناك طابق علوي للسيدات. والأعمدة يحمل بعضها أسماء منْ قاموا بالتبرع بإقامتها. وهناك اسم على إحداها "زبدي، ابن يوحنا". والإنجيل يذكر لنا اسم "يوحنا بن زبدي". والعادة في الشرق، تكرار الأسماء في الأحفاد حفظاً للاسم من الانقراض[1]. ولذلك يُرّجح أن هذا الاسم لواحد من سلالة "يوحنا البشير". وهناك أيضاً ضمن النقوش التي تزين الجدران، صورة النسر الروماني، وهو أمر يدعو للدهشة، لأن اليهود كانوا يبغضون هذا الشعار. ولكن لعلهم سمحوا به إكراماً لقائد المئة الذي حمل العبء الأكبر في بناء المجمع.

وفي مكان يُدعى "عين طبقة"، إلى جنوب غرب «كفر ناحوم»، توجد بقايا كنيسة من القرن الرابع للميلاد تُدعى "كنيسة السمك والأرغفة". ولا يعرف أحد متى بُنيت هذه الكنيسة، ولكن يُعتقد أن أول بناية لها كانت في عهد "الرومان"، وأُعيد بناؤها بعد ذلك. وكل ما تبقى منها الآن، هو بضع أعمدة محطمة، والساحة المرصوفة بأعمال الموزايكو الجميلة المزّينة بصور الطيور

---

[1] وهذا هو سبب الاختلاف الظاهري بين سلسلة نسب "المسيح" في "متى" و"لوقا"، بسبب استخدام "متى" لهذا المفهوم، من حيث تسمية الحفيد باسم جده في بعض الأحيان. [المُراجع].

الملّونة، وقد أحاطت بها زهور اللوتس.

وفي "إنجيل لوقا" (١٠ : ١٣-١٥) نطق السيد بالويلات ضد «كورزين» وضد بيت «صيدا»، وضد «كفر ناحوم»، حتى أن القارئ يكاد يعتقد أن هذه المدن الثلاث كانت متجاورة. وتوجد الآن خرائب مدينة تعرف باسم «كرزة»[1] على بُعد ميلين من «كفر ناحوم»، ، وهنا اكتشفت أيضا بقايا مجمع، وبه صور فنية كثيرة لجمع الكروم، وعمل النبيذ. أما «بيت صيدا» (أو بيت الصيد)، فهي تقع إلى «شرق الأردن»، وقد أعاد بناءها "فيلبس"، وأسماها "جوليا"، وهو اسم ابنة الإمبراطور. وقد مُحيت هذه المدن الثلاث من الوجود، مِصداقاً لنبوات "المسيح".

وإلى الشمال تقع مدينة «صور» الساحلية. و«صُور» معناها (صخرة)، لأنها أُقيمت على الصخر. والصخرة التي أُقيمت عليها هي جزيرة على بُعد نصف ميل من الساحل. واسم المدينة أولاً «أوشو»، ونجد لها ذِكراً في حفائر «تل العمارنة»، لأنها كانت أكبر مركز تجاري في «الشرق الأدنى»، حتى أن "سليمان" حينما أراد أن يبني الهيكل، أرسل إلى "جيرام" ملك «صور»؛ لكي يرسل إليه بمن يقومون بقطع الأخشاب وتجهيزها، لأنه ليس هناك منْ هو مثل "الصيدونيين" في هذا العمل (النجارة) (١مل ٥: ٦)، والنحت، والسباكة. وكانت "إيزابل" الشريرة ابنة الملك "ايت بعل" من «صور». وفي "سفر حزقيال" (أصحاح ٢٧) نجد وصفاً دقيقاً لغنى «صور» وتجارتها مع الممالك في الفضة والحديد والقصدير والرصاص والعاج والأبنوس والكتان والمرجان والأطياب والأحجار الكريمة والذهب، وكانت على درجة كبيرة من الحصانة حتى أنها بقيت محفوظة من الغزو قروناً طويلة. وحاول "شلمناصر" أن يستولي عليها فحاصرها خمس سنوات كاملة دون أن ينجح في الاستيلاء عليها واضطر إلى الانسحاب. ولكن حيث فشل هؤلاء، نجح "الإسكندر" بمعونة ملك «قبرص» بجيش برِّي جرار، وأساطيل بحرية بعد حصار دام سبعة أشهر، ذبح فيه عشرة آلاف "صيدوني"، وسبى ثلاثون آلفاً.

---

[1] ولعلها «كورزين»

وفي عهـد "هـيرودس الكبير" أعـاد بـناء «صـور»، وبـنى فيها هيكلاً. وفي القرن الثاني كانت مركـز أسـقفية، وأول كنيسـة بُـنيت فيهـا دُمِـرَّت في عصور الاضطهاد، حتى إذا أهلَّ القرن الرابع أُقيمت كاتدرائيـة فاخرة في عهد الإمبراطور "قسطنطين"، حيث ألقى "يوسابيوس" الشهير خطاب التدشين عـام ٣١٦م. وبالخـارج، توجد ساحة ذات أعمدة رخامية تحيط بينبوع، وتؤدي إلى مبنى الكنيسـة، ويُوَّصِـل إلى داخـل الكنيسـة أبـواب ثلاثيـة ضخمة. أمـا أرضيتها، فمرصوفة بالرخام، وسـقفها مـن الأرز المنقوش ... وقـد وُجِـدت وثيقـة تُريـنا نظـام العـبادة الـذي كـان مُتَّـبعاً في تلك الكنيسـة، وهـو لا يختـلف كـثيراً عـن النظام المتّبع في الكنائس الأرثوذكسية، إلا في بعض المراسيم الإضـافية غـير الجوهـرية. واستمرت «صور» مزدهرة إلى عهد "الصليبيين" الذين اتخذوا منها قاعدة لأعمـالهم الحـربية. حـتى أُعيـد إخضـاع «فلسـطين»، فدُمِـرت إتمامـاً للـنبوات الـواردة في أسـفار "حـزقيال"، و"إشـعياء"، و"إرميـا"، و"عـاموس"، و"زكـريا"، "صور... هوذا السيد ... يضرب في البحر قوتها، وهي تؤكل بالنار ... ".[1]

عبر الأردن:

ومـن أجمـل مـناطق فلسـطين، في عصـر المسـيح، الدائـرة المعـروفة بالعشـر مـدن، أو «الديكـابوليس»، وقـد كـانت مدنـاً يونانيـة – عـدا واحـدة تقـع «شرق الأردن». و«جيرازة»، صورة رائعـة لهـذه المـدن، وهـي تـع جـنوب شـرق «بحـر الجليل» على مسافة ٥٠ ميلاً على فرع «نهر يـبوُّق»، وقـد كـانت من أجمل مدن منطقة «عبر الأردن»، بهياكل جميلة، ومسارح، وطرقات ذات

---

[1] والـذي يـراجع تـاريخ صـور، كمـا سـجلته "الموسـوعة الـبريطانية"، يكتشـف أن هـذا الـتاريخ ينطبق مع نبوة "حـزقيال" في الاصحاح السـادس والعشرين، فبعد خرابها الأول رغم عظمتها (عدد٤،٣)، تصبح "مبسطا للشباك (عـدد٥). ويـتكرر نفـس القـول في (عـدد ١٤) ، فـبعد إعـادة بـنائها تم تدميرهـا، وأصـبحت مـرة أخرى "مبسطاً للشـباك" بعـد الخـراب الـثاني. ومـن الواضـح، أنـه بعـد خـرابها، ظـل بعـض الصـيادين يبسطون شباكهم على أنقاضـها! فقـد تهدمـت وبقيـت بعض الأنقاض، وتعايش الصيادون هناك في مساكن بسيطة. وفي خرابها الأخير، جعلها الرب"في أسافل الأرض في الخِرب" (حز٢٦: ٢٠) [المراجع]

أعمدة على الجانبين، وحمامات رومانية. وينبغي ألا نخلط بين هذه المدينة وبين «مدينة الجدريين» التي شفى بها المسيح مجنون الكورة، فهذه تقع في الجانب الشرقي «للجليل».

وفي «جيرازة»، اكتُشفت بقايا سيرك لألعاب المصارعين، وبحيرة صناعية، طولها ٧٠٠ قدم وعرض ٣٠٠ قدم، حيث كانت تقام المصارعات البحرية الساخرة. وأطول شارع في «جيرازة» طوله نصف ميل، وقد تحطم رصفه لمرور المركبات. وتحت الأرض، كان يوجد نظام دقيق من الأقنية لتصريف المياه. واكتُشفت هناك أيضاً دار للتمثيل، ما زالت أرقام المقاعد واضحة بها. والمسرح اتساعه مئة قدم، بحيث كان المتفرجون يشاهدون كل شيء بوضوح. وفي البلدة أيضاً اكتُشفت بقايا معبد لأرطاميس، بمدخل ذي أعمدة من الحجر الوردي ...

وفي الطريق بين «أريحا» و«أورشليم»، نجد "فندق السامري الصالح"، وهو الفندق الوحيد في ذلك المكان المقفر. ومن أحجاره نرى أنه بُني في عهد "الرومان"، أو قبل ذلك. وكأي فندق قديم بالشرق يتكون من بنايات داخلية تحيط بساحة متوسطة مكشوفة بها بئر. وسواء كانت "قصة السامري الصالح" حقيقة أم مجرد مثل من أمثال السيد المسيح، فإن ذلك الفندق كان حقيقة فعلية كائنة في عصر "المسيح".

بيت عنيا:

وتقع «بيت عنيا» على الجانب الشرقي لجبل الزيتون، حيث تقع الآن في مكانها قرية «العازرية». ويقوم الآن جامع فوق خرائب كنيسة قديمة قائمة على كهف يُقال أنه «قبر لعازر». وقد مُنع "المسيحيون" من زيارة القبر – حتى القرن السابع عشر، حينما سُمح لهم بذلك. ويُنزل إلى القبر بعشرين درجة إلى أسفل، ومع أن المرشدين السياحيين يستطيعون الآن أن يرشدوا الزائرين إلى ما يزعمون أنه بقايا «بيت مريم ومرثا»، إلا أن هذه الرواية تحتاج إلى إثبات. وفي هذه المدينة، يوجد هذا البيت الذي كان يجد فيه "يسوع" راحته، ومن على سفح التل يستطيع الرائي أن يرى «وادي الأردن»، وسلسلة «جبال موآب»، ومنظر «أورشليم».

ولقد كانت أيام "يسوع" الأخيرة في «أورشليم» حول "هيكل هيرودس"، وفي "بشارة لوقا" (٢ : ٥) نجد إشارة إلى الأحجار العظيمة التي بُني بها هذا الهيكل. وطول أحد هذه الأحجار ١٦ قدماً، وارتفاعه ١٣ قدماً، وسُمكه قدم ونصف. ويخبرنا أيضاً "يوسيفوس" أنه كانت هناك حجارة أكثر ضخامة. إذ تبلغ ٣٧ قدماً طولاً، ويصل ارتفاعها ١٦ قدماً. وعن الهيكل، قال الربيون:

"مَنْ لم يرَ «أورشليم» لم يشاهد مدينة جميلة. ومَنْ لم يشاهد الهيكل لم ينظر بناءً جميلاً في حياته".

ولكن هذه الأحجار الضخمة بكمياتها الهائلة، تشير إلى أنه لابد أن محاجر كبيرة كانت بالقرب من المكان. ويكفي أن نعرف أن ارتفاع الجدران الخارجية يصل إلى ٥٠٠ قدم. من الأساس إلى أعلى. وقد أشار "يوسيفوس" إلى أن مصدر هذه الأحجار هي المحاجر الملكية. ولكن هذه المحاجر اختفى أثرها منذ مئات السنين، إلى أن كان منتصف القرن التاسع عشر. حينما كان ثرى إنجليزي يُدعى "بيركلي" يتريض مع كلبه خارج أسوار «أورشليم». فاختفى الكلب في حفرة تحت السور. وأطل الثري. ليرى كهفاً سحيقاً. فعاد في اليوم التالي مع بعض العمال، ووسَّع الفتحة، ليجد نفسه في قلب "محاجر سليمان الملكية"، وبها طريق يؤدي إلى الجبل، وبئر، وتحيط بها الصخور. وقد قُدِّر أن كميات الأحجار التي اُقتطعت من تلك المحاجر تكفي لبناء «أورشليم» ثلاث مرات! أما الحجر فهو من النوع الجيري الناعم، حينما يقتطع. فإذا تعرَّض للرطوبة والهواء أصبح صلباً. واليوم يستطيع الإنسان أن يرى آثار معاول "الفينيقيين" منذ أكثر من ٢٨٠٠ سنة. ويُظن أن هذه المحاجر تحوي كنوزاً من الهيكل، خبأها اليهود عند سبي "نبوخذ نصر"، وحصاره «لأورشليم» عام (٥٨٧ ق.م)، بل يُظن أيضاً أن "تابوت العهد" خُبيء هناك.

الجلجثة، وكنيسة القبر المقدس

منذ أمد بعيد، كان الظن السائد أن «الجلجثة» و«قبر المسيح» يقوم في موضعهما الآن بناء "كنيسة القبر المقدس". ومن التاريخ، نعرف أن «أورشليم» دُمرت تماماً عام ٧٠ للميلاد، على

ايدي قوات "تيطس الروماني" وقد أطاع "المسيحيّون" الأولون أمر سيدهم. حينما شاهدوا المدينة تحاصرها الجيوش الرومانية. فهربوا إلى مدينة «بيلا» عبر «الأردن». أما "تيطس" فقد سوّى بنايات المدينة بالأرض. حتى أن أحد المعاصرين لتلك الأحداث. قال:

"ان من يزر موقع المدينة. لا يمكن أن يصدق أنه كانت هناك مدينة على الإطلاق"

وبمرور السنين. أقيمت بها المباني شيئا فشيئاً. فقد عاد إليها كثيرون من "المسيحيين". وأقاموا بناياتهم على المواقع القديمة. واستطاعوا أن يميّزوا موقع «الجلجثة». و«القبر المقدس»

وفي عام ١٢٢م قام الإمبراطور الروماني "هادريان" بزيادة المدينة. وأمر أنْ يُعاد بناؤها على الطراز الروماني. ورأى "اليهود" الذين عادوا إليها بعد عهد "تيطس". أن في ذلك إهانة لهم. وتدنيسا لموقع الهيكل المقدس. فثاروا. في عنف. وأعلنوا العصيان في جميع مدن اليهودية.

❑ كنيسة القبر المقدس.

فاضطر "هادريان" إلى إرسال حملة بقيادة "سفيروس" أعظم قواد جيشه لتأديبهم، فتم له إخضاع ٦٠٠ مدينة وقرية ثائرة، وذُبح في هذه الثورة ٥٨٠ ألف يهودي، وأمر بتنفيذ بناء «أورشليم» كما شاء. وأقام على "تلة الجلجلة" معبداً وثنياً. وأحاط التلة بجدار ارتفاعه عشرون قدماً. وملأ الفراغ بالحجارة، ومواد البناء، وجعل مسطحاً للمعبد مساحته ٣٠٠ قدم طولاً. وعرض ١٦٠ قدماً. وزرع الأشجار حوله. وفوق القبر، رُفع تمثالاً "لجوبيتر"[1]، وعلى قمة التلة أقام تمثالاً "لفينوس"[2]. واستمرت هذه قائمة طيلة مائتي عام، إلى أن استولى "قسطنطين" على «روما»، وجلس على عرش الأباطرة، وجعل الديانة المسيحية ديانة الدولة الرسمية. وفي عام ٣٣٦ م.، أمر بهدم ذلك المعبد. وأرسل إلى "الأنبا مكاريوس"، أسقف أورشليم، يطلب منه بناء "كنيسة القبر المقدس"، ولعل "يوسابيوس" المؤرخ الكنسي الشهير، كان حاضراً في ذلك الوقت، وقد كان صبياً صغيراً. وحينما أزيلت مباني المعبد، والأحجار التي أُقيم عليها، ظهر من تحته القبر المقدس، على أن البعض يُرجحون أن بناء "كنيسة القبر"، قد تم على أيدي الملكة الأم "هيلانة"، في زيارتهما «لأورشليم». والتاريخ يذكر الكثير مما نُسج حولها من قصص عن اكتشاف الصليب في صخرة قريبة من المكان. وقد كانت «تلة الجلجثة» في ذلك الوقت، لا تزيد في مساحتها عن ١٨ قدماً وعرض ١٥ قدماً.

وقد أُحرقت "كنيسة قسطنطين"، وأُعيد بناؤها مرة أخرى. وفي عهد "الصليبيين" قاموا ببنائها على نطاق أضخم، ورُممت مراراً بعد ذلك.

وما زالت بقايا من بنايات "الصليبيين"، في الكنيسة ظاهرة حتى يومنا الحاضر.

ويحتاج الزائر لفحص الكنيسة بدقة لمدة أيام، ليكتشف كل ركن فيها، وكل أثر. وبسبب

---

[1] وهو اسم كبير آلهة الرومان، ويطلق علية بالعربية (المشتري)، فهو الكوكب الخامس في مجموعتنا الشمسية. [المُراجع]

[2] وهي إلهة الحب والجمال، وتسمى بالعربية (الزهرة)، فهي ثاني كوكب في مجموعتنا الشمسية، وهي في نفس حجم كرتنا الأرضية. [المُراجع].

تعدد الطوائف، فإن كل مكان تحوطه التقاليد، والعادات، وتحتفظ به الطائفة بكل حرص. وأقل تعد على أبسط شيء كفيل بإثارة المشاكل، حتى مجرد نقل صورة من مكان إلى مكان. أو اقتلاع مسمار في الجدار.

ويشترك في ملكية هذه الكنيسة طوائف ست: "الأرثوذكس"، و"الأرمن"، و"الروم الأرثوذكس"، و"السريان"، و"الأحباش"، و"الكاثوليك". وقد كان لكنيسة «روما» السيطرة التامة على المدينة حتى عهد "الصليبيين"، وشيئاً فشيئاً بدأت تدخل الطوائف الأخرى. أما المكان الذي يُظن أنه موضع "القبر المقدس"، فهو في وسط الكنيسة وتغطيه الأبسطة والطنافس[1]، وتنيره من الداخل ٤٣ مسرجة أو مصباحاً: (١٣) للكاثوليك، (١٣) للأرثوذكس، (١٣) للأرمن، (٤) لأقباط الحبشة. ولا يُسمح مُطلقا بإضافة أي مصباح آخر.

ومن التقاليد التي تدور حول "القبر المقدس"، حفل إيقاد النار المقدسة[2]، ويحدث هذا كل عام. وهذا الحفل مبني على تقليد قديم يُروى عن راهب، كان منوطاً به حفظ السراج المعلق في القبر منيراً على الدوام، وفي ليلة من الليالي غلبه النوم، فنفد الزيت من السراج، وانطفأ. فحزن حزنا شديداً، وتضرع إلى الله بدموع أن يغفر له تلك الخطية الشنيعة. فاستجابت السماء لصلاته، وأرسلت ناراً، وأشعلت السراج. ومن وقتها، تتكرر هذه المعجزة في ليلة القيامة. فتزدحم الكنيسة بالمصليين، وكلٌ يمسك بيده مشعلاً غير مشتعل أو شمعة. وبتقاليد، ومراسيم كثيرة، يدور الأُسقف ثلاث مرات حول "القبر المقدس"، وموكب الكهنوت يشق الجماهير بترانيم، وتسابيح، ودقات النواقيس، ويدخل الأُسقف أخيراً إلى القبر حاملاً في يده حزمة من الشموع غير المشتعلة. وفجأة يتوهج النور من القبر. ويخرج حاملاً الشموع، وقد اشتعلت. فيتزاحم المصلون عليه ويشعلون شموعهم ومشاعلهم، ويتفرقون إلى خارج الكنيسة، عائدين إلى بيوتهم. ويشعل هذا

---

[1] السجاجيد.

[2] أو "شق النور" كما يسمونه. [المُراجع].

سراجه من ذاك، وينتشر النور التقليدي في أنحاء العالم[1].

على أن هناك بقعة أخرى، بالقرب من "كنيسة القبر المقدس". يعتقد كثيرون أنها القبر الحقيقي، وهي بالقرب من مكان يُدعى "جلجثة جوردون". ففي عام ١٨٤٩ م،أعلن أحد المستكشفين أن "هضبة الجلجثة" تقع حيث تقوم "صخرة إرميا"، بالقرب من «بوابة دمشق»، خارج «أورشليم». وهي هضبة صخرية، في جانب منها تكثر الكهوف. وتشبه إلى حد كبير جمجمة إنسان. وتبع ذلك آخرون أيّدوا رأي هذا العالم المستكشف. وبالقرب من أسفل التل. اكتشف العالم الأثري "جوردن" كهفاً أو مغارة، رجّح أنها المكان الذي دُفن فيه جسد "المسيح". فالكهف في بستان. وتوجد حفرة بطول مدخل الكهف، يمكن أن يُدحرج فيها حجر دائري يُغلق باب القبر. والقبر متسع، فهو قبر لعظيم. وله نافذة يُمكن أن يُطِل منها الإنسان، ويرى ما بداخله.

وكان من نتائج الحفر هناك، أن اكتُشفت بقايا معصرة قديمة، وأحجار لعلها لمعبد وثني. وفضلاً عن ذلك، فإن سكان «أورشليم» يطلقون على الهضبة «تلة الجماجم».

وإن كان الذين يعتقدون بأن المكان الأخير هو "قبر المسيح" الحقيقي، لا يستطيعون أن يقدموا أدلة قاطعة على ذلك، ولكن الإنسان لا يتمالك نفسه من أن يجثو باحترام في هذا المكان، وهو يتطلع إلى القبر الفارغ، وكأنه يصغي إلى صوت الملاك يقول له: **"ليس هو (المسيح) ههنا، لكنه قد قام"**[2].

---

[1] عبر مندوبي الطوائف المختلفة. [المراجع].

[2] فسواء كان هو ذلك القبر أو غيره، حيث دُفِن المسيح، فالمهم أنه قام في اليوم الثالث كما في الكتب. وكما هو ثابت تاريخيا بأدلة عديدة، فقد توفّرت لحادثة القيامة أدلة أكثر من أي حادثة أخرى اريخية. راجع أيضا كتاب: "منْ دحرج الحجر؟". لفرانك موريسون. ترجمة حبيب سعيد. [المراجع].

الباب الثاني

الفصل الخامس

الكنيسة الأولى

الكنيسة الأولى

في الأصحاحات الأولى من سفر الأعمال، نرى مناهضة أعضاء المجامع التي تضم العبيد المُحَررين من اليهود للحركة المسيحية الأولى – وبالرغم من أن الإشارة إلى المجامع، في البشائر، وسفر الأعمال عديدة، إلا أنه لم يُكتشف حتى الآن آثار تشير إلى مجامع يرجع تاريخها إلى القرن الأول للميلاد، ذلك لأنّ "تيطس"، و"هادريان"، قد أمرا بهدم كل المجامع التي تضم العبيد المحررين من اليهود – للحركة المسيحية الأولى. ويوجد حجر في «أورشليم» يبدو أنه من بناية أحد المجامع، وقد نُقشت عليه كلمات تتحدث عن شخص يُدعى "ثيودوتس"، ابن "فتيني"(١)، وكيف أنه كان كاهناً، ورئيساً للمجمع.

وفي "سفر أعمال الرسل" لا نرى الكاتب يشير إلا إلى مجمع واحد من هذا النوع، إشارة إلى أنه لم يكن بالمدينة سواه، ولذلك، فمن المعقول جداً، أن ذلك الحجر قد وصل إلينا من مجمع العبيد المحررين، الذي حكم بالموت على "استفانوس"، وقام بتنفيذ الحكم. وبعد مرور يوم

(١) أما اسم "فتيني" فهو اسم روماني لعائلة معروفة، وما دام "ثيودوتس" قد اقترن باسمهم، فلابد أنه كان عبداً لهم، ونال حريته فيما بعد، وسُمح له بأن يعود إلى «فلسطين» موطنه. ولو أن اسم عائلة أسياده قد التصق به. [المراجع].

الخمسين، وتأسيس الكنيسة الأم في «أورشليم». كان مركز الإشعاع في الكنيسة الأولى هو «مدينة دمشق». ولقد كان السرّ في بقاء هذه المدينة الأثرية حيَّة فعَّالة إلى يومنا الحاضر موقعها على نهريْن عظيميْن، ينبع الواحد من «جبل حرمون» إلى «الجنوب الغربي»، ويأتي آخر من سلسلة الجبال المقابلة لهذا الموضع من الغرب – وهي تُسمى «جبال لبنان».

وكل من النهرين صافي المياه، رقراق، يروي دلتا خصيبة. وتترعرع من مياهه «جنات دمشق» الشهيرة. ولقد شبه شعراء العرب القدامى «جنات دمشق» «بجنة عدن». واسم «دمشق» يقترن بالتاريخ المقدس المدوَّن في الكتاب منذ أيام ظهور «إبراهيم» إلى عصور العهد الجديد، حينما دخلها «شاول» بعد الرؤيا الشهيرة، التي انتهت باعتناقه المسيحية، فخرج منها رسولاً مدافعاً عنها. وفي أيام ملوك «إسرائيل»، كانت «دمشق» عاصمة «سورية» من ألدَّ أعداء «إسرائيل»، ولقد طغت عليها كما طغت على «إسرائيل» أيضاً، أفواج "الآشوريين" و"الإغريق" و"الرومان". وفي عهد المسيح، كانت جزءاً من أملاك الملك العربي "الحارث الرابع"، الذي امتد ملكه إلى «بترا»[1]، واستمر مدة خمسين عاماً من (٩ق.م. –٤٠م.) ولقد تزوج "هيرودس أنتيباس" ابنته، ثم طلقها ليتزوج من "هيروديا" زوجة أخيه، مما نشأت عنه خلافات بينه وبين "الحارث"، وانتهت بحروب طاحنة واقتطاع أجزاء من رقعة مُلكه. ومع أن اسم الملك "الحارث" لم يكن معروفاً إلى عهد قريب، ولم يرد ذكره إلا في "سفر الأعمال"، حينما يتحدث عنه "بولس"، وذكر أنه ملك «دمشق». إلا أننا يمكننا أن نعرف حقيقة وجوده من اكتشاف نقود أثرية اكتُشفت في «دمشق» تحمل صورة "طيباريوس قيصر" الذي مَلك حتى عام ٣٤م. ولكن لم تكتشف بعد في «دمشق» نقود تحمل صورة "كاليجولا" (٣٧– ٤١م.)، أو "كلوديوس قيصر" (٤١–٥٤م.)، حتى بين الآثار التي يرجع تاريخها إلى تلك العهود. ولكن الآثار التي ترجع إلى عهد "نيرون"، اكتشفت في نقودها صورة "نيرون"، فإذا عرفنا أن حكم "نيرون"، بدأ (عام ٦٢) للميلاد، فإن هناك فترة في تاريخ

[1] التي اكتشفها الأعراب «بالأردن»، ولها صورة فوتوغرافية من يناير ٢٠٠٠. وقد امتدت أملاك "الحارث الرابع". إلى «بترا». واستمر من قبل ميلاد المسيح (٩ ق.م. – ٤٠ م.)

«دمشق» بين (عامي ٣٤و٦٢) للميلاد، لم تكن فيها خاضعة لحكم "الرومان"، والأرجح أنها كانت مستقلة، تحت حكم الملك العربي "الحارث".

و«البوابة الشرقية» في «دمشق» أثر من الآثار التي يرجع إلى عهد "الرومان". والطريق الطويل المعروف الآن «بدرب المستقيم»، هو نفسه الزقاق الذي يقال له «المستقيم»، والذي ذُكر في "سفر الأعمال" (٩: ١١). وفي عهد "بولس الرسول"، كان ذلك الشارع من أهم الأسواق التجارية في العالم القديم، طوله ميل كامل، وعرضه مئة قدم، وتحده من الجانبين المحال التجارية المقامة على نظام بنايات (البواكي) ذات الأعمدة. وأكبر جامع أثري هناك، كان في الأصل كنيسة، ويقول التقليد إنها تحوي "رأس يوحنا المعمدان"، مدفونة في "مقام" في وسطها. وقد قال "كلفن" مشيراً إلى هذا التقليد، إنه في عصره، كانت هناك عشرون كنيسة، كل واحدة منها تدَّعي بأنها تملك "رأس المعمدان". وتجادل بكل قوة مؤيدة بالأدلة والبراهين. والأثر المسيحي الذي يهم الباحث في ذلك المسجد، هو كتابة منقوشة في أعلى عتبة الباب الجنوبي المغلق بالبناء، قال عنها "هنري فانديك"[١]:

> *" إنها أوقع عبارة تحملها الآثار المسيحية على الإطلاق ... ويمكن قراءتها بالصعود فوق سطح سوق تجاري قريب، وهذه العبارة هي: إن ملكوتك يا سيدي، يمتد إلى كل العصور، وسلطانك يسيطر على جميع الأجيال"*

وهناك مدينة أخرى خارج منطقة «أورشليم»، يتصل تاريخها اتصالاً وثيقاً بالكنيسة المسيحية الأولى، تلك هي مدينة «قيصرية». ففي هذه المدينة، رأى "كرنيليوس" الرؤيا التي ظهر له فيها ملاك الرب يدعوه ليرسل رسولاً ويستدعي "بطرس" من يافا. في هذه المدينة، فتح الرب الباب للأمم. وهناك قدَّم "بولس" دفاعه عن المسيحية إلى "فيلكس"، و"فستوس"، ومعهما

---

[١] هنري فانديك مترجم الكتاب المقدس إلى العربية. وإن يكن اسم الترجمة " سميث فانديك" لاشتراك شخص آخر هو "سميث البستاني" [المراجع].

"هيرودس أغريباس"، و"برنيكي"، ولكنه استمر في السجن لمدة عامين كاملين، انتهت بذهابه إلى «روما»، لرفع دعواه إلى "قيصر". وقد اصطحب "لوقا" في هذه الرحلة، ولعله في هذه الفترة الطويلة كان يجمع بعض المواد التاريخية[1].

وقد كانت "قيصرية" مدينة جديدة أقامها "هيرودس الكبير" في منتصف المسافة بين «حيفا» و«يافا». وكانت مدينة عظيمة تشهد بجبروت "هيرودس" وعظمته. فلم يكن هناك ميناء، ولكن "هيرودس" جنَّد أمواله وجهوده ووقته لجلب الأحجار الجبارة من المحاجر والجبال، وإرسائها في قاع البحر، ليكوِّن بناءً نصف دائري يصد التيارات واللجج عن غرب الميناء وجنوبه، ويفتح الطريق للسفن من الشمال فقط، حتى ترسو في أمان .

وكان اتساع ذلك الحوض مئتي قدم، وعمقه في بعض الأماكن مئة وعشرين قدماً. واستمرت أعمال البناء فيه مدة اثنتي عشرة سنة كاملة. وبالقرب من الشاطئ، أقام "هيرودس" معبداً من الرخام، يعلوه تمثالا "روما" و"أوغسطس قيصر"، وكان بهذه الضخامة، حتى أن السفن كانت تلمحه وهي قادمة من بعيد. وفي داخل المدينة بنى قصراً، وجعل من المدينة عاصمة مُلكه. وبعد موت "هيرودس"، صارت «قيصرية» مقراً للحكام "الرومان"، وما كانوا يغادرونه إلا إلى «أورشليم» في أيام الأعياد خوفاً من وقوع الاضطرابات. وبانتشار "المسيحية"، أصبحت «قيصرية» ذات شأن كبير، وكانت مقراً للأُسقف، وأشهر أساقفتها المؤرخ الكنسي الشهير "يوسابيوس".

واليوم، لم يتبقَ من "قيصرية" سوى حطام تُلقيه أمواج البحر، مختلطاً بالأعشاب البحرية. ويقتلع الأعراب الأعمدة الرومانية من أماكنها، ليبنوا بها أكواخهم. وهناك خرائب يبدو أنها لكنيسة قديمة، وتقول التقاليد إنها السجن الذي سُجن فيه "بولس الرسول". وهناك تقام القداسات كل يوم أحد.

وبالمكان أيضاً خرائب "الامفتياتر" (المسرح المستدير) العظيم الذي كانت به مقاعد لجلوس

---

[1] قبل أن يكتب بشارته مُساقاً بالروح القدس (لو١ : ١-٤).

عشرين ألفاً من المتفرجين. وبقايا القنوات المائية المنحوتة من الصخر.

على أن هناك مدينة أخرى يذكرها "كاتب سفر الأعمال"، مقترنة بالحركة المسيحية الأولى، هي مدينة «أنطاكية». فهناك دُعي المسيحيون بهذا الاسم أول ما دُعوا. بل أنه بعد سقوط «أورشليم»، أصبحت «أنطاكية» مركزاً للإشعاع المسيحي في العالم القديم. فمنها أُرسلت المعونة للذين أصابتهم المجاعة في «أورشليم». وتستمد «أنطاكية» أهميتها من موقعها على «نهر أورتنس». وتبعُد عشرين ميلاً عن البحر. وهذا هو الموقع الوحيد بين سلسلة «جبال لبنان»، و«جبال طوروس»، مما أعطاها اسم "ملكة الشرق". ولقد بناها الملك "سلوكوس الأول" (٣٠١ ق.م.)، ضمن مجموعة من المدن أنشأها وأعطاها أسماء: "سلوكية"، و"أنطاكية"، و"لاودكية". وفي عهد "بولس"، كانت «أنطاكية» تضم أربع مدن بأسوار، يحيط بها سور واحد. وقد أصبحت بعد الفتح الروماني عاصمة «لسورية»، وقد قام بتجميلها على مر العصور القياصرة الذين تعاقبوا على كرسي الإمبراطورية الرومانية، وزيّنوها بنافورات مائية غاية في الروعة. ومهد "هيرودس الكبير" طريقاً طويلاً بها رصفه بالرخام وأقام الأعمدة على الجانبين. وكانت «أنطاكية» في ذلك الحين، تعتبر المدينة الثالثة في الإمبراطورية، (ولا يسمو عليها سوى «روما»، و«الإسكندرية»)[1]

---

[1] آخر أخبار الاكتشافات عند مدينة «الإسكندرية»، وهو "اكتشاف مدينة كاملة غارقة تحت مياه البحر". جاء هذا الخبر في جريدة الأهرام المصرية في ٣٠ مايو ٢٠٠٠، فقد عثرت بعثه الآثار (المصرية الفرنسية) على مدينة "مينوتس" التي تعود إلى العصر اليوناني، غارقة تحت سطح البحر على بعد أربعة كيلومترات من شواطئ "أبو قير" في «الإسكندرية». وكانت بعثة المعهد الأوروبي (للآثار الغارقة)، التي يقودها العالم البحري الفرنسي "فرانك جوديو" – قد تمكنت خلال العامين الماضيين من انتشال خمس قطع أثرية عبارة عن رؤوس ملوك، ومجموعة شخصيات يونانية ورومانية، وعدد من الأعمدة التي يصل ارتفاعها إلى أربعة أمتار، وعملات ذهبية وحُلي. وصرح مسئول في البعثة بأن البعثة سوف تعلن أيضاً عن عثورها على أجزاء من هيكل مقدس نادر يسمى "تاووس"، يوضع فيه تمثال الإله داخل المعبد، بالإضافة إلى أجزاء من مبنى يحتمل أن يكون معبداً للإلهة "إيزيس" [المُراجع].

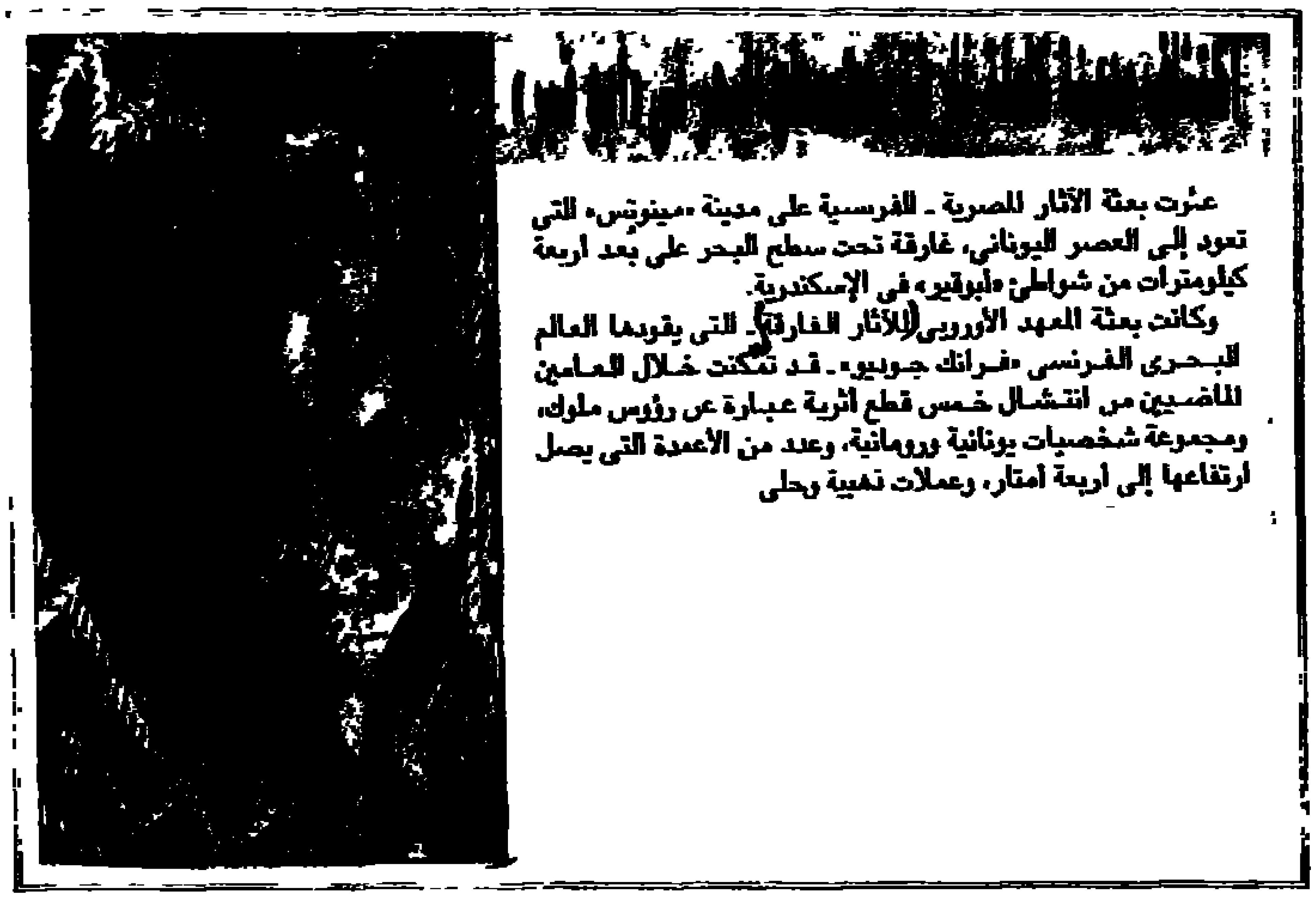

عثرت بعثة الآثار المصرية - الفرنسية على مدينة «مينوتس» التي تعود إلى العصر اليوناني، غارقة تحت سطح البحر على بعد اربعة كيلومترات من شواطئ «ابوقير» فى الإسكندرية.
وكانت بعثة المعهد الاوروبى للآثار الغارقة - التى يقودها العالم البحرى الفرنسى «فرانك جوديو» - قد تمكنت خلال العامين الماضيين من انتشال خمس قطع اثرية عبارة عن رؤوس ملوك، ومجموعة شخصيات يونانية ورومانية، وعدد من الأعمدة التى يصل ارتفاعها إلى اربعة أمتار، وعملات ذهبية وحلى

❑ اكتشاف "مدينة مينوس" غارقة تحت مياه «البحر الأبيض المتوسط»، والصورة لرأس تمثال الإله "سرابيس".

وكانت رقعة «أنطاكية» تزيد على نصف مساحة «روما». أما سمعتها الأدبية، فكانت في غاية الرداءة، حتى أن الشاعر "جوفنيل" قال إن الفساد والخزعبلات تتخذ طريقتها من «أورتنس» إلى «التيبر». وفي الواقع كانت بعض المدن الأفريقية الرومانية، بؤرات للفساد والمعاصي. فعلى بُعد أربعة أميال منها، كانت هناك مدينة اسمها «دَفْن»، بها هيكل بديع للإله "أبولو". وكان هذا الهيكل مأوى المجرمين والمشردين، لأن مراسيم العبادة كانت تقتضي ممارسات غاية في الشذوذ والقذارة.

وبعد سقوط «أورشليم» أقام "تيطس" واحداً من "الكاروبيم"، من قدس الأقداس، على بوابة «أنطاكية». ومن "رسالة غلاطية" نعرف أن "بطرس" استقر به المقام في «أنطاكية» فترة من الزمن. وأن "أُسقف أنطاكية" كان له مركز الشرف الثالث بعد "أُسقف الإسكندرية"، و«روما»، في مجمع نيقية المشهور. ويُخبرنا "القديس يوحنا فم الذهب" إنه في نهاية القرن الرابع، كان نصف تعداد المدينة البالغ عددهم ٢٥٠ ألفاً من المسيحيين، وفي الفترة ما بين (٢٥٢ – ٣٨٠ م.)، عُقدت بها

عشرة مجامع كنسية! فقد كانت «أنطاكية» أم المسيحية بين الأمم.

وفي عام ١٩٣٢، تقدمت بعثة مشتركة من علماء «أمريكا» و«بريطانيا» و«فرنسا»، للتنقيب في حفائر «أنطاكية». وقد كان المجال متسعاً أمامها، خاصة وأن بنايات «أنطاكية» الحديثة لا تحتل رقعة المدينة القديمة كلها. وقد كشف الحفر عن سور المدينة، وعن حمامات، وملاعب من الطراز الروماني، وبقايا كنيسة أُقيمت عام (٣٨٤م.)، وقطع من الموزايكو بالنقوش الفنية، التي تعطينا الكثير من المعلومات عن عصر «أنطاكية» وعادات سكانها.

❑ الكأس الفضية(١)

على أن أعظم كشف في «أنطاكية» لم يُقدَّر لهذه البعثة أن تعثر عليه، ولكن قُدِّر ذلك لبعض

(١) راجع أيضاً كتاب "الكأس الفضية" وتفاصيل اكتشافها – دار النشر الأسقفية [المُراجع].

الأعراب من هواة التنقيب عن الآثار[٢]. فقد عثروا على "كأس أنطاكية" الشهيرة، ضمن تحف ونفائس أخرى، تحت خرائب كنيسة قديمة. وهذه التحف تضم صليباً من الذهب، وصندوقاً من الفضة لحفظ الكتاب المقدس، أما "الكأس الفضية"، فقد كانت تحمل في داخلها كأساً أخرى أصغر منها، يُظن أنها الكأس التي تناول فيها المسيح وتلاميذه من نتاج الكرمة في ليلة خميس العهد. وعلى جدار الكأس، من الخارج، نقشت صور للمسيح مع تلاميذه. وهناك مجموعتان من الصور على جانبي الكأس: المجموعة الأولى، تصوره وهو طفل. والثانية، ترسمه وهو في سن الرجولة، وهناك عشرة أشخاص يرفعون أيديهم تحية للمسيح. وعن يمين المُخلِّص، رسم الفنان طبقاً عليه خمسة أرغفة من الخبز، وسمكتين، وخلفه صورة حمامة رمزاً للروح القدس، وتحت أقدام المسيح النسر الروماني، ويتخلل صور التلاميذ فروع كرمة متشعبة.

وقد كرَّس أحد علماء الآثار عشر سنوات كاملة من عمره لدراسة الكأس، والنقوش التي عليها، وخَلص منها إلى القول بأن الصور التي تحيط بالمسيح الطفل، هي للتلاميذ: "متى"، و"مرقس"، و"لوقا"، و"يوحنا"، و"يعقوب ابن زبدي"، أما التي تحيط بالمسيح الرجل، فهي "لبطرس"، و"بولس"، و"يعقوب"، و"يهوذا"، و"اندراوس". وعلى أساس منظر قاعدة الكأس، قرر أيضاً أنه لا يمكن أن يتعدى تاريخ صنعها (عام ٧٠ للميلاد)، فلم تُكتشف بعد كؤوس لها تلك القاعدة الصغيرة، أكثر من عهد "طيباريوس قيصر"، الذي انتهى عهد حكمه (عام ٣٤ للميلاد) — بل إن ذلك العالِم وصل إلى القول أن الصور يمكن أن تشير بالفعل إلى أصحابها، وذلك لقرب العهد بهم. والكأس الآن محفوظة في أحد متاحف الفن «بنيويورك».

واكتُشفت أيضاً بقايا كنيستين أثريتين، في مدينة «سلوكية بيرية»، وهي ميناء «أنطاكية» التي منها أبحر "بولس" و"برنابا"، وقد بُنيت أكبر هاتين الكنيستين عام ٤٨٠ للميلاد. أما

(٢) ومرة أخرى يعثر الأعراب الهواة على كشف عظيم، فقد كانوا هم أول من اكتشف آثار «مملكة البتراء». بكل جمالها واتساعها، ومن أعظمها مبنى الخزانة المحفور في الصخر (صورة سبق عرضها) [المُراجع].

أرضيتها، فقد رُصفت بمجموعة من قطع الموزايكو برسوم تمثل الطبيعة الحية، من طيور، وأشجار وحيوانات، وزهور، في مختلف الأوضاع. ومن بين صور الأشخاص الكتابية التي تُزيّن الجدران صور "دانيال"، و"موسى"، و"العليقة المشتعلة"، و"يوسف"، و"شاول". ومن صور العهد الجديد، "المجوس يقدمون الهدايا"، وصورة "الغني ولعازر"، و"معجزة إشباع الخمسة آلاف"[1].

وعلى بُعد أربعين ميلاً، توجد بقايا "كنيسة القديس سمعان العمودي" الذي وُلد «شمال سورية» عام ٣٩٠ للميلاد، واعتزل الناس على عامود حجري ارتفاعه ستون قدماً، وكانت حياته كلها عبادة، وسجوداً، وكانت الألوف تحج إليه، وكثيرون اعتنقوا المسيحية لمجرد رؤيته، وبعد موته بُنيت كنيسة ذات أربع صالات على هيئة صليب، مركزه تقاطع هذا العمود. وحول الكنيسة، انتشرت بنايات الأديرة والأماكن التي تأوي الحجاج، الذين يفدون من كافة أنحاء العالم المسيحي لزيارة المكان.

[1] فقد كانت الصور تستخدم للتعليم، وكوسيلة أسهل من القراءة.

الباب الثاني

الفصل السادس

في خطوات بولس الرسول

في "سفر الأعمال" (١٣ : ٤-٥) نرى "بولس" و"برنابا" يبدآن رحلتهما التبشيرية إلى «قبرص». وهي جزيرة جميلة شرق "البحر الأبيض المتوسط" بالقرب من ميناء «أنطاكية»، ويستطيع الرائي أن يلمحها من هناك في اليوم الصافي المشرق، حيث يبلغ طولها ١٥٠ ميلاً واتساعها ٥٠ ميلاً. وأول تقرير وصلنا عن تاريخ «قبرص» يخبرنا كيف أن "تحتمس الثالث" قد أقام هناك أول إمبراطورية لها حوالي عام (١٥٠٠ ق.م.)، ولكن «قبرص» كانت عظيمة الأهمية منذ "العصر البرونزي". فمنها كان يُجلب معدن "النحاس"، بل نقول إنه منذ فجر التاريخ كان "القبارصة" يصنعون حاجاتهم من النحاس، وما كانوا يُصَدِّرونه للخارج. وبين عامي (٣٠٠٠-١٢٠٠ ق.م.)، ازدهرت الجزيرة، وكان لها في التجارة شأن كبير. ومن مناجمها كانت تستخرج قطع "الماس" و"الزُمرد" ومعادن "الحديد" و"الرصاص" و"الزنك" و"الفضة". وكان لها أسطول تجاري كبير، ولكن العصر الحديدي شهد تدهور هذه الجزيرة وانحلالها. وكانت «قبرص» جزءاً من إمبراطورية "داريوس الفارسي"، واستمرت هكذا، حتى اندحار "الفرس" عام (٣٣٣ ق.م.)، وقد رحب "القبارصة" "بالاسكندر"، خاصة لأن عدداً كبيراً منهم كان من «اليونان». وانضم أسطول «قبرص»، إلى أسطول "الإسكندر" في محاصرة مدينة «صور»، مما ساعد على سقوطها[1] وفي القرن الثاني للميلاد، ثار "يهود قبرص" ضد «روما»، وذُبح في الثورة ربع مليون من سكن

(1) حوالي عام ٥٨ ق.م.

«قبرص»، ودُمر جزء كبير من «سلاميس». ولكن "هادريان" قمع الثورة، ونفى جميع "اليهود" منها.

ويذكر الكتاب المقدس رحلتين للرُسل الأوائل إلى «قبرص»، الأولى قام بها "بولس الرسول" مع "مرقس" و"برنابا"، والثانية قام بها "برنابا" و"مرقس" معاً. وكان أول مكان ذهبوا إليه هو «مرفأ سلاميس». وفي عهد "بولس"، كانت هناك مجامع كثيرة لليهود في «سلاميس»، مما يشير إلى "جالية يهودية" كبرى هناك. والآن، نجد ديراً باسم "برنابا"، حيث يعتقد البعض أن جسده يرقد في ذلك المكان. ويستندون إلى تقليد يقول إنه في رحلته الثانية مع "مرقس"، رجمه السكان بالحجارة حتى الموت، فحمل "مرقس" الجسد وقام بدفنه في مكان سري خارج المدينة. وبعد أربعمئة سنة من هذا التاريخ، حاولت "كنيسة قبرص" الانفصال عن "مجمع أنطاكية"، استناداً إلى أنها تأسست بأيدي أحد الرسل، واحتدم النزاع، فأعلن رئيس أساقفة الكنيسة أن "برنابا" ظهر له في حلم، وأرشده إلى المكان الذي يرقد فيه جسده، وأمره بأن يقدم احتجاجاً إلى الإمبراطور "زينون" في «القسطنطينية». وفي اليوم الثاني، ذهب رئيس الأساقفة إلى المكان بصحبة جمع كبير، ووجد بالفعل بقايا جسد برنابا، وعلى صدره نسخة من إنجيل متى. وحمل رئيس الأساقفة بقايا الجسد إلى الإمبراطور، الذي أمر باستدعاء مجلس كنسي للانعقاد في الحال، وأنهى الصراع، بإعطاء «قبرص» استقلالها الكنسي، كما أعطى لرئيس الأساقفة الحق في أن يوقع قراراته بالحبر الأحمر، وهو امتياز كان وقفاً على الإمبراطور فحسب. كذلك، أصبح لرئيس الأساقفة الحق في ارتداء ملابس قرمزية، والإمساك بصولجان في يمناه، وهي حقوق ما تزال "كنيسة قبرص" تتمسك بها إلى يومنا الحاضر.

ويغطي موقع «سلاميس»، الآن، غابة كثيفة. وبين الأشجار، نرى بقايا أعمدة من الرخام، وثلاثة أماكن كانت تُعقد فيها الأسواق، وأيضاً ساحات مرصوفة بالرخام. وحمامات من الطراز "الروماني"، ومنازل بها أجهزة للتدفئة. وقد تهدمت المدينة والميناء على أثر زلزال عنيف. وفي

وسط الجزيرة مناجم كثيرة للنحاس[1].

ومن «سلاميس» وصل الرسل إلى «بافوس». وهي مقر "الحاكم الروماني". وبالقرب من «بافوس» قرية تحيط بها أشجار الزيتون، يُقال إنها من بذور ألقاها "بولس"، و"برنابا"، وهما يأكلان ثمار الزيتون! وبالقرب من مكان آخر يدعى «غاسوس»، يوجد قبر يُعتقد أنه يضم بقايا جسد "مناسون" التلميذ القديم الذي ذُكر في "سفر أعمال الرسل" (٢١: ١٦). ويُعتقد أن "مناسون" نال معموديته على يد "البشير يوحنا". وكان يسكن في مكان على مسيرة يوم من «أورشليم»، وهو الذي آوى "بولس"، و"لوقا"، ويقال إنه صنع معجزة، نجم عنها شلل ذراع الجباة المقاومين للمسيحية!

وفي «بافوس»، التقى الرُسل بالحاكم "بولس سرجيوس"، وهو رجل حكيم سبقه في ذلك المركز الخطيب المعروف "شيشرون". في تلك الأيام، كانت المناطق الرومانية مُقَسمة إلى قسمين: قسم منها يقع تحت حكم مجلس الشيوخ مباشرة، ويحكمه ولاة من قِبل المجلس. وقسم آخر يقع تحت سيطرة الإمبراطور، ويعين له الحكام من قبله. ويحدد "لوقا" مراكز "بيلاطس"، و"فيلكس"، و"فستوس"، [أنهم كانوا] حُكاماً من قِبل "قيصر". ولكن "بولس سرجيوس" كان مُعيَّناً من قِبل الشيوخ. ولقد ظن البعض أن "لوقا" أخطأ في تحديد مركز "سرجيوس" بهذه الصورة، خاصة وأن «قبرص» كانت خاضعة لحكم الإمبراطور "أغسطس قيصر". ولكن الذي حدث هو أن «قبرص» أصبحت بعد ذلك تحت سيطرة مجلس الشيوخ. وقد اكتُشفت نقود تحمل اسم "سرجيوس" ورتبته كقنصل أو حاكم من قِبل المجلس.

وفي «بافوس» حدثت مناهضة "باريشوع" أو "عليم" الساحر "للرسول بولس، والتي انتهت بمعجزة إصابته بالعمى، وإيمان الوالي بالمسيحية. ومن هناك، لم يستخدم "بولس" اسمه العبراني

---

[1] وكلمة " نحاس" في الإنجليزية يحتمل أن تكون مأخوذة من كلمة "قبرص". واليوم تقوم باستغلال هذه المناجم القديمة شركة أمريكية. [المُراجع].

في رحلاته، بل عُرف فيما بعد باسمه الروماني "بولس"، فقد كانت رحلاته في مناطق رومانية.

وبعد أن ترك الرُسل «قبرص» رجعوا إلى أرض الوطن، مستقرين إلى حين في «أنطاكية بمفيلية»، وهي إحدى المدن الست عشرة التي بناها "سلوكوس الأول"، وأعطاها هذا الاسم. وفي خرائب هذه المدينة اكتُشفت بقايا معبد للإله "من"، إله الخصب، وأمامه مذبح كبير. وبقايا عظام حيوانات كانت تقدم كذبائح. وعلى جدران المعبد وُجِد رمز ذلك الإله، وهو صورة رأس ثور مزَّينة بالورد – وبالخرائب أيضاً اكتشفت بقايا القنوات المائية التي كانت توصل المياه إلى المنازل عن طريق مواسير تحت الأرض، وهناك كان "بولس" يحاج في "مجمع اليهود". ولعل ذلك المجمع كان مثل مجامع اليهود في أيامنا الحاضرة: المنبر لقراءة التوراة في الوسط، تحيط به صفوف كراسي العابدين، لكي تكون عيونهم مُركَزة على القارئ، والسيدات خلف حاجز خشبي، واتجاه المجمع ووضع العابدين إلى جهة «أورشليم». وقد قدم لنا "لوقا" مُلخصاً لعظة "بولس" التي استهلها بالحديث عن نبوات الأنبياء من "اليهود"، وتقدم خطوة فخطوة إلى أن وصل إلى تعاليم المسيح، وقد رحب "اليهود" به في البداية، ولكنهم ثاروا في الأسبوع التالي، فجابههم "بولس" بهذا القرار؛ إنه من تلك اللحظة يتجه إلى الأمم. وقد كانت هذه نقطة فاصلة في خدمة "بولس"، جعلته يُصبح، من ذلك الحين، رسول الأمم. وفي هذه المدينة الرومانية، ما كان "اليهود" يستطيعون أن يصدروا حُكماً على "بولس"، فلجأوا إلى إثارة اليونانيات النبيلات، واضطر "بولس" إلى الرحيل إلى «أيقونية» (أو «قونية») على بُعد ستة أميال من هذا المكان.

وبالقرب من «قونية» يوجد مرتفعان يعرفان باسم "بولس" و"تكلا". و"تكلا" هو واحد من الذين اعتنقوا المسيحية من أهل «قونية»، وقصته مذكورة في "أعمال بولس وتكلا"، وهو سفر غير قانوني[1]، كان معروفاً للمسيحيين الأولين. وفي هذا السفر، ورد الوصف الوحيد لمنظر "بولس": كرجل قليل الجسم، خفيف الشعر، ملتوي القدمين، مقترن الحاجبين، أقني الأنف، ممتلئ

[1] ليس ضمن الأسفار المقدسة. [المُراجع].

بالنعمة، أحياناً يبدو في مظهر عادي، وأحياناً يصبح وجهه كوجه ملاك.

ولم تكن «قونية» مستعمرة رومانية، ولكنها كانت مدينة يونانية ديموقراطية. وقد هجم الرعاع على الرسولين، فاضطرا إلى الهروب إلى «لسترة» ... ومدينة «لسترة» هذه تقع على بُعد ٢٥ ميلاً من «قونية»، واُكتشف خرائبها عالم أمريكي. وهناك اكتشفت بقايا معبد، ولوحة رخامية كُتب عليها اسم المدينة باللاتينية إشارة إلى المعبد منذ عهد "أغسطس قيصر". لذلك لابد أن يكون "بولس" قد رآه. وفي «لسترة» حدثت معجزة إقامة المقعد، وتقدم كهنة "جوبتر" ليذبحوا الذبائح ظناً منهم أن "جوبتر" و"الزهرة" قد تجسّدا في صورة البشر. والأساطير تروى أن الإلهة "جوبتر" (المشتري) "فينوس" (الزهرة) تجسدا في القديم، وتقدما إلى منازل المدينة منزلاً بعد الآخر يقصدان المأوى، ولكن الأبواب كلها أوصدت في وجهيهما – ما عدا بيت رجل فقير يُدعى "فليمون"، رحب بهما هو وزوجته "بوكيس". وفي الصباح تحولت المدينة كلها إلى بركة، وأهلها إلى أسماك[1]، ونجا "فليمون" وزوجته، وهذا يُرينا سرّ خوف أهل المدينة، وقد اكتُشفت لوحات في الهيكل تُمَجد "زفس"، أو "زيوس وجوبتر" (كبير آلهة الرومان) و"هرمس" أو "عطارد" أو "الزهرة".

وكانت خاتمة المطاف في جولة "بولس" في هذه المنطقة مدينة «دربة»، وهذه المدن الأربع «أنطاكية»، و«أيقونية»، و«لسترة»، و«دربة» كلها تقع في دائرة «غلاطية». وهذا يجعلنا نُرّجح أن "رسالة بولس إلى غلاطية" كانت إلى كافة المسيحيين في هذه المدن الأربع. وقد امتلك المغول هذه المنطقة عام (٢٧٨ ق.م.)، وخضعت "للرمان" عام (٦٤ ق.م.)، ومن منطقة "غلاطية"، رجع الرسل إلى مدينة «أنطاكية» في «سورية».

وفي رحلة "بولس" الرسول الثانية، قام هو و"سيلا" بزيارة المدن التي بشرا فيها أولاً، ثم اتجها إلى «ترواس» في «غرب آسيا الصغرى». وهناك ظهرت "لبولس" الرؤية التي رأى فيها رجلاً مقدونياً يقول له "اعبر إلينا وأعنا". وهنا، كانت بداية رحلاته وتبشيره لمدن «أوروبا». ومن هناك،

---

[1] حسب الأسطورة.

أنضم لهم "تيموثاوس" في «لسترة»، و"لوقا" في «ترواس». وهكذا صار عددهم أربعة. ومن المدهش أن نقارن رحلة "بولس" هذه "بحملة زركس" قبل خمسمائة عام من ذلك التاريخ، حيث يحدثنا "هيرودوت" عن هذه الحملة أن جنوداً من كافة أنحاء إمبراطورية «فارس» العظيمة قد اشتركوا فيها من «الهند» و«الحبشه» ومن «بلاد العرب» و«أفغانستان»، على ظهور الخيل والجمال، البعض يحمل رماحاً، والبعض الآخر سيوفاً، والبعض يرتدي أزياءً غريبة. وكانوا بهذه الكثرة[1]، فقُدِّر عددهم بمليون و٧٠٠ ألف جندي، بالإضافة إلى ١٢٠٧ سفينة، رابضة في البحر.

ولكن هذه الحملة الجبارة قُدِّرَ لها الفشل الذريع، ولم يفلح في النجاة إلا فلول ضئيلة من هذا الجيش الجبار. ولنقارن هذا الجيش بأربعة من الرجال العُزّل، يتقدمون ليفتتحوا – لا مملكة واحدة، بل قارة بأكملها! فإذا بهم يستطيعون أن يكسبوا الشعوب، ويحطموا الممالك، ويقّوضوا الديانات والفلسفات؛ فيرتفع علم الصليب عالياً فوق دول الأعداء! لقد كان "زركس" يطمع في إخضاع شعب مملكة واحدة تدفع له الجزية فقط، ولكن المسيحية ما كانت ترضى بأقل من تسليم النفس والجسد والروح. وقد نجح "بولس" حيثما أخفق "زركس" – ليس في إخضاع «اليونان» فحسب، بل في إخضاع «أوروبا» بأكملها.

أما مدينة «فيلبي» التي كانت أول مدينة أوروبية بشرَّ فيها الرسل، فقد سُميت على اسم "فيليب المقدوني"، الذي أسسها عام (٤٠٠ ق.م.)، وقد أصبحت المدينة مستعمرة رومانية عام (٤٢ ق.م.)، أما جماعة "بولس" فقد نزلت في «نيابوليس» على بُعد تسعة أميال من «طريق أجنائيا» الشهير الذي كان يشق قلب «فيلبي» ماراً «باليونان»، ويصل إلى «روما» نفسها. وقد أُكتشف هذا الطريق، وبه حُفر من آثار عجلات المركبات التي كانت تمر به.

وقد قام الباحثون بعمل حفريات واسعة النطاق منذ عام (١٩١٤ – ١٩٣٨م.) في «فيلبي». وقد أُكتشف هناك معبدان يُحيطان بملعب روماني، وبقايا منازل كثيرة. وفي أقصى شمال المدينة،

---

[1] حتى أنه لم يعرف عددهم، فكانوا يعيشون كل عشرة آلاف لكل ميل مربع!

اكتشفت ساحة للقضاء مثل المذكورة في "سفر الأعمال" (١٦ : ١٩-٢٠). وفي قسم آخر من المدينة، اكتُشفت بقايا كنائس يرجع تاريخها إلى ما بعد عهد "بولس". وعلى بُعد ميل من المدينة، يرى الرائي «نهر جانجايتس» الذي ذُكر في "سفر الأعمال" (١٦ : ١٣)، حيث اكتشف "بولس" بعض النسوة المتعبدات يجتمعن للعبادة في السبوت بجوار النهر. وإحداهن كانت "ليديا" بائعة الأرجوان، التي كانت أول سيدة أوربية اعتنقت المسيحية. أما «نهر جانجايتس»، فهو نهر ضحل المياه، صافٍ، اتساعه عشر ياردات أو أكثر قليلاً. وكانت المدينة مركزاً حربياً ممتازاً في عهد "بولس"، وهناك شُفيت الفتاة التي بها روح العرافة، وانتهى الأمر بإثارة الشعب على "بولس" وجلده، وإلقائه في السجن حيث حدثت الزلزلة، واعتنق السجان المسيحية. وقد كان مسيحيو «فيلبي» في حياة ممتازة، بحيث أن رسالة الرسول لهم لا تحوي كلمة واحدة من النقد.

وتقدم الرسول "بولس" بعد ذلك إلى «تسالونيكي» على بُعد سبعة أميال من ذلك المكان على «طريق أجناتيا». وقد بناها "الإسكندر" عام ٣١٥ ق.م. وأسماها على اسم زوجته أخت "الإسكندر". وفي موقعة «فيلبي»، انضمت المدينة إلى جانب "المنتصر"، فكوفئت بجعلها مدينة حرة. وفي الأصل اليوناني "لسفر الأعمال" (١٧ : ٦) نجد أن حُكام المدينة هم عائلة "بلوطرخس" أو "بلوتارك" (الذين حاكموا "ياسون"). وقد أثار هذا الرأي اعتراض الكثيرين، من حيث أن هذا الاسم لم يذكر في التاريخ. ولكن اكتُشفت بوابة في «فيلبي» منقوشاً عليها أحداث حدثت في عصر "بلوتارك"، وقد اكتُشفت أيضاً أماكن أخرى عليها نقوش من عصر "بلوتارك". وفي "رسالة تسالونيكي" لُقِّب الرُسل "بالذين فتنوا المسكونة"، وهو لقب عظيم مشّرف، يشير إلى مدى تأثير المسيحية في المجتمع الروماني ...

وبعد تسالونيكي، رحل "بولس" إلى «أثينا»، مهد الفلسفة، والفن، والمعمار. ولكن "بولس" لم يستغرب أن أهل «أثينا» ليسوا في اكتفاء بما وصلوا إليه، فقد كانت تنقصهم أشياء. وقد بدأت الحفريات في خرائب المدينة القديمة منذ عام ١٨٤١م.، وكشفت عن آثار غاية في الروعة -- لعل أروعها "معبد الأكروبوليس"، وهو يرتفع فوق صخرة علوها ٥١٢ قدماً. وقد ظهرت «أثينا» على

مسرح التاريخ منذ القرن السابع للميلاد، واتخذت مركز الزعامة في "العالم الإغريقي" خلال "حروب الفرس".

ووصلت «أثينا» إلى عصرها الذهبي تحت حكم "بركليس" (٤٤٣-٤٢٩ ق.م.)، مما جعل "فدياس" المثَّال الشهير يجَند كل فنه، لإقامة التماثيل بها في كل مكان. ومن غنائم موقعة "ماراثون"، صنع "فدياس" تمثالاً عظيماً للإله "أثينا"، ووضعه في «الأكروبوليس»، وكان البحارة يشاهدون على بعد أميال تألق الشمس على رمح أثينا وخوذتها. وهيكل التمثال من الخشب النفيس المُغلَّف بالعاج، أما العينان فكانتا من الماس، وخصل الشعر والخوذة من الذهب. وكما قال أحدهم:

"إن تاريخ الإغريق كله يُذكر [يتمثل] في هذا التمثال".

وفي عصر "بولس" كانت التماثيل منتشرة في كل مكان، تماثيل للآلهة: "منيرفا" و"جوبيتر"، و"أبولو"، و"عطارد"، و"باكوس". وفي «الأكروبوليس» تماثيل أخرى تمثل كل قصص المثولوجيا الإغريقية: (تيسيوس يصارع المونتور)، و(هرقل يخنق الأفاعي)، و("منيرفا تنمي أشجار الزيتون)، بل إن أحدهم قال:

"إنه من الأيسر لك أن تلتقي في «أثينا» بتمثال من أن تقابل إنساناً".

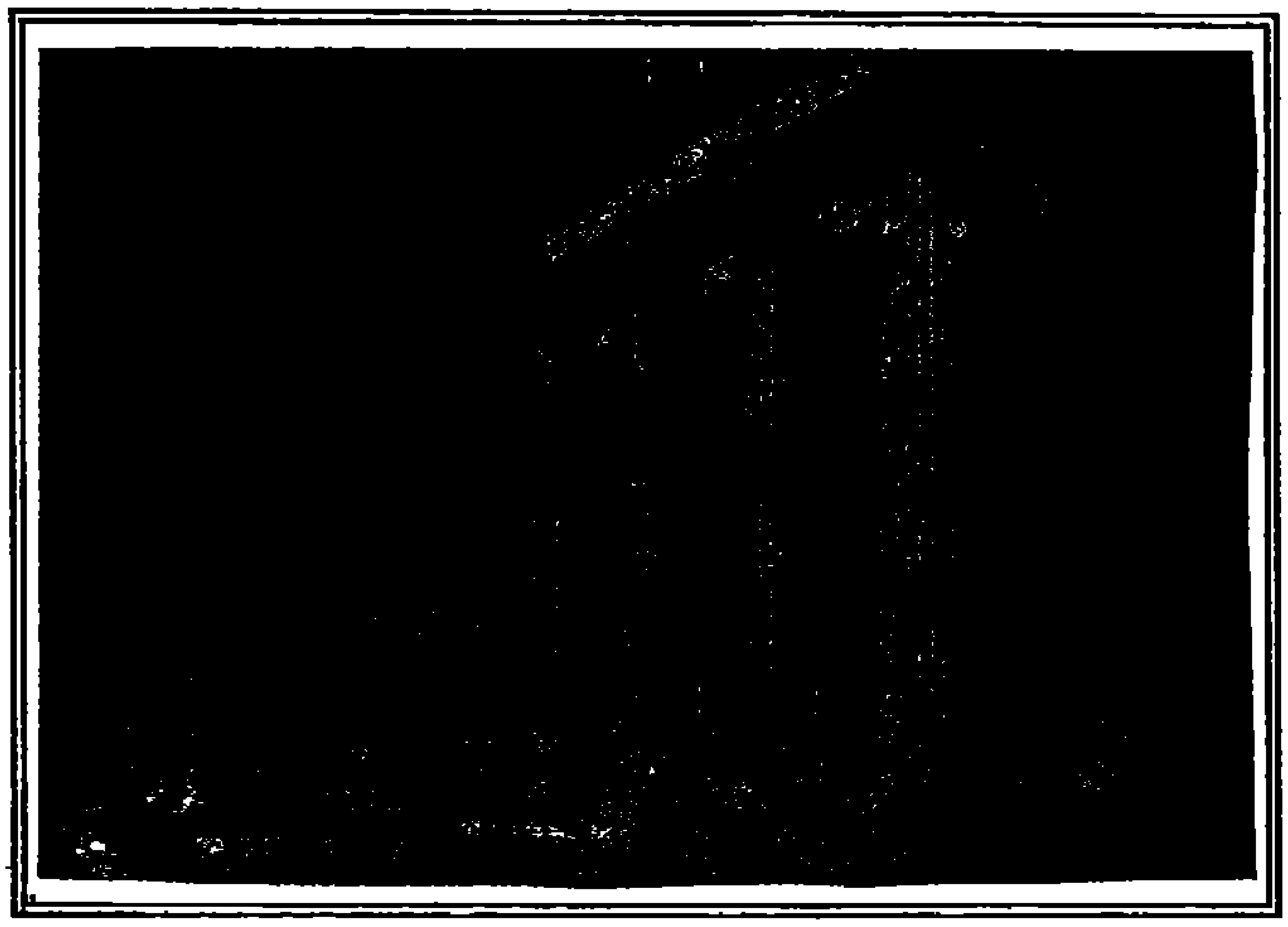

❑ خرائب أثينا.

لذلك لا غرابة أن تحتد نفس "بولس" فيه. على أن هذه الآلهة لم تكن تُقرب الإنسان من السماء أو تسمو بحياته، وفي الواقع ما كان الآلهة يختلفون عن البشر في شيء – إلا في قوتهم غير العادية، وخلودهم، ولكنهم يغشون، ويكذبون، ويرتكبون المعاصي، ويثيرون الحروب، والضغائن. وكما قال الفيلسوف "سنيكا":

"إن تأثير حياة تلك الآلهة لا يفعل شيئاً في حياة البشر – إلا أن ينزع منهم الخوف، والخجل من ارتكاب الشرور، ويجعلهم أكثر اندفاعاً في الفجور!".

والمنطقة الثانية الهامة بالمدينة هي «الأجورا» أو (السوق). وقد كانت المركز الثقافي والتجاري لها، ويتحدث "لوقا" عن "الأثينيين" ورغبتهم في معرفة كل ما هو جديد (أع١٧: ٢١). وهي ملاحظة يؤكدها غيره من المؤرخين القدامى، وهناك حدثت مناهضة "اليهود" "لبولس". وقد قام الحفّارون بعمليات واسعة النطاق، ورفعوا آلاف الأطنان من الأتربة عن المكان؛ فظهرت للعيان أبنية بأعمدة مرمرية غاية في الجمال، ومعبد للإله "أبولو"، وصالة لاجتماعات مجلس الخمسمائة في بناية أخرى دائرية لاجتماعات المجلس التنفيذي، ومكتبة عامة، وصالة للموسيقى – وفي هذه الأمكنة بدأ "بولس" دعوته لأهل «أثينا».

وسمع رجال الفكر «بأثينا» عن "يهودي" متجول ينادي بتعاليم جديدة، فامتلأوا شوقاً أن يعرفوا كل شيء. والبعض سخر منه قائلاً:

"تُرى ماذا يقول هذا المهذار؟"

والكلمة "مهذار" في الأصل اليوناني، قد تعني ملتقط البذور، أو جامع الشتات، ولذلك فالمقصود هنا: "ماذا يقول هذا الطفيلي الذي يلتقط شتات الفلسفات من هنا وهناك؟"

أما "الأريوباغ"، فقد كان صالة للاجتماعات على تل «مارس» غرب «الأكروبوليس». والتل صخرة جرداء ترتفع إلى ٣٧٧ قدماً، وبالقرب من القمة درجات منحوتة في الصخر تبلغ ١٦ درجة، تُوَصل إلى مسطح مرتفع تحيط به الأرائك المنثورة في الصخر من جوانب ثلاثة. وهنا، كان

اجتماع شيوخ المدينة وكبارها للبحث في المسائل السياسية والدينية. وفي عهد "بولس"، انتقل مكان الاجتماع إلى موضع يُعرف بـ "الستوا" الملكية بجوار السوق. ولعل هذا هو الموضع الذي تحدث فيه "بولس".

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يلتقي فيها "بولس" بفلاسفة من "الأغريق" ... فإن بلدة «طرسوس» كانت ملتقى الفلاسفة، ومهد الفلسفة الرواقية. وهناك اثنان من الجيل الثاني لفلاسفة الرواقيين كانا من «طرسوس»: "أنتباتر الطرسوسي"، و"زينون الطرسوسي". وكان "بولس" مُلِماً كل الإلمام بأصول "الفلسفة الرواقية" – ومباحثاتها، وكانت طريقته في المحاجة قوية بهذا القدر – حتى إن واحداً من أعضاء "المجلس الأريوباغي" ويُدعى "ديونسيوس" اقتنع برأيه، وانضم للمسيحية. ولقد كانت طريقة "بولس" في هذه المحاجة تختلف كل الاختلاف عن طريقته في الحديث إلى "يهود أنطاكية". فلم يُشِر فيها إلى اقتباسات من العهد القديم، ولكنه تحدث باقتباسات من "الفلسفة اليونانية"، و"الشعر القديم"، وعن المذابح، والهياكل. أما حديثه عن "الإله المجهول"، فقد يبدو غير معقول بالنسبة للبعض. ولكن الكثيرين من الكُتاب القدامى، يتحدثون عن هذا الأمر كحقيقة واقعة. فلقد كتب مؤرخ يُدعى "أبولونيوس"، قام بزيارة «أثينا» في نفس الوقت الذي قام فيه "بولس" بزيارتها، فقال:

"ينبغي أن تتحدث بإحسان عن كل الآلهة، وخاصة في «أثينا»، حيث تقام المذابح، حتى للآلهة المجهولين"

وشهد آخر، وهو عالم من علماء تقويم البلدان، عاش في منتصف القرن الثاني، أنه في أثناء رحلته إلى «أثينا» شاهد في منتصف الطريق بين الميناء والمدينة مذابح مقامة إكراماً لآلهة تُدعى "المجهول". وفي «برغامس»، اكتُشف أخيراً لوحة كُتب عليها "لإله مجهول".

ولقد كانت الفترة التي قضاها "بولس" في «أثينا» قصيرة، ونتائجها ليست مشجعة. أما عن "ديونسيوس"، فيقال إنه التصق ببولس، ورافقه إلى «روما»، إلى حين استشهاده. وبعد ذلك أرسله

"أكليمندس الروماني" إلى بلاد «الغال» لتبشيرهم. فوصل إلى جزيرة على مصب «نهر السين»، وكسب أتباعاً كثيرين. وعُين أُسقفاً على «باريس». ويقال إنه استشهد أثناء حكم "دومتيان"، على «تل الشهداء»، أو «مونمارتر»، كما يُسمى الآن. وقد أدرجت كنيسة «روما» اسمه ضمن الشهداء ، فأصبح "سان دنيس" حامي «فرنسا».

ومن الجائز لنا أيضاً أن نقول إنه في «أثينا» رأى "بولس" بنايات أكثر مما رأى في أي مدينة أخرى، ففي «أثينا» كانت هناك متاحف، تضم مجوهرات ونقود أثرية وأغطية للرأس من ذهب، وغير هذا من مختلف التحف.

وحينما سافر "بولس" ومن معه إلى «كورنثوس»، كانت «كورنثوس» عاصمة «اليونان» التجارية. ولقد اشترك مع "بولس" في العمل "تيموثاوس" و"سيلا". أما «كورنثوس» فهي تقع إلى الجانب الغربي من البرزخ الأرضي الذي يفصل الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة بالجزء الشمالي منها. وعلى بُعد عشرة أميال إلى الشرق كان «ميناء كنخريا»، حيث كانت ترسو السفن من الجزر المحيطة، ومقابل هذا الميناء من الغرب كان «ميناء ليكايوم»، وهو الميناء البحري «لكورنثوس». ولذلك كانت السفن تأتي من «روما»، و«أسبانيا»، و«صقلية»، وتصل إلى «ليكايوم»، وتنقل البضائع منها على ظهور الدواب إلى الميناء المقابل بالشرق مارة «بكورنثوس». وقد فكر "نيرون" في شق قناة تصل بين مياه الجانب الغربي ومياه الجانب الشرقي، واستخدم في هذا العمل ستة آلاف من شباب اليهود الذين سباهم "الرومان" في "حرب أورشليم". ولكنه ما لبث أن نفض يده من هذا المشروع، حين قيل له أن مستوى مياه البحر في الغرب غير مستواه في الشرق، وأن هذا العمل سينجم عنه غرق كثير من الأراضي الزراعية. ولم يتم حفر القناة إلا في العصور الحديثة في أواخر القرن التاسع عشر[1].

[1] وهي نفس القصة عند حفر قناة السويس، حيث لم يتم الحفر إلا في منتصف القرن التاسع عشر. [المُراجع].

□ كورنثوس اليوم.

وهكذا كانت «كورنثوس»، بفضل موقعهما، ملتقى تجارة الشرق بالغرب. بل إنها منذ القرن السادس قبل الميلاد كانت مشهورة بكثير من الصناعات، وأهمها صناعة "الخزف" و"البرنز". وحلت بها النكبة حينما غزتها جحافل "الرومان" عام (١٤٦ ق.م.)، وهدمت منازلها، وسبت أهلها أسرى، وقد أعاد بناءها "يوليوس قيصر" عام (٤٦ ق.م.)، وأصبح بها منذ عهد "أوغسطس قيصر" دار القنصلية، وقد انتابت المدينة الزلازل مرتين في المئة سنة الأخيرة.

أما عن نتائج التنقيب في المنطقة، فقد اُكتشف أن المدينة القديمة كانت مقامة على مكانين، الواحد يعلو الآخر بمئة قدم، ومن خلف المدينة جبل عال. وقد كان محيط المدينة في عصر "بولس" ستة أميال. تحيط بها الأسوار، وكان هناك سور آخر يصل بين المدينة وميناء «ليكايوم»، تصله بالمدينة بوابة ضخمة ... وعلى الجبل الذي يقع خلف المدينة كان يقوم معبد لعبادة إلهة الحب "أفروديت". وإلى شمال غرب سوق المدينة اكتُشفت بقايا معبد آخر "لأبولو"، وكانت تقوم على ممارسات العبادة الدنسة في معبد "أفروديت" ألف كاهنة. وتحت سلسلة الحوانيت الكائنة بالسوق اكتُشفت قنوات تحمل مياه الشرب للسكان، وكانت هناك. لافتة لأحد الحوانيت باسم "مَلْحَمة" أو "محل جزارة"، وهي تعني الكلمة الواردة في "رسالة كورنثوس الأولى" (١٠: ٢٥)، ولافتة أخرى تشير إلى إنسان ذي حيثية يدعى "إيراستس"، وقد كان مقاولاً لأعمال هندسية،

ولعلـــه "إيراســطس" (أو "إيراســتس") المذكـــور في "ســفر أعمـــال الرســـل" (١٩: ٢٢)، وفي "الرسـالة إلى روميـة" (١٦: ٢٣). وفي عـام (١٨٩٨ م.) اكتُشـفت بقايـا مجمـع لـليهود يـرجع تاريخـه إلى ما بين عامي (١٠٠ ق.م. – ٢٠٠ م.). واكتُشفت به كتابة تدل على أن المجـتمع اليهـودي هـناك لم يكـن له حـظ كبير من التعليم. و"بولس" يعترف بذلك قائلاً: "ليس كثيرون حكماء ... ليس كثيرون أقوياء ... ليس كثيرون شرفاء ..." (١كو ١: ٢٦).

وقـد كشـفت أعمـال الحفـر في مـنطقة السـوق عن مسطح مرتفع يُدعى باللاتينية «الروسترا»، وهـي تقـابل في اليونانيـة كـلمة (كرسـي)، وهو المكان الذي جلس فيه "غاليون" ليستمع إلى شكاية اليهـود ضـد "بولـس" (أع ١٨: ١٢–١٧). أما عن "غاليون" – الذي يبدو من قراره ضد اليهود أنه إنسـان مـتزن حكيـم، فهـو أخـو الفيلسـوف "سـنيكا"، كما يؤكد المؤرخ "تاسيتوس"، وقد اُكتشف مكـتوب في مكـان يـبعد سـتة أميـال عن خليج «كورنثوس»، يتحدث فيه الكاتب عن تقرير، وصله مـن الصـديق "لوسـيوس غـاليون" قنصـل «أخائيـة»، وهـذا المكـتوب لا يؤيّد فقط وجود "غاليون"، ولكـنه يحـدد بـالفعل تـاريخ وصـول "بولـس" إلى مدينة «كورنثوس»، فلقد ذهب "بولس" إلى هناك قـبل جـلوس غـليون على كرسي الولاية بعام ونصف العام، وما دام هذا المكتوب يرجع تاريخه إلى عـــام ٥٢م.، فـــإن "بولـــس" يكـــون قـــد وصـــل إلى المديـــنة حوالـــي عـــام (٥٠م.).

ولم يكـن «لكورنـثوس» ميـزة في الـتاريخ – عدا ثروتها الطائلة، ولكن هذه الثروة الطائلة فعلت فعـلها في شـعب لا يجـد وازعـاً لـه مـن تعـاليم ديـنية سـامية، فأصـبحت «كورنـثوس» بؤرة الشر والفسـاد. وكـان اسـم «كورنـثوس» مـرادفاً لكـلمة منحل ولا أخلاق له! وكانت العادة أن يمثل دور السـكير في أيـة مسـرحية رجـل مـن «كورنثوس». بل إن "الرسالة إلى كورنثوس"، نفسها، تتحدث عن بعض أعضاء الكنيسة، بأنهم كانوا من هذه الطبقة مستعبدين لمثل تلك الخطايا الفظيعة.

وفي «كورنـثوس»، الـتقى "بولـس" بعـدد مـن اليهـود الذيـن طـردهم "كلوديوس" من «روما»،

ومنهم "أكيلا" و"بريسكلا" – ويؤكد "سوتينوس" صدق هذه الحادثة التاريخية، ويبررها بقوله:

"إن اليهود كانوا يثيرون الشغب ضد اتباع إنسان ثوري يدعى خرستوس".

وهذا يشير إلى هجماتهم على المسيحيين. وهنا، كان يعمل "بولس" مع "أكيلا" و"بريسكلا" في صناعة الخيام، وقلوع السفن. وقد كانت «كورنثوس» سوقاً رائجة لهذه الصناعة.

ومن مظاهر الحياة في «كورنثوس القديمة»، حفلات الألعاب الأولمبية التي كانت تقام كل عامين، وكان الجمهور يشترك فيها بحماس منقطع النظير. وما دام "بولس" قد قضى سنتين في «كورنثوس»، فلابد أنه شاهد هذه المباريات. وأن رسالتين لأهل «كورنثوس» من "بولس الرسول" لتحويان الكثير من الإشارات إلى مثل هذه الألعاب، والاستعارات المقتبسة منها. وعلى سبيل المثال، نجد "بولس الرسول" يتحدث في (١كو ٩: ٢٤–٢٧) عن السباق، والجوائز، وقوانين التمرين، وإكليل الفائز، والمصارعة. وهناك، أيضاً، إشارات رمزية إلى السباق، والحُكم، والصراع مع الوحوش. ويحدثنا التاريخ أن كل رياضي يريد أن يشترك في المباريات، كان عليه أن يتعهد بالبقاء تحت التمرين مدة عشرة شهور قبل بدء المباريات، وجميع إشارات "بولس الرسول" التي وردت في هذا الصدد، وكذلك ما ورد في سفر الأعمال، ينطبق تمام الانطباق على الحياة في «كورنثوس القديمة».

على أن وجود "بولس" في «كورنثوس» يسجل لنا حادثة تاريخية في غاية الأهمية، بالنسبة للمتتَّبع لتاريخ المسيحية وتطورها. فهناك كتب "بولس" أقدم وثيقة سُطرت في كتابات العهد الجديد، ألا وهي "رسالته الأولى إلى أهل تسالونيكي"، التي أرسلها من «كورنثوس»، ولقد كان البعض يعتقدون أن "بشارة مرقس" هي أقدم أسفار العهد الجديد، وكانوا يتخذون من ذلك حجة لتطور الفكر المسيحي عن شخصية المسيح، ولاهوته[1]، ولكن الأبحاث الأخيرة قد قلبت حججهم رأساً على عقب. لقد كانوا يعتقدون أن "بشارة مرقس" تمثل بداية الفكر المسيحي عن

---

[1] وكأن بولس الرسول هو الذي طور الفكر المسيحي عن ألوهية المسيح [المُراجع].

شخصية المسيح، فتُظهره لنا في صورة ابن الإنسان، وشيئاً فشيئاً تطور فكر المسيحيين الأولين عن "المسيح"؛ فرأوا فيه ابن الله كما تُصَوِّره "بشارة يوحنا"! وبين البشارتين "مرقس"، و"يوحنا"، مئة عام كانت كافية ليتبلور فيها الفكر المسيحي! ومع ذلك، فقد ثبت، أخيراً، أن "الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي"، قد أرسلها "بولس الرسول" قبل ظهور "بشارة مرقس" بما لا يقل عن عشرين عاماً كاملة. وهكذا، نجد أمامنا رسالة فكرية ناضجة عن المسيح، تتحدث عنه كابن الله الحي المقام من الأموات، والذي سيأتي ثانية، والذي تجد الكنيسة حياتها وكيانها في وجوده، ذاك الذي هو مصدر كل نعمة، وينبوع كل تعزية.

ولقد أرسل "الرسول بولس" بعض رسائل «لكورنثوس»، لنا منها في العهد الجديد رسالتان[1]، ويُرَجِّح البعض أن الأصحاحات من (١٠– ١٣) في "رسالة كورنثوس الثانية"، هي رسالة ثالثة مدمجة في الثانية، كما أن الرسول يتحدث في الأولى عن رسالة سبقتها.

وفي "رسالة كورنثوس الأولى"، نجد صورة للثغرات التي انتهت إلى تفكك المجتمع المسيحي الأول: التحزبات، وعدم النزاهة، والسُكر، والمظالم، والعثرات. ولا نستغرب لهذا، حين نذكر البيئة الشريرة التي عاش فيها "الكورنثيون". ولكن من أمجاد الوحي الإلهي أن يتخذ "بولس" [بالروح القدس] من هذه الضعفات، وسيلة لتقديم أعظم حقائق في العقيدة المسيحية، فكانت زلات أولئك طريقاً لغنى الكنيسة ومجدها. فبسبب التحزبات، تحدث "بولس" عن الكنيسة كجسد المسيح الواحد .. ولأن البعض كانوا ينادون بأنه لا قيامة من الأموات؛ تقدم إلينا بأروع تعاليمه عن القيامة .. وبسبب روح الفتور والشقاق والكراهية التي نجمت عن ذلك؛ قدم "بولس" أروع أنشودة في المسيحية عن المحبة، في الأصحاح الثالث عشر من "كورنثوس الأولى". فيا لغنى النعمة الإلهية!

ومن بين الأماكن التي زارها "بولس"، مدينة «أفسس». وقد لبث فيها أطول مدة ممكنة، إذ

---

[1] الموحى بهما بالروح القدس.

بلغت إقامته هناك ثلاث سنوات، وللمدينة تاريخ طويل، فقد أُقيمت قبل أن يزورها "بولس" بعدة قرون – وغزاها قبل "الرومان"، "كروسوس"، و"سيرس"، و"الإسكندر". وفي فترة من فترات تاريخها، كانت عاصمة المنطقة. وفي عصر "بولس" كانت تقف جنباً إلى جنب مع «أنطاكية»، و«الإسكندرية»، كواحدة من المدن الثلاث العظمى في الشرق. وهي تقع على بُعد ثلاثة أميال من الشاطئ، على «نهر قسطر»، في عصرنا الحاضر، ولكنها في عهد "بولس"، كانت على شاطئ البحر، ولو أن مصب النهر كان يستلزم تعميقه بين الحين والحين، حتى يمكن أن تمر السفن إلى الداخل – وبالقرب من «أفسس»، الآن، محطة صغيرة اسمها «آياسلوك»، وهو اختصار الكلمة "آيوس ثيولوجوس"، وهو اللقب[1] الذي أُعطي "ليوحنا"، والتقليد يخبرنا أن "يوحنا الحبيب" أمضى سني حياته الأخيرة في «أفسس»، وقد أقام الإمبراطور "جوستنيان" كنيسة هناك باسمه.

وقد كانت «أفسس» مشهورة بعبادة "أرطاميس" أو "ديانا" – وقد قضى المهندس الإنجليزي "وود" ست سنوات كاملة في البحث والتنقيب بين خرائبها بقصد اكتشاف "معبد ديانا". وقد دلته لوحة اكتشفها صدفة عن وجوده على بعد ميل من المكان، واكتشف به عدداً من صور الآلهة من الفضة والذهب، زنة كل صورة منها ما بين ستة أو سبعة أرطال إنجليزية.

ولهذا المعبد تاريخ طويل، فقد بُني عِدة مرات بعد تخريبه أو سقوطه أو إحراقه بيد الأعداء. وقد بُني، لأول مرة، في القرن السادس قبل الميلاد، وأُعيد بناؤه عام (٤٣٠ ق.م.)، واستغرق قرناً وربعاً من الزمان لكي يتم، وفي عام (٣٥٠ ق.م.)، أقام الإسكندر غيره على نطاق أضخم، وأقام به مئة عمود من الرخام، لتحمل سقفاً يُغطى بقطع كبيرة من الرخام، محلاة بنقوش ذهبية وفضية وتماثيل غاية في الإبداع، وقد قال عنه مؤرخ معاصر لذلك العهد:

"لقد رأيت "حدائق بابل المعلقة"، وشاهدت تمثال "الإله جوف"، و"أهرامات الفراعنة

---

[1] والوحي استخدم كلمة "اللوجوس" (Logos) اليونانية للمسيح كلمة الله الموجود منذ الأزل، كما في (يو ١ : ١). راجع أيضاً كتاب: "تجسُّد الكلمة" لأثناسيوس الرسولي – دار النشر الأسقفية. [المراجع].

الشاهقة"، و"مقابر الوصل الأثرية"، ولكنني حينما شاهدت "معبد ديانا"، تضاءلت كل هذه في عيني .. حقا عظيمة هي أرطاميس الأفسسيين"!"

أما "تمثال ديانا"، فقد كانوا يعتقدون أنه هبط من السماء[1]. وكان القدامى يُعيّدون في كل عام شهراً، يحجون فيه إليه، وتعطل كل الأعمال. وكان لكل يوم مواكب دينية خاصة تحمل صور "ديانا"، وتطوف بالمدينة، والألوف من المحاريب الفضية والتماثيل، كانت تباع للحجاج. وفي أيام العيد الكبير، يطوف بالمدينة "تمثال ديانا"، محمولاً على عربة تجرها البغال أو الغزلان. ولقد اكتُشفت تحت المذبح، كميات هائلة من نفائس الفضة والذهب والتحف الجميلة، ومن ضمنها تماثيل للإلهة "لديانا". وعثر المنَّقبون، أيضاً، على مجموعة الطبل الشهير المُطعم بالنقوش الذهبية، والذي أهداه ملك "ليديا" للمعبد – وكانت مدينة «أفسس» تفخر بأنها خادمة "ديانا"، ووصيفة معبدها، والقائمة على نظافته، وقد اكتشفت صور هذه الألعاب منقوشة على النقود القديمة المُكتشفة هناك.

أما عن كاتب المدينة الذي ذُكر في "سفر الأعمال"، والذي كان له السلطان أن يصدر أمره إلى الجمهور الصاخب، فيهدأ – فقد كان مركزه في المدينة عظيماً، وكانت تحت يده عهدة محفوظات الدولة. وكان يقرأ على أعضاء مجلس الشيوخ في اجتماعاتهم، ما ورد من أهل المدينة من رسائل ومطالب. أما أولئك الذين حذّروا "بولس" من الاندفاع في مظاهرة الصُياغ وثورتهم، فقد كانوا من المشرفين على الألعاب الأوليمبية، وكذلك على الحفلات الدينية، وهم أناس لهم مقامهم. وهذا يرينا إلى أي مدى وصل تأثير بشارة "بولس" هناك. حتى أن البعض منهم قد اعتنقوا الديانة المسيحية. ولقد كانت هذه الطائفة نُخبة من أثرياء البلدة وعظمائها.

وفي هذه الظروف، قضى "بولس" الفترة التي قضاها هناك، يعلِّم ويبشر كل يوم في مدرسة لإنسان يُدعى "تيرانس"، وقد كللت مجهوداته بالنجاح – حتى أن من كانوا يحتفظون بكتب

[1] وهو بلا شك شهاب ساقط.

السحر، أتوا بها وأحرقوها، برغم أن أثمانها التي وصلت إلى خمسين ألفاً من الفضة! وهكذا كان تأثير تعاليم "بولس"، حتى أن الصاغة وتجار الأيقونات الدينية، خشوا على أنفسهم وتجارتهم الرابحة، ونظموا مظاهرة كبرى طافت بالمدينة، وهي تحمل الشعائر والتماثيل والصور، وتردد التسابيح "لأرطاميس"، واتخذت المظاهرة مركزاً لتجمهرها المسرح القائم على تلة قريبة، وكان سفح التل يستوعب على جوانبه خمسة وعشرين ألفاً. وقد كان للمسرح واجهة رائعة ذات تماثيل، ويوصل بينه وبين الميناء، طريق مرصوف. وبسوق المدينة اكتشفت بنايات ومعابد عامة، وغير ذلك.

ومن أهم الآثار التي عُثر عليها في «أفسس» بقايا «كنيسة العذراء» التي اجتمع فيها "مجمع أفسس" عام (٤٣١ م.). كما أنه اكتشفت السراديب التي استخدمها الأقدمون كمقابر لموتاهم. والتي تدور حولها قصة "أهل الكهف"، وعددهم سبعة، الذين التجئوا إلى هناك عام ٢٥ للميلاد، هرباً من بطش الإمبراطور "دشيان". وعلم الإمبراطور بذلك، فأمر بأن يُختم باب السرداب، ويسد بحجر كبير، ويُتركوا ليموتوا، ولكنهم بدلاً من أن يختنقوا ناموا في أماكنهم مدة ٢٠٠ سنة! واستيقظوا عام (٤٥٠ م.) في أثناء حكم الإمبراطور "ثيودوسيوس الثاني"، وأسقفية "مكسيموس"، واعترفوا بإيمانهم بالمسيح.– وانتهت حياتهم في نفس الساعة.

أما المدينة الأخيرة التي زارها "بولس"، فقد كانت «روما» التي أقيمت على سبعة تلال، تتراوح في ارتفاعها ما بين خمسين وأربعمئة وخمسين قدماً. ولقد بدأت بنايات المدينة في السفوح والوديان ثم امتدت إلى المرتفعات، ولقد كانت «روما» مكتظة بالبنايات من مختلف الأنواع، بنايات الطبقة المتوسطة، وفيلات للأثرياء تحيط بها الحدائق وبنايات حكومية، ومسارح، وحمامات. وكانت تحيط بالمدينة الأسوار من جوانب ثلاثة، أما الجانب الرابع فقد كان يحده «نهر التيبر». وكان طول الأسوار خمسة أميال كاملة، ويحميها من الخارج خندق جبار، وخلف الأسوار ثكنات للجيش، ومخازن للذخيرة والعتاد الحربي . وكان الشعب يعبر «نهر التيبر» عن طريق سبعة كباري تُراقب بكل حرص أثناء الحرب، وقد كانت المياه تصل إلى المدينة من ينابيع

ومجارٍ في الجبال عن طريق شبكة من القنوات المائية، تصب من خلال سبع بوابات في مئة خزان، وهذه الخزانات تغذي الينابيع والبرك الصناعية، والحمامات التي كانت أماكن للاستجمام والتسلية، وتقصِّي الأنباء. وفي وسط المدينة، كان "مبنى الفورم". وهو المركز الديني، والتجاري والقانوني. وكان في اتساع ساحة ملعب الكرة، كما أن المدينة كانت تذخر بعشرات الهياكل، والمعابد لآلهة مختلفين.

وكانت «روما» تضم أيضاً مسرحيْن مكشوفيْن، عدا ثلاثة ملاعب أخرى باسم "نيرون"، و"فلامنيوس"، و"مكسيموس"، وكان سيرك "مكسيموس" يتسع لجلوس مئتي ألف متفرج، وبه أقواس تذكارية "لأوغسطس"، و"طيباريوس"، وثلثمائة تمثال لأشخاص كانوا يوماً ما في عِداد المشهورين، وفي الحدائق والميادين كانت تنتشر الأعمدة الجميلة المُزَيَّنة بالنقوش.

على أنه إلى جانب هذا كانت هناك أحياء فقيرة، بمنازل مكدَّسة متداعية وطرقات ضيقة متعرجة، وكانت حوادث سقوط المنازل كثيرة، كما أن النيران كثيراً ما كانت تشب، وعمليات إطفاء الحريق كانت بالمساومة مع الهيئة المختصة، فإذا لم يتفق الطرفان، تُركت النار لتأتي على المكان وتمتد إلى ما يجاوره، ولم يكن هناك نظام للصرف الصحي، أو تصريف المياه القذرة والقمامة، حتى أن المستنقعات من المخلفات خارج المدينة كانت مرتعاً خصيباً للبعوض والذباب – مما أدى إلى تفشي الأوبئة. ولم تكن الطرقات تضاء بالليل، فكانت حوادث السرقة والسطو منتشرة بالرغم من سبعة آلاف من رجال الأمن كان منوطاً بهم حراسات الليل، ومركبات عسكرية تطوف بالمدينة. ولم يكن يُسمح بالمرور في النهار لغير المركبات الحكومية، والباقي كان مروره بالليل مما جعل الضوضاء وقرقعة العجلات والضجة شيئاً لا يطاق، ولا يسمح بالنوم الهادي – وقد ورد "بسفر الرؤيا" وصف دقيق للحركة والضجيج في «روما» ... واختتمت قائمة النفائس التجارية بالبهائم، والخيل والمركبات وأجساد ونفوس الناس (رؤ ١٨ : ١١ – ١٣).

وهناك مثل يقول "كل الطرق تؤدي إلى روما". فقد كانت هناك شبكة من الطرق المرصوفة الرائعة. وقد دخل "بولس" إلى المدينة من الطريق السلطاني. وقد كان يصل بين «روما» و«كابوا»،

ثـم امـتد بعـد ذلك ليصل إلى «بروند يزيم». وما زالت إلى الآن تستخدم أجزاء من هذا الطريق. وكان الـرومان يرصـفون طـرقهم بـأربع طـبقات، في أسفل الطريق أحجار ممتزجة بمادة تشبه الأسمنت، وفوقهـا قطـع كـبيرة مـن الخرسـانة، تُغطـى بطـبقة ثالـثة مـن القطع الصغيرة حتى يصبح السطح مستوياً، وفي أعلى قطع مسّطحة من الأحجار مسدسة الجوانب متلائمة كل حجر مع الآخر.

ولقـد قـدَّر الـبعض تعـداد المديـنة في عصر "بولس" بمليون وربع نفس. ولكن اكتُشفت مؤخراً لوحـة في «أوسـتيا» تشير إلى أن تعداد المدينة عام (١٤ م.) كان يبلغ أربعة ملايين ومئة ألف نفس. ومـع أن معظـم البـنايات، وأقـواس النصـر، قـد تهدمـت الآن – إلا أنـه بقـي مـا يشـير إلى عظمة «روما». لقد كانت حقا مدينة عظيمة.

ومـن الـنقوش الهامـة الـتي اكتُشـفت عـلى أحـد جـدران "الـبلاتيني". وهـو أحـد القصـور الإمـبراطورية، رسـم سـاخر، لعل أحد الجنود قد رسمه، يمثل صورة رأس قبيحة المنظر معلقة على صليب، وتحـتها ظهـرت صـورة إنسـان رافعـاً يديـه في وضـع تعـبدي. وكـتب أسفل الرسم هذه الكـلمات "ليسـامنوس يتعـبد لإلهه". ومن البديهي أن هذا الرسم قصد به السخرية من المسيحيين. ويـرجع تـاريخ هـذا الأثـر إلى عـام (١٥٠م.) وإلي غربي «الفورم» اكتُشفت بقايا «قصر جوليا» الذي أقيـم عـام (٤٦ ق.م.)، وأُكمـل في عام (١٢م.). وهذا القصر يبدو ذا أهمية فائقة، لأنه من المحتمل جداً أن "بولس" قد سمع حكم الإعدام عليه هناك.

وبالقـرب مـن «قصـر جوليـا» اكتُشف تحت "كنيسة سان جوسيبو" سجن، كان معروفاً باسم "سـجن مامرتيـنوس" وهـو مـن طابقين. العلوي له سقف يصل بالخارج، والسفلي عبارة عن زنزانة مغـلقة لا يمكـن أن يصـل إليهـا مخلوق، إلا عن طريق فتحة ضيقة في أرضية الطابق العلوي، ولقد وصـف "سالسـت"، الـذي عاصـر عـام (٥٠ ق.م.) هذا السجن الكئيب، الذي سُجن فيه الكثيرون مـن المجـرمين السياسـيين والمـتآمرين، قـبل سمـاع حكـم الإعـدام. ويُعتقد أن "بولس الرسول" قد سُجن هـناك – وإن كـان هكـذا، فـلا بـد أن يكـون ذلـك في زيـارة لاحقة للفترة المذكورة في نهاية "سـفر الأعمـال"، لأنـه في هـذه الفـترة عـاش في مـنزل مـنادياً بحق الإنجيل بكل مجاهرة، ويقول

التاريخ إنه أُطلق سراحه، وقام بزيارة «أسبانيا» لنشر الدعوى هناك، ثم عاد مرة ثانية إلى «روما»، حيث قُبض عليه، وحُكم عليه بالموت في عهد "نيرون". وهذا يؤيده المؤرخون المعاصرون له. فيقول "أكليمندس" أسقف روما (٨٠ – ٩٧ م.)، إن "بولس" بعدما طاف في القيود سبع مرات، وبعدما نُفي مرة، ورجم، عاد لنشر الدعوة مرة أخرى. وقال إنه: *"كلَّل خدمته باستشهاده"* ... وكتب العلاَّمة "ترتليان" عام (٢٠٠ م.):

"لقد وُلد "بولس" في رعية رومانية، ولكنه نال ميلاداً أعظم في «روما»، وهبَّ من الموت إلى الحياة يحمل إكليل الاستشهاد"

وكتب عن "كنيسة روما الرسولية"، يقول:

" ما أسعدها من كنيسة سكب فيها الرسل تعاليمهم مختلطة بدمائهم، حيث نال "بطرس" شرف الآلام التي تألم بها سيده، وكُلل "بولس" بميتة نظير تلك التي شرَّفت يوحنا".

والخلاف الواضح بين نغمتي الكلام التي تبدو في "رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس"، وبين الرسائل الأخرى التي أرسلها من السجن، تُرينا أنه لابد أن يكون قد سُجن مرتين. فهو في الأخيرة يأمل أن يأتي ويزور الكنائس التي قام بتأسيسها مرة ثانية، ولكنه في الأولى يكتب بتَوجع، قائلاً: **"فإني الآن أُسكب سكيباً ووقت انحلالي قد حضر. وقد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان. وأخيراً وضع لي إكليل البرّ"**

ومع أن محاولات عِدة بُذلت لمعرفة مكان «قبر بولس»، إلا أنها لم تُسفر عن نتائج حاسمة. ولكن البعض يؤكدون إن جسده يرقد في الكنيسة المسماة باسمه، خارج أسوار المدينة على الطريق العام، وقد أُعيد بناؤها وترميمها عدة مرات. ويرى الزائر لوحة تحت المذبح مكتوب عليها بحروف لاتينية من عهد "قسطنطين": "باولو ابسطولو مرتيري"– أي (الشهيد بولس الرسول).

أما عن "بطرس"، فالتقليد يقول بأنه صُلب منكس الرأس. والبعض يقرنون يوم صلبه بيوم

استشهاد "بولس"، ولكن الأعداد الأخيرة من "رسالة تيموثاوس الثانية"، وهي آخر ما كتب "بولس"، تنفي ذلك التقليد. فهو يقول: "لوقا فقط معي"، ولو كان "بطرس" هناك لذكره بالاسم.

أما الكنيسة التي أُطلق عليها اسم "بطرس"، فيُعتقد أنها أقيمت في مكان استشهاده. وقد قام المنّقبون بالحفر في فناء الكنيسة، وعثروا على بقايا كنيستين تذكاريتين الواحدة فوق الأخرى، تعودان إلى العصور الأولى، وعُثر في السفلى على عظام إنسان مُسِّن قوى البنيان، قالوا إنها "لبطرس". ولكن لو عرفنا أن المسيحيين في القرون الأولى ما كانوا يهتمون بجمع بقايا الموتى وتراثهم، كما أنهم كانوا يعيشون في رعب من اضطهاد "نيرون"؛ لاكتشفنا عدم صواب هذا الرأي.

الباب الثاني

الفصل السابع

كنائس سفر الرؤيا

كنائس سفر الرؤيا

في مستهل "سفر الرؤيا"، نجد رسائل أرسلها الروح القدس بيد "يوحنا" إلى "الكنائس السبع بآسيا الصغرى". والآن لنلق نظرة إلى تلك المدن التي أُرسلت لها هذه الرسائل، لنرى ما يمكن أن يقدمه لنا التنقيب من أضواءٍ على الظروف التي استلزمت ما ورد بهذه الرسائل.

أولى هذه الرسائل، أرسلت إلى مدينة «أفسس». وقد تعرضنا "لكنيسة أفسس" عند حديثنا عن رحلة "بولس الرسول" الثالثة. ويحدثنا المؤرخون بأن "تيموثاوس" جلس على كرسي رئاسة هذه الكنيسة، ومن بعده "يوحنا". وكانت «أفسس» مشهورة بقديسيها، وشهدائها. والتقليد يؤكد أن "العذراء مريم" قضت سنواتها الأخيرة بالقرب من المدينة في رعاية "يوحنا". ولقد خرّب الغزاة من "قبائل القوط" مدينة «أفسس»، ومعبدها الشهير "لأرطاميس – أو ديانا"، عام (٢٦٢ م.). وأُعيد بناء المدينة مرة أخرى، وأصبحت قلعة جبارة من قلاع المسيحية. وفي عام ٤١٣م.، عُقد هناك مجمع كنسي للفصل بين الكنيسة و"بدعة نسطور"، وقد كان أسقف «القسطنطنية»، والرئيس الروحي للكنيسة النسطورية في «إيران». وكانت إحدى نقاط خلاف "نسطور" تلقيب "العذراء" (بأم الرب)، وحينما قرر المجلس أن يكون هذا لقبها، ابتهج الشعب، ودقت أجراس الكنائس.

ولقد تدهورت «أفسس» تدريجياً، حينما ساد عليها وباء "الملاريا". فتناقص عدد سكانها، وهجرها الباقون، واستقروا في المرتفعات، بعيداً عن المياه والناموس. وتكاثف الطمي في النهر

والميناء، وامتلأت المدينة بالمستنقعات والغابات، وغرق الهيكل في الوحل والطين. وفي "سفر الرؤيا" (٢: ٤-٥) يحذّر "يوحنا" الكنيسة لتعود إلى محبتها الأولى، وإلا تُزحزح منارتها. فإن أخذنا عِبرة من التاريخ، فإننا نقول إن الكنيسة لم تتحذر هناك لمصيرها.

أما «سميرنا»، فتقع على بعد خمسين ميلاً شمال «أفسس». ولقد كانت رسالة المسيح لها عن: "**الذي كان ميتاً فعاش**" هي أنسب رسالة لأهل «سميرنا»، لأن هذه المدينة، قد دمّرها "الليديون" في القرن الخامس قبل الميلاد، وأُعيد بناؤها بعد ذلك التاريخ بأربعمائة عام، وهكذا عادت للحياة. أما «جبل باغوص»، الذي أقيمت على سفحه الكثير من "الفيلات" الرائعة الجمال، فقد استحق بسبب ذلك أن يُدعى "إكليل سميرنا". وعلى العقود المتداولة، كان شعار المدينة صورة إنسان يلبس إكليلاً. لذلك فإن الوعد: "**فسأعطيك إكليل الحياة**"، كان مناسباً لها كل المناسبة، وقد كانت «سميرنا» شهيرة أيضاً بمباريات السباق، والألعابِ الأولمبية. وكان الفائز يُكلل بأكاليل النصر، ولكن إكليل الحياة الذي يهبه الرب كان إكليلاً أبدياً.

وهناك كنيسة بُنيت في «سميرنا» منذ القديم، ويبدو أنها نشأت في مستعمرة يهودية. وكان أشهر أساقفة سميرنا "بوليكاربوس" تلميذ "يوحنا الحبيب"، وصديقه[1]. وكان "بوليكاربوس" يُحب أن يذكر ويتلو كل ما قاله "يوحنا" عن السيد. وكان عمره في ذلك الحين قد وصل إلى الثمانين، حينما ذهب في رحلة إلى "روما"، لفض نزاع حدث بصدد الاحتفال بعيد القيامة. وبعد عودته إلى «سميرنا» بقليل، بدأت عاصفة الاضطهاد على المسيحيين في هذه المنطقة. ولكن استجابة لتوسلات أصدقائه، اختبأ في مزرعة قريبة، وكان أصدقاؤه يسهرون على خدمته، ولكن عبداً مسيحياً قبض عليه الأعداء أفشى سر مخبئه تحت الضغط والتعذيب، فهجم عليه الوثنيون،

[1] فقد كان معاصراً لأقدم مخطوطة "لإنجيل يوحنا"، واستشهاده بطريقة غاية في الشجاعة يُعطي شهادة قوية لمخطوطات الكتاب المقدس، فشهادة مثل هذا الرجل العظيم تعطى مصداقية لإيمانه، وللإنجيل الذي كان موجوداً في وقته، ولقد حفظ الوحي شهوداً أمناء عبر التاريخ. [المُراجع].

وأحضروه إلى الملعب الذي كانوا يلقون فيه بالمسيحيين إلى الوحوش الضارية.

أما الوالي، فقد جاهد لينقذه من الموت، وقال له متوسلا:

"احلف باسم الإمبراطور، وأرفض مسيحك".

فأجاب "بوليكاربوس" في ثبات

"ستة وثمانين عاماً قمت فيها بخدمته ولم يُسيء، إلي مرة واحدة، فكيف أجدف على ذلك المليك الذي خلصني؟"

وقد حُكم على "بوليكاربوس" بأن يُرمى للأسود. ولكن الأسود كانت قد شبعت من لحوم أحد عشر مسيحياً حُكم عليهم بالموت. وهكذا، لم يجد الجمهور بُداً، من أن ينتزع "بوليكاربوس" ويأتي بحزم من الخشب ويُشعل فيه النار. ولكن النار كانت تزمجر فوقه، ولا تمسه. فيضيق واحد من الجلادين بهذا، ويخترط سيفه، ويمزق جسد القديس. وهكذا يقترن تاريخ «سميرنا» باستشهاد الرجل العظيم "بوليكاربوس". أما اسمها الآن، فهو «أزمير» «بتركيا»، وآثارها ما زالت موجودة لليوم.

أما «برغامس»، فقد كانت مقر الحكومة والسلطة، لذلك يوافقها تلقيب المسيح بذاك الذي له السيف الماضي ذو الحدين، إشارة إلى تقدير الشعب للسلطان. وفي هذه المدينة كان قد أقيم أول هيكل في «آسيا» بأكملها، لعبادة الإمبراطور الروماني، ولذلك فقد لقب الوحي المدينة بأنها "حيث كرسي الشيطان". وفي (عدد ١٣) من الأصحاح الثاني من "سفر الرؤيا" يُحذر الوحي المسيحيين بأن يختاروا بين اسم الإمبراطور أو اسم المسيح. أما الحصاة البيضاء فقد كانت موضوعاً لتخمينات الكثيرين. ولعل أقرب هذه إلى الصدق هي أنه كانت هناك عادة للمحلفين[1]، أنه إن ثبتت براءة إنسان من تهمة ما، يُبرزون له الحجر الأبيض. وهناك رأى آخر أنه ما كان ليسمح لواحد أن يدخل إلى حفل

---

[1] هيئة في المحكمة تتكون من عشرة مواطنين عاديين، يُختارون من ذوى النزاهة، ويُسألون في نهاية المحاكمة هل المتهم كان بريئاً أم مذنباً؟ بعد أن شاهدوا سير المُحاكمة. [المُراجع].

أو اجـتماع إلا إذا أُبرز لوحاً من الحجر، (أو قد يشير إلى طلسم تقليدي كان معتقداً أنه يفتح أبواب الكنوز).

أمـا "الحـق المخفـي" فهـو إشـارة إلى أن أولـئك الذيـن يرفضـون الاشـتراك في مائدة الشيطان وتعاليمه، يقتاتون من الخبز النازل من السماء.

وقـد كشفت أعمال التنقيب عن بقايا معبد للإله "زيوس"، أُقيم عام (١٨٠ ق.م.) بنقوش فنية غايـة في الـروعة. وعـلى قمة تل مرتفع، اكتُشفت معابد أخرى «لسوتر»، و«أثينا»، و«ديونسيوس»، وهـناك معـبد خـاص في قـلب المديـنة للإلـه "اسكلبياس" إله الطب، وقد كانت «برغامس» مدرسة شهيرة للأطباء.

أمـا «ثيـاتيرا» فقـد كـانت عـلى بُعد أربعين ميلاً من «برغامس»، وقد أثبتت الآثار أنها كانت مركـزاً لـنقابات المهن التجارية المختلفة. وكانت من ضمن هذه النقابات هيئة قوية لصناعة التماثيل وبيعهـا. وهـذه الهيـئة رأت في انتشـار المسـيحية، بواراً لصناعتها – كما أن الاجتماعات التي كان يقـيمها أعضـاء النقابات كانت في الغالب تنتهي بالخمر والأفعال القبيحة، مما كان مهدِداً للكنيسة . لذلـك، فقـد لـزم الأمـر في هذه الرسالة أن يُحذر المسيحيون من "إيزابل" التي تغوي عبيد الله أن يأكـلوا ممـا ذُبح للأوثان ويزنوا – وقد كانت «ثياتيرا» مركزاً لصناعة التماثيل النحاسية. لذلك، فإن وصف المسيح بأن رجليه كالنحاس المُحمى في النار، هو وصف في غاية المناسبة.

و«سـاردس» كـانت العاصـمة السـابعة «لمـلكة ليديـا» – وهي تبعد إلى مسافة خمسة وثلاثين ميـلاً جـنوب غـرب «ثيـاتيرا». وكـان تاريخها مظلماً في الشر والإجرام. أما عن التهديد بأن المسيح سـيأتي كـلص في الـليل، وأن عـلى الكنيسـة أو ملاكهـا، أن يسـهر حتى لا يُؤخذ على غرة، فإن المتتـبع لـتاريخ «سـاردس» يـرى أن هـذا الـتحذير مأخوذ من تاريخها. فقد استولى عليها "سيرس" مـرتين، في غفـلة قـائد حاميـتها. واستطاع "أنطيوخوس" الكبير أن يستولي على قلعتها الحصينة، حيـنما ظـن جـنود الحامية أن جانباً منها، شديد الإنحدار، ولا يمكن أن يتسلقه مخلوق، فتسلقوه

بالحبال. لذلك، فإن السيد يُحذر منْ بها، قائلاً: "اسهروا".

و«فيلادلفيا» كانت على بعد ثمانية وعشرين ميلاً، جنوب غرب «ساردس». وقد انتابها في فترة من تاريخها زلزال رهيب، وهرب الناس من بيوتهم في فزع. لذلك فقد كان من الملائم أن يتحدث الرائي إلى المسيحيين بأن يكونوا أعمدة ثابتة لا تتزعزع. وبعد كارثة الزلزال، توالت معونات قيصر على أهل المدينة الذين فقدوا بيوتهم، فأُعطيت المدينة اسم جديد وهو "قيصرية الجديدة"، وهكذا تقول الرسالة بأن المؤمن الغالب سيكتب عليه المسيح: **"اسم إلهي واسم مدينة إلهي أورشليم الجديدة ... وسأجعله عموداً في هيكل إلهي ولا يعود يخرج إلى خارج"**. وقد كانت العادة السارية أن الكاهن الذي يقود الشعب في عبادة الإمبراطور، بعد أن يُنهي سنة نوبته في الكهوف، يُقيم تمثالاً في المعبد، يُكتب عليه اسمه، واسم أبيه، ومكان سكناه ومولده، وسنة كهنوته. واستمرت هذه فريضة ثابتة. وهكذا يقول السيد الرب إن المؤمن الأمين سيبقى في هيكل الإله الحقيقي إلى الأبد. على أن العبادة السائدة في المدينة، كانت عبادة "ديونسيوس" إله الخمر، ذلك لأن وديان الكروم كانت تحيط بها. ومع ذلك، فعلى المؤمن، في هذا الوسط الشرير، أن يكون غالباً منتصراً، وأن يتمسك بما عنده، لئلا يأخُذ أحد إكليله.

أما مدينة «لاودكية»، فبالقرب منها كانت تكثر الينابيع الدافئة، لذلك فمن المناسب أن يُحذِّر الرائي الكنيسة بأنها ليست باردة ولا حارة بل هي فاترة .. بل إن نجاح أهل المدينة الزمني، قد دفعهم إلى الاكتفاء بالماديات، وعدم الاكتراث بالأمور الروحية: **"لأنك تقول إني غني وقد استغنيت ولا حاجة لي إلى شيء"**. وهم لا يعرفون أنهم فقراء في الغنى الحقيقي، أما الثياب فقد كانوا يرتدون ثياباً سوداء، ولكن الرائي يطلب منهم أن يلبسوا الثياب النقية البيضاء. وقد كانت المدينة مشهورة أيضاً بنوع من مراهم العيون، وهو يشير عليها بأن تأخذ كحل الحياة النقية، المكرَّسة للمسيح حتى تستطيع أن تبصر.

وعلى ذلك، نرى أن هذه الرسائل التي أرسلها الروح بيد "يوحنا الرائي" إلى هذه الكنائس

السبع، كانت رسائل شخصية تتفق وحالة كل كنيسة، والبيئة التي تعاصرها، والمجتمع الذي يحيط بها. [ولعلنا نستطيع الآن أن نرى هذه الرسائل السبع للكنائس بصورة أخرى، في هذا النور الجديد. والأهم أن نتحذّر من هذه الأخطاء، فنعيش الحياة الساهرة الغالبة المكّرسة للمسيح، فيحق علينا القول بأننا أولاد روحيون لله (يو ١: ١٢)، فهذه هي الحياة المسيحية الحقيقية التي ينبغي أن يعيشها المسيحي الحقيقي، وإلا فليحذر أن يكون إيمانه عقلياً فقط، فيأتي السيد ويزحزح منارته (كما في كنيسة أفسس)، فالمسيحي الحقيقي يعيش الحياة التي تمجد الله، فينال إكليلاً أبدياً].

تذييل

اعتقد أننا لا نستطيع، حالياً، أن نضيف شيئاً أكثر مما أُزيد وأُثبت في الصفحات السابقة، حينما استعرضنا مواكب التاريخ، ورأينا فيها صدق الكتاب المقدس؛ كما تؤيّده الحفريات الحديثة، حتى أنه ما كان أحد يصدق أن الكتاب يتفق والتاريخ، بهذه الدقة المتناهية. وحسناً – شهد أحد الثقات، وهو "د. نلسون جليك"، الذي قضى سنين عديدة، في البحث والتنقيب بالأراضي المقدسة، فقال:

"من الحقائق المذهلة، إنه لم يقف اكتشاف واحد من الاكتشافات الحديثة، في وجه الحقائق المدّونة بالكتاب المقدس. بل إن كل اكتشاف يؤيد في أدق تفصيلاته كل ما ورد في الكتاب المقدس"

وهكذا .. نستطيع أن نؤكد إنه بالرغم من أن كُتّاب الأسفار الإلهية، لم يقصدوا من تسطير ما ورد بها، تاريخاً بحتاً، فإننا نقول إن الكتاب المقدس، هو أصدق مرجع تاريخي، في العصور التي يشير إليها، إنه أقوى شاهد على سلامة الوحي الإلهي، وعلى صدق أولئك الذين دوّنوه [بالروح القدس] ...، وما زال الميدان متسعاً، يكشف كل يوم عن جديد. ومع ذلك، فالدلائل كلها تشير إلى أنه لم يُعد هناك موضع لناقد، أو معترض على أسفار الإنجيل (العهد الجديد)،

وعلى التاريخ الذي دُوِّنت فيه.

وكما رأينا، فقد اكتُشفت أجزاء من "بشارة يوحنا"، ترجع إلى عصور سحيقة في القدم. بل إن اكتشافات "وادي قمران"، تشير، إلى أن أسلوب "يوحنا" في كتاباته، أسلوب قديم معروف. وهذا يؤكد قِدمه، بل إن دقة "يوحنا" في ذكر الأماكن، ومعرفته الشاملة بكل ركن من أركان «أورشليم»، قبل سقوطها، يؤكد قِدم هذه البشارة. ويقول "د. / ألبرايت"، وهو العالِم الأثري المعروف في الدراسات الكتابية للعهد القديم والجديد:

" بفضل اكتشافات قمران، تيّقنا تماماً إن العهد الجديد هو كما كُتب بمعرفة الأقدمين، وهو الذي يحوي تعاليم "السيح"، واتباعه من التلاميذ والرسل. وكلها لا يتجاوز تاريخها الفترة ما بين عام (٢٥ –٨٠م.). وبالطبع، كلما كان المؤرخ معاصراً للحوادث التي يكتب عنها؛ كانت روايته أدق وأقرب إلى الصواب."

وبعد .. لقد انتهت هذه الصفحات، ولكنها لم تنتهِ بعد. فهناك الآلاف من التلال، في شرقنا العزيز، تضم بين أحضانها، مُدناً وكنوزاً، وأجيالاً، وحضارات، ستكشف عنها الأيام القادمة. ولكن يكفينا القول إنه حتى هذه اللحظة، لم يُكتشف أثر واحد يطعن في صحة الكتاب المقدس، أو يشكك الباحث في حرف واحد من نصوصه.

ولكن الفائدة الحقيقية للكتاب تبدأ عندما تقرأه، وتعرف رسالة الله لفداء البشرية التي هي محور الكتاب المقدس، وتفتح قلبك لعمل الله (رؤ ٣: ٢٠)؛ فتصبح ابناً روحياً لله (يو١ : ١٢)، ووارثاً للسماء.

فإن سكت أولاد "إبراهيم" فإن الحجارة تتكلم، وقد تكلمت بالفعل – كما رأينا بين صفحات هذا الكتاب، لكن هل تستجيب لرسالة الله لك وتفتح قلبك له وتسلمه إرادتك؛ فتعيش كلماته في كتابه المقدس. فتكون لك الوعود المباركة، وفي قمتها الثقة واليقين من نوال الحياة الأبدية؟ بل ويمكنك التمتع بهذا اليقين والرجاء المبارك الآن.

قالوا في الأحجار تتكلم

"الكتاب الذي بين يديك بحث شيق وعميق ودقيق .. حين تقرأه تمجد الله الذي لم يترك نفسه بلا شاهد - حتى وإن كان هذا الشاهد هو الحجارة غير الناطقة، كما قال السيد المسيح : إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ (لو ١٩: ٤٠).

وعندما يكتشف العلماء آثار الحضارات القديمة، فإنها تثبت صحة الكتاب المقدس، وكذا الإيمان الثابت المبني على الصخر"

الأنبا بطرس

الأسقف العام

"إن كلمة الله في الكتاب المقدس أمينة وصادقة وهبة وموحى بها من الروح القدس .. وهذا الكتاب يأخذنا في رحلة ممتعة .. فيها نتحقق من صحة وصدق الكتاب المقدس كلمة الله الحي الذي هو قادر أن يحفظ من التحريف كل حرف من حروف كلمته، التي ما زالت قادرة على إحداث تغيير شامل في حياة كل من يؤمن بالمسيح يسوع - الكلمة المتجسد"

المطران / منير حنا

مطران الكنيسة الأسقفية بمصر وشمال أفريقيا والقرن الأفريقي

"كتاب الأحجار تتكلم لازم لمن يريد برهاناً جديداً على صحة الكتاب المقدس كما هو بين أيدينا اليوم. كتبه باحث مدقق يعتمد على ما وصل إليه من بحوث. ومع أن المؤمن الحقيقي يعرف أن الكتاب المقدس هو كلمة الله الموحى بها، والتي وعد الله بحفظها، إلا أنه يحتاج إلى هذا الكتاب ليقنع به من يشكك في صحة كلمة الله. إنه كتاب لا غنى عن قراءته"

القس / منيس عبد النور

راعي الكنيسة الإنجيلية بقصر الدوبارة

"على مدار السنين هاجم بعض العلماء حقائق تاريخية وجغرافية في الكتاب المقدس. وقد ظهر علم الآثار الحديث ليثبت ويؤكد كثيراً من المعلومات الموجودة في كلمة الله. وتفتقر المكتبة المسيحية العربية إلى هذه
من الكتب الدراسية
كتاب الأحجار تتكلم

رامز عطا ال

مدير دار الكتاب المق

دار النشر الأسقفية